النهج الرشيد
في التعليق
على القول السديد
في مقاصد التوحيد

تأليف:
أد. محمد بن عبد الرحمن الخميس

اعتنى به:
عبد الرحمن بن مقبل الشمري

ج١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١) .

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد: فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة(٤).

وبعد: فإن العقيدة الإسلامية الصحيحة قد تعرضتْ في بعض فترات التاريخ إلى كثيرٍ من التشويه والتحريف على يد أهل الأهواء والبدع الذين أبعدوها عن صفائها ونقائها، فانحسر أثرها في كثيرٍ من البلدان الإسلامية.

هذا وقد عُرف وتميز ما بعد القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر وهو الزمن الذي عاش فيه الشيخ الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- بالجمود المذهبي والفكري، والانحطاط الاجتماعي، فرغم توافر العلماء في بعض البلاد الإسلامية، ولكن أكثرهم وللأسف على عقيدة أهل الكلام وينحون منحى التصوف، والعصمة في ذلك باتباع ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والالتزام بطريقة سلف الأمة.

فالعالم الإسلامي يعاني زمن الانحطاط والضعف في كثيرٍ من نواحي الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية بسبب تفشي الجهل، ووقوعه فريسة للتخلف الحضاري والجمود الفكري، والانحراف عن جادة الإسلام الصحيح، حيث تسربتْ

---

(١) آل عمران: [١٠٢].
(٢) النساء: [١].
(٣) الأحزاب: [٧٠-٧١].
(٤) هذه الخطبة تسمّى بخطبة الحاجة، كان النبي ﷺ يُقدِّم بها بين يدي كلامه ويعلمها لأصحابه، رواها: أبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد جمع طرقها وشيئًا من فقهها الشيخ ناصر الألباني (رحمه الله) في رسالة لطيفة.

إليه الكثير من أنواع البدع والخرافات، ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير المؤرخ الأمريكي (لوثر وب ستوتودارد) بقوله: «في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركة...وأما الدين فقد غشيتْه غاشية سوداء فألبستْ الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس، فانتشرت الخرافات وقشور الصوفية، وخلتْ المساجد من أرباب الصلوات، وكثُر عدد الأدعياء الجهلاء، وطوائف الفقراء، والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغِّبونهم بالحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابتْ عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرتْ الرذائل وهُتِك ستر الحرمات على غير خشية، ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي ﷺ على من استطاعه ضرباً من المستهزءات»(١).

ففشَتْ البدع وانتشرتْ قبل ولادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- واعتقد الناس النفع والضر بالرسول ﷺ والصالحين وبالقبور والأشجار والقباب والمزارات، فيطلبون منها الحاجات ويرجعون في الشدائد إليهم، وينذرون لهم ويذبحون لهم.

ومن أشد البدع فتكًا وأكثرها رواجًا: دعاية المخرفين والقبوريين والصوفية المبطلين، والباطنية الذين لمْ يدخروا وسعًا في نشر البدع والضلالات باسم الدين ومحبة آل بيت النبي ﷺ وأولياء الله الصالحين، والدين منهم براء، فدعوا إلى عبادة القبور وحسَّنوها للجماهير بشتى الأساليب من بناء القباب والأضرحة عليها وتزويقها(٢) ووضع الستور النفيسة عليها لجذب الناظرين والزائرين إليها، وأنْ تكون تلك القباب محل الدهشة والإعجاب، وجعلوا السدنة حولها ليطوفوا بالزائرين حول الضريح، ويعلموهم كيف يدعون الأولياء وآل البيت الكرام، ويُنزِلون بهم

(١) ينظر: كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، تعليق: شكيب أرسلان، مطبعة عيسى الحلبي، (صـ ٢٥٩-٢٦٠).
(٢) وقد ذكر العلماء رَحِمَهُم اللهُ تَعَالَى خطورة تعظيم القبور، وأنه يؤدي إلى الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وأصل الشرك هو من تعظيم القبور». «قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان» (صـ ١٠٢)، وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «سبب عبادة يغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم». «إغاثة اللهفان» (صـ٣٣٤)، وقال العلامة ابن رجب -رحمه الله- تعالى: «فإن أصل الشرك وعبادة الأوثان كانت من تعظيم القبور». «فتح الباري» (١٩٩/٣)، وقد بين شيخ الإسلام أن زيارة القبور ليست للتعظيم، فقال: «زيارة القبور التي شرعها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذنًا فيها، وفعلًا لها، أو ترغيبًا فيها- إنما المقصود بها نفع الزائر للمزور وإحسانه إليه بدعائه له واستغفاره له إن كان مؤمنًا، وإن كان كافرًا فالمقصود بها تذكرة الموت، ليس المقصود بما شرعه الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- من زيارة القبور خضوع الزائر للمزور لعلو جاهه وقدره». «الإخنائية» (صـ ٤٦١).

حاجاتهم، بدلًا من اللجوء إلى الحي الذي لا يموت -سبحانه وتعالى- ومن بيده ملكوت كل شيء.

وقد اخترعوا لأجل ذلك حكايات سمجة عن القبور، وكرامات مختَلَقَة لا تمت إلى الصحة بنصيب، ككتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني، فلو قرأ هذا الكتاب رجلٌ يريد البحث عن الدين الحق لامتنع عن الدخول في الإسلام(١).

ومن أساليبهم نشر البدع والضلالات باسم الدين ومحبة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأولياء الله الصالحين، ولا ريب أن الدين بَرَاءٌ من تلك البدع والضلالات.

كذلك من أساليبهم إنشاء قصائد تطفح بالاستغاثات التي لا تصلح إلا لخالق الأرض والسماوات، ومن ذلك يقول أحدهم(٢) مخاطبًا النبي ﷺ:

يا أكرم الخلق مالي مَن ألوذ به   سواك عند حُلول الحادث العَمَمِ

فهذا لا شك أنه كلام شرك وضلال.

وقال آخر(٣):

---

(١) أشار شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- إلى أن بعض الفِرَق كان أصلها من وَضْع الزنادقة، وأشار أيضًا إلى أن ما تذكره بعض الطوائف من الأكاذيب؛ قد تسلط من خلاله الأعداء على الطعن في الإسلام، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصل الرفض كان من وضع قوم زنادقة منافقين، مقصودهم الطعن في القرآن والرسول ودين الإسلام، فوضعوا من الأحاديث ما يكون التصديق به طعنًا في دين الإسلام، وروجوها على أقوام، فمنهم من كان صاحب هوى وجهل، فقبلها لهواه، ولم ينظر في حقيقتها، ومنهم من كان له نظر فتدبرها، فوجدها تقدح في حق الإسلام، فقال بموجبها، وقدح بها في دين الإسلام، إما لفساد اعتقاده في الدين، وإما لاعتقاده أن هذه صحيحة وقدحت فيما كان يعتقده من دين الإسلام؛ ولهذا دخلت عامة الزنادقة من هذا الباب، فإن ما تنقله الرافضة من الأكاذيب تسلطوا به على الطعن في الإسلام». «منهاج السنة النبوية» (٧/٩).

(٢) البيت للبوصيري، وهو في بردته المشهورة المسماة بـ«بردة المديح» (صـ ٢٢) ط منشورات دار التراث، وهذا البيت، والأبيات التي تأتي بعده؛ فيها غلو وإطراء بالنبي صلى الله عليه وسلم، يقول الشوكاني رحمه الله في بيان خطورة وضلال ما قاله البوصيري: «فانظر رحمك الله تعالى ما وقع من كثير من هذه الأمة من الغلو المنهي عنه المخالف لما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يقوله صاحب البردة رحمه الله تعالى:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

فانظر كيف نفى كلَّ ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وغفل عن ذكر ربّه وربّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنا لله وإنا إليه راجعون». «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» (صـ ٩٠-٩١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله-عن أبيات البوصيري-: «ونشهد أن من يقول هذا، ما شهد أن محمدًا عبد الله، بل شهد أن محمدًا فوق الله». «القول المفيد» لابن عثيمين (١/٦٩).

وقد استدرك-أيضًا- على هذه الأبيات جماعة من أهل العلم. ينظر: «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبدالله (صـ ١٨٢)، و«فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» لعبدالرحمن بن حسن (صـ ٤١٤).

(٣) البيتان لعبد الرحيم البرعي اليماني، «ديوان البرعي» (صـ ١٥٨).

وحُلَّ عقدة كربي يا محمدُ من   هَمٍّ على خطرات القلب مطرد
أرجوك في سكرات الموت تشهدني   كيما يهون إذ الأنفاس في صُعَد

وقال بعضهم(١):

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي   يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته   وأنت لي ملجأ من حادث الدهر

فهذا غلوٌّ وإفراطٌ من هذين الشاعريين، فالله هو المُرتَجى والملاذ، وبيده النفع والضر -سبحانه وتعالى-(٢).

وكذلك من أساليبهم تأليف الكتب التي تدعوا إلى عبادة الأنبياء والصالحين، وآل البيت الكرام، سُبِكتْ في قالب حب الأنبياء والأولياء، والواسطة بيننا وبينه تعالى، ويعززون كلامهم بحكايات ليس لها حظ من الصدق، وبأحاديث موضوعة صريحة تدعوا إلى الوثنية المحضة؛ كحديث: «**لو اعتقدتم بحَجَرٍ لنَفَعَكُم**»(٣)، وعمَّ هذا الداء الوبيل سائر الأقطار الإسلامية(٤).

وكان حظ نجد في هذه الجاهلية الجديدة أكبر الحظوظ، فقد اجتمع على أهله الجهل والبداوة، والانقسام في كل ناحية من نواحي نجد من الأمراء بمقدار ما كان فيها من القرى، ففي كل قرية أمير، وذكر ابن بشر أن قرية التويم عليها أربعة أُمراء، فقسموا البلد أرباعًا، كل واحد من رؤساء البلد شاخ في ربعها، ثم قال:

---

(١) ذكره دون نسبة صاحب: «تيسير العزيز الحميد فس شرح كتاب التوحيد» (صـ ١٨٥).

(٢) وقد كان أهل العلم ينكرون على أبيات هي أقل من هذا الإطراء؛ محافظة على جناب التوحيد، كأبيات المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله   ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره   ولا يهيضون عظما أنت جابره

قال العلامة ابن كثير رحمه الله معلقا على هذين البيتين: «وقد بلغني عن شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله – أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله عز وجل. وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم - رحمه الله - أنه سمع الشيخ يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود». «البداية والنهاية» (٢٧٩/١٥).

(٣) وفي لفظ: «**لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ لَنَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ**». قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥١٣): «هو من كلام أهل الشرك والبهتان، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم؛ كما قال الله تعالى: **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}** [الأنبياء: ٩٨]، لكن قال النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». [رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]».اهـ.
وقال في «جامع المسائل» (١٠٤/٥): «كذبٌ مفترى باتفاق أهل العلم».اهـ.
وقال ابن القيم في «المنار المنيف» (صـ ١٣٧) ط عالم الفوائد: «هو مِن وضْع المشركين عُباد الأوثان».اهـ.
ونقل السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٨٨٣) عن الحافظ ابن حجر قوله: «لا أصل له».اهـ.

(٤) ينظر: «تطهير الجنان والأركان» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي (صـ ١٠).

«فإن هذه قرية ضعيفة الرجال والمال، وصار فيها أربعة رجال، كلٌّ منهم يدَّعي الولاية على ما هو فيه»(١).

وفي تلك البيئة نشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- فرأى شمس الإسلام إلى أُفول، ورأى ظلمة الشرك والبدع إلى امتداد وشمول، وأراد الله له الخير فقدَّر أنْ يكون من الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم يبعثون يجددوا لهذه الأمة دينها، فقد أخبر النبي ﷺ بأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(٢)، قال المناوي في «فيض القدير»: «... «**يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» أي: يبين السنة من البدعة، وينشر العلم وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم، قالوا: ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية»(٣).اهـ.

وقد حقق الله على يدي العلامة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- عودة نجد إلى التوحيد الصحيح والدين الحق، والألفة بعد الاختلاف، والوحدة بعد الانقسام(٤).

جاء في رسالة سطرها بعض تلاميذ الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب حكاية الحالة المزرية لنجد آنذاك فقالوا : «ديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم، فوقعنا في الشرك، فقد ذبحنا للشياطين، ودعونا الصالحين، ونأتي الكهان، ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب، وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة ... والشرك بالله يخطب به على منابرنا ... وكذلك تعطيل ...الصفات»(٥).اهـ.

هذه حالة بعض الحاضرة(٦)، كما يصفها الشاعر راشد الخلاوي الذي عاش قبل ظهور الدعوة الإصلاحية كما في هذه الأبيات:

فان سِلْت قومي يا منيع فلا تسل — أحجار وأشجار يعبدون خايبه
عصاة قساة من حديد قلوبهم — فلو أنهم من صم الأحجار ذايبه

---

(١) ينظر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/١٥٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٩٩).
(٣) ينظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٢/٢٨١) ط المكتبة التجارية.
(٤) ينظر: «خواطر حول الوهابية» (صـ ١٩-٢٠).
(٥) ينظر: «علماء نجد» للبسام (٤/٣٦٧-٣٦٨).
(٦) ينظر رسالة: «الحياة الاجتماعية عند حاضرة نجد» للدكتور عبد الرحمن العريني (صـ ٤١-٦١).

فلا عندهم إلا إبليس عقيدهم فالبعض ابن له والبعض شايبه
غدوا قرن شر كل قرن مُطَرّد عن الكون ماوى للشياطين دايبه
محا الله سعد يا منيع وقومه كما قد محا من صفحة اللوح كاتبه
تخليت عن قومي محا الله دارهم واهْمي عليهم من نوامي نوايبه
تخليت عنهم يومهم غار دينهم ومن غار عنه الدين غارت مشاربه(١)

أما بادية نجد عموماً فقد كانت تعيش في جاهلية جهلاء، فهي لا تعرف الشعائر الإسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وكانت تتحاكم فيما بينها بأعراف وتقاليد لا تمت إلى الأحكام الإسلامية بصلة، ويتضح فيها الجور من جهة، والتساهل في إحقاق الحق من جهة أخرى(٢).

ويبيِّن الشيخ محمد بن عبد الوهاب حالة ما عليه أكثر البوادي (عنزة والظفير) وأمثالهم من عدم إقرارهم بالبعث(٣) وعدم اتباعهم كتاب الله، وأنهم يقولون: «إن كتاب الله عند الحضر وإنهم عايفينه» ومتبعون ما أحدث آباؤهم مما يسمونه: «الحق» ويفضِّلونه على شريعة الله، وفيهم من نواقض الإسلام أكثر من المائة ناقض كسَبِّ الشرع، أو سب الأذان إذا سمعوه(٤).

وأيضاً أثبت ابن بشر أن للأعراب سببًا ظاهرًا في التلبيس على الحاضرة وإضلالهم، فإن الحضر يذهبون إلى الأعراب لأجل التداوي، فزين لهم الأعراب الذبح لغير الله تعالى، وعدم التسمية على الذبيحة... فطال عليهم الأمد، واستفحل الشر وتتابع(٥).

وقد تحدث مؤرخ الدعوة ومعاصرها ابن غنام عن واقع نجد وما فيه من

---

(١) ينظر: «راشد الخلاوي حياته شعره» لعبدالله بن خميس (صـ ٢٣٧).
(٢) ينظر: «الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد» للعريني (صـ ٢-٦)، (رسالة غير منشورة).
(٣) يظن بعض الكُتَّاب المثقفين والمتخصصين في التاريخ من المعاصرين أنَّ هذا الكلام فيه مبالغة، وقد تكررتْ وحصلتْ هذه المسألة في زمن الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية، فقد بلغه عن انتشار الجهل في بعض البوادي، وأنه يوجد بعض الأفراد بجهلهم لا يؤمنون بالبعث والمعاد، فأرسل إليهم وفدًا على رأسهم الشيخ عبد العزيز أبو حبيب الشثري، والشيخ عبد الرحمن الفريان، والشيخ عبد الله الجبرين رحمهم الله لتوعيتهم وتعليمهم.
قلتُ: وقد أخبرني تلميذي الدكتور محمد بن مديسيس العنزي -وهو من أهل عرعر- أنه يوجد عجوز في ناحيتهم لا تعرف البعث وتُنكِره. انظر: كتاب: «العذب الزلال في اختصار رحلة الشمال» لمحمد بن ناصر الشثري، وأصل الرحلة كتبها الشيخ عبد الله الجبرين، ولخصها الدكتور محمد بن ناصر الشثري.
(٤) ينظر: «تاريخ ابن غنام» (١٠٧/١).
(٥) ينظر: «عنوان المجد» (٣٤/١).

انحرافات عقدية من خلال أمثلة ظاهرة وحكايات واقعة مثل اتخاذ القبور مساجد كقبر زيد بن الخطاب(١) وضرار بن الأزور، ونحوها من قبور أخرى تنسب للصحابة ﷺ، والتعلق بالأشجار والتبرك بها كشجرة الطرفية، والفحَّال، وشجرة الذيب، وشجرة أبي دجانة، والتبرك بغار بنت الأمير بالدرعية(٢).

وكذا الافتتان بالطواغيت، والغلو في أدعياء الولاية والصلاح، مثل: تاج وشمسان وأولاده، ويوسف، وإدريس، وحطاب، وحسين، وعثمان، وعباس، وأبي حديدة كما هو مبسوط في رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب(٣) وكذا استفحال البدع العملية وظهورها في نجد.

بل إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد حكى هذا الواقع القائم في عدة مواضع من رسائله، فقد ذكر هؤلاء الطواغيت، وغلظ عليهم وحذر منهم، وساق نماذج من البدع والمحدثات الواقعة في نجد كما مرّ آنفًا كما بين حال الأعراب آنذاك وأنهم «يكذبون بالبعث، وينكرون الشرائع كلها، ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله، ولو طلب أحد مِن خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدوه من أنكر المنكرات، بل من حيث الجملة إنهم يكفرون بالقرآن من أوله وآخره ويكفرون بدين الرسول كله»(٤).

وعن الحالة الدينية في بادية الحجاز ونجد يحدثنا الدكتور عبد الله الصالح العثيمين: (تلك كانت الأوضاع السياسية في نجد بصورة موجزة، فماذا عن الأوضاع الدينية؟.

لقد انتشر بين المسلمين عبر القرون بدع وخرافات، منها ما أدَّى إلى الوقوع في الشرك قولًا وعملًا، وكان من أسباب ذلك عدم فهم بعض العلماء للعقيدة فهمًا جيدًا، وغلبة الجهل في المجتمعات الإسلامية، ولم تكن مختلفة عن غيرها في تلك الأمور، فمع أن جزيرة العرب المرء يظن أن الأوضاع الدينية في الحجاز - مثلًا - كانت حسنة لوجود الأماكن المقدسة فيها، وكونها ملتقى العلماء من جميع الأقطار، فإن من يقرأ رحلة العيَّاشي، الذي زار تلك المنطقة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، يجد صورة سيئة لهذه

---

(١) يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب: «وكان شيخنا محمد بن عبد الوهاب الله تعالى في ابتداء دعوته إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب، قال: الله خير من زيد تمرينًا لهم على نفي الشرك بلين الكلام نظرًا إلى المصلحة وعدم النفرة». «مجموعة التوحيد» (صـ ٣٣٩).

(٢) ينظر: «تاريخ ابن غنام» (٧/١).

(٣) ينظر: المصدر السابق (١٠٨/١).

(٤) ينظر: «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٣٩/٣)، و«تاريخ ابن غنام» (١٦٣/١-١٦٤).

الأوضاع؛ من عشرات القباب المقامة على أضرحة يُتبرك بها ويتوسل إلى أصحابها، ومن جهل تام لدى باديتها بأركان الإسلام ومن عدم مبالاة علمائها بأولئك الجهلة وما يفعلون[١]، بل إن ابن غَنَّام قال ـ بعد وصفه لحالة نجد ـ: «أما ما يفعل الآن في الحرم المكي الشريف، زاده الله رفعة وتشريفاً، فهو يزيد على غيره وينيف ... وأما ما يفعل عند قبره عليه الصلاة والسلام من الأمور المُحرَّمة العظام.. فهو مما لا يخفى ويُنكَر .. وأما ما يفعل في جلة مما عَمَّت به البلوى فقد بلغ من الضلال والفحش الغاية القصوى»[٢] ولم يكن ابن غنام وحده الذي أشار إلى وجود الفحش في الحجاز، بل إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذكر في إحدى رسائله أن عِلْيَة القوم هناك قد انغمسوا فيه انغماسًا ظاهرًا.

ولقد انتشر في نجد ما انتشر في الحجاز وغيرها من بدع وخرافات، وأمور شركية، وأورد ابن غنام وابن بشر تفصيلات لما كان يمارس فيها من تلك الأشياء[٣]، وكانت الأوضاع الدينية للبادية بالذات سيئة جدًّا؛ لجهلهم بأحكام الدين وعدم من يرشدهم إليها، وهم في هذا لا يختلفون عن البادية في بقية مناطق الجزيرة، إذْ يذكر الشيخ محمد أن كثيرًا من البادية في كل من نجد والحجاز لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، بل ينكرون البعث بعد الموت»[٤])[٥].

قال الدكتور عبد الله بن محمد المنيف: «ولعل إجراء مقارنة لحال شبه الجزيرة العربية الديني لما قبل الدعوة مع حالها بعد الدعوة يظهر ذلك البون الشاسع بين الحالين، وهذا الوصف لا أنقله من علماء الدعوة والمنافحين عنها، بل أنقله عن علماء أقل ما يقال عنهم إنهم غير موافقين لبعض مبادئ الدعوة، ولعلّي أكتفي بواحدٍ منهم كان معاصرًا للدعوة ويسمع عنها، ويلتقي ببعض علمائها ومندوبيها، وهذا العالم اسمه لطف الله جحاف (١٢٤٣هـ) حيث ذكر في كتابه: «درر نحور الحور العين»، واصفاً حال الحجاز وليس نجد بما يلي: «وفيها ـ أي سنة ١٢١٢ هـ ـ وصلت الأخبار بصلاح طريق حاجّ اليمن بسبب صاحب نجد، واشتهر بين الناس أن أهل الحجاز تشرعوا (أي: دخلوا في الدعوة السلفية) وتركوا كثيرًا من منكراتهم، ولزموا الأمانة، وتطهروا بالديانة، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وهجروا الزنى والربا، وكانوا من قبل لا يدينون دين الحق، يتحدث عنهم

---

(١) ينظر: «مقتطفات من رحلة العياشي ـ ماء الموائد» إعداد حمد الجاسر (صـ ٥٤، ٦١، ١١٨ـ١١٩).
(٢) ينظر: «تاريخ ابن غنام» (١/٨ـ١٠).
(٣) ينظر: المصدر السابق (١/٧ـ٨).
(٤) ينظر: المصدر السابق (١/١٤٤).
(٥) ينظر: «الدرعية نشأة وتطورًا» للدكتور عبد الله العثيمين (صـ ٨٢ـ٨٥).

الحاج بكل مكروه ذي اعوجاج».

وهذا الوصف من هذا المؤرخ لم يكن لأهل منطقة نائية، أو مدينة ليس بها علماء، ولا تمر بها قوافل الحج والعمرة، إنما هذا الوصف كان لسكان أطهر بقعة من بقاع الدنيا، مع ما قد يكون في هذا الوصف - بحسب بعض الإخوة من مبالغة - ولكن كيف بنا عندما نتحدث عن نجد قبل الدعوة، فلأن المخالفات كانت كبيرة وعظيمة، وإن كنت أجزم أنها ليست هي وحدها الموجودة، لهذا كيف بنا أن نقول وننفي عن نجد بعض الشركيات، والمخالفات العقدية الظاهرة، حتى في بعض كتب العلماء قبل الدعوة، ومع ذلك، فلعلي أسوق رأياً آخر لرحالة مغربي مرَّ بالحجاز، وليس بنجد ووصف حال سكانها من العرب المقيمين في طرق الحج وذكر عنهم كلامًا مثل ما سبق، وهذا الرحالة هو العياشي في كتابه: «رحلة ماء الموائد» حيث يقول: «وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل، وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة لهؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميًّا بالمغرب وإن بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود، وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر من عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك، فقال: إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك لا يعرف صيامًا ولا غيره».

وليس ذكر هذين القولين السابقين بهدف تقرير فكرة معينة، وإنما لبيان حال أطهر بقعة وأزكى مكان ومع هذه القدسية وتلك الطهارة لم تخل من منغصات ومخالفات عقدية وشركية لا يستبعد وقوع مثلها في غيرها من الأماكن»[١].

وأما حالة الحاضرة في الحجاز فيقول (بوركهاردت) إبان زيارته لمكة سنة ١٨١٤م: «هناك المئات من الأماكن التي اخترعها أهل مكة ونسجوا حولها الخرافات والتهويلات، وكل ذلك بقصد الاستيلاء على أموال الحجاج المساكين الذين يصدِّقون كل ما يقوله أهل مكة، فكل أهل مكة عند الحجاج القادمين من أقاصي الأرض هم من أقارب النبي ﷺ ولا يكذبون، وما يقولونه صِدق، ورثوه كابرًا عن كابر، ولا يعرف هؤلاء المساكين أن أهل مكة ربما يكونون من أضعف

---

(١) ينظر: مقدمة الدكتور عبد الله المنيف لكتاب: «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» تأليف الدكتور: محمد أحمد درنيقة (صـ ١٢-١٣).

أهل الإسلام دِينًا، فتكرار مشاهداتهم للكعبة والمسجد حولها، جعلهما في نظرهم من الأمور المسلم بها، وأضعف قداستهما في نظرهم، فكثيرًا ما شاهدتُ الشباب المكاوي وهم يمرون بجوار الكعبة لا يلتفتون إليها، بل يتمازحون، وقد علا ضجيجهم وضحكهم بدفع بعضهم بعضا على سبيل المزاح، بل ويجذبون ثياب الإحرام عن بعض الحجاج البؤساء اهتزازاً بهم»[١].

هكذا إذاً صوَّر بوركهاردت الواقع الاجتماعي الذي أضحى عليه المجتمع المكي في تلك الفترة.

وعن أثر هذه الدعوة على نجد خاصة فيحدثنا الشيخ عثمان بن بشر المؤرخ: «وأما محمد فهو شيخ الإسلام والحبر الهمام، الذي عمت بركة علمه الأنام فنصر السنة، وعظمت به من الله المنة، بعدما كان الإسلام غريبًا، فقام بهذا الدين ولم يكن في البلاد إلا اسمه وانتشر في الآفاق، فكل امرئ أخذ منه حظه وقسمته.

ونشرت راية الجهاد بعد أن كانت فتنًا وقتالًا، وعرف التوحيد الصغير والكبير بعد أن كان لا يعرفه إلا الخواص، واجتمع الناس على الصلوات والدروس، والسؤال عن أصل الإسلام وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها ومعاني قراءتها، وتعلمها الصغير والكبير، والقارئ والأمي بعد أن كان لا يعرفه إلا الخصائص، وانتفع بعلمه أهل الآفاق، لأنهم يسألون عما يأمر به وينهى عنه فيقال لهم: يأمر بأمر التوحيد، وينهى عن المنكر. ويقال لهم: إن أهل نجد يمقتونكم بذلك، فانتهى أناس كثير من أهل الآفاق بسبب ما سمعوا من أوامره ونواهيه، وهَدَمَ المسلمون ببركة علمه جميع القباب والمشاهد التي بنيت على القبور وغيرها من جميع المواضع الشركية في أقاصي الأقطار من الحرمين واليمن وتهامة وعمان والإحساء ونجد وغير ذلك، حتى لا تجد في جميع من شملته ولاية المسلمين الشرك الأصغر فضلًا عن غيره، حاشا الرياء الذي قال فيه النبي ﷺ: **«إنه أخفى من دَبِيبِ النَّمْلِ على صفاة سوداء في ظلمة الليل»**[٢].

وأمر جميع أهل البلدان من أهل النواحي يسألون الناس في المساجد كل يوم بعـد صلاة الصبح وبين العشاءين عن معرفة الأصول[٣]: وهي معرفة الله،

(١) ينظر: «رحلات في الديار المقدسة والنوبة والحجاز» (١٠٥/٢).
(٢) بنحوه أخرجه الحاكم (٣١٩/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٦٨/٨)، وصحح الألباني الشطر المذكور هنا بشواهده؛ كما في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣٧٥٥).
(٣) ألَّف الإمام المصلح رسالة بعنوان: «الأصول الثلاثة» لتعليم عوام المسلمين والذين حرموا من نعمة التعليم؛ إذْ يغلب على الناس في ذاك الوقت الجهل والبداوة، وأمر إمام كل مسجد بعد صلاة الفجر باستدعاء فردٍ أو فردين من جماعة المسجد يساعده على تلقين المعلومات لعامة المصلين على طريقة السؤال والجواب، وقد =

ومعرفة ديــن الإسلام، ومعرفة أركانه، وما ورد عليها من أدلة من القرآن، ومعرفة محمد ﷺ ونسبه ومبعثه وهجرته، وأول ما دعا إليه: وهي: «لا إله إلا الله»، ومعرفة معناها، والبعث بعد الموت، وشروط الصلاة وأركانها وواجباتها، وفروض الوضوء ونواقضه، وما يتبع ذلك من تحقيق التوحيد من أنواع العبادة التي لا تنبغي إلا لله؛ كالدعاء، والذبح، والنذر، والخوف، والرجاء، والخشية والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة وغير ذلك.

وبالجملة فمحاسنه وفضائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تُذكر، ولو بسطت القول فيها لا تسع الأسفار، ولكن هذه قطرة من بحر فضائله على وجه الاختصار، وكفى بفضله شرفًا ما حصل بسببه من إزالة البدع، واجتماع المسلمين وتقويم الجماعات والجمع، وتجديد الدين بعد دروسه، وقطع أصول الشرك بعد غروسه، وكان -رحمه الله- هو الذي يجهز الجيوش، ويبعث السرايا، ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه، فلم يزل مجاهدًا حتى أذعن أهل نجد وتابعوا، وعمل فيها بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبايعوا ، فعمرت نجد بعد خرابها وصلحت بعد فسادها، ونال الفخر والملك من آواه، وصاروا ملوكًا بعد الذل والقتال، وهكذا كل من نصر الشريعة من قديم الزمان وحديثه الله يظهره على أعداه، ويجعله مالكًا لمن عاداه»(١).اهـ.

ومن آثار دعوة الشيخ أنه قد تكونت مدرسة علمية دعوية من جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته إلى يومنا هذا، كالشيخ الإمام الشيخ ابن باز، والشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، فتميزت هذه المدرسة السلفية بالدعوة إلى التوحيد وحمايته من شوائب الشرك، فصنفوا الكتب للرد على البدع المغرضة بأسلوب علمي رصين يحيلها هباءً منثورًا.

وهذه الخاصة العظيمة جعلتْ المؤرخ التركي -جودت باشا وهو شاهد من أهلها- يقر ويعترف بضعف وضحالة حجة كل من صنفوا ضد الوهابية مقارنة بكتابات علمائها الراسخين، فقال:

«إن الرد على الوهابية يستوجب ثقافة واسعة، ومعرفة بأحوال البلاد العربية الدينية والاجتماعية والسياسية، ووقوفًا على علوم الدين، واطلاعًا واسعًا على الحركات الفلسفية، ومقدرة على الجدل والإقناع... وكل ذلك مفقود عند العلماء الذين ردوا على الوهابية، وكل ردودهم مشحونة بالسخف والهراء... وإنهم

استمر العمل بتلك الطريقة حتى انتشر التعليم النظامي، وفُتِحت المدارس وأصبحتْ هذه المعلومات ضمن مقررات التوحيد الدراسية في المرحلة الابتدائية.

(١) ينظر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» (٣٠/١).

يقدمون بأيديهم وسيلة للسخرية منهم ومن ردودهم»[(١)].اهـ.

وهذا يدل على نجاح دعوة الإمام المجدد المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-.

ولعل هناك أسباب أخرى تدل على نجاح الدعوة السلفية، من أهمها:

أولًا: أنها انطلقت من التوحيد الذي هو أساس دعوة جميع الأنبياء[(٢)]، ووفَّت العقيدة حقها، ونبذت كل صور الشرك والوثنية.

ثانيًا: أنها جسَّدتْ منهج أهل السنة والجماعة في أجلى صوره، وأنها سارت على خطى المجددين السابقين وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ومعلوم أن النبي ﷺ ربط بين إعادة التمكين للإسلام وبين التزام هذا المنهج في قوله ﷺ: «**ثُمَّ تَكُون خِلَافَة عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**»[(٣)].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «أُخبرك أني - ولله الحمد - متبع، ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين؛ مثل: الأئمة الأربعة، وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بينت للناس إخلاص الدين الله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء - والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبد الله به، من الذبح والنذر والتوكل والسجود، وغير ذلك مما هو حق الله الذى لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة»[(٤)].

ثالثًا: شخصية الإمام المجدد -رحمه الله تعالى- المتميزة بالرسوخ في العلم والعمل، والزهد، والتضحية، والإخلاص، ولعل عبقرية هذه الشخصية تكمن في إخلاصه وتجرده، وصدقه الشديد في دعوته، وغيرته الشديدة على حقائق التوحيد وصبره على الشدائد ونكران الذات، فمع أنه الرجل الأول في الدعوة فإنك لا تلمس أثرًا لطغيان الـ «أنا»، فكان لا يدعو إلى «نفسه»، ولا يسعى لبناء مجد شخصي، وإنما: ﴿**دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[(٥)].

قال ابن بشر في ترجمته للشيخ -رحمه الله تعالى-:

---

(١) ينظر: «الوهابية حركة الفكر والدولة» (صـ ٣٠-٣١)، و«خواطر حول الوهابية» (صـ ٤٢).
(٢) قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].
(٣) أخرجه أحمد (١٨٤٠٦)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥).
(٤) ينظر: «مؤلفات الشيخ الإمام» (٣٦/٥).
(٥) فصلت: [٣٣].

«ثم دخلت السنة السادسة بعد المائتين والألف:

وفي هذه السنة توفي الشيخ شيخ الإسلام مفيد الأنام قاطع المبتدعين، مشيد أعلام الدين مقرر دلائل البراهين محيي معالم الدين بعد دروسها، ومظهر آيات التوحيد بعد أفول أقمارها وشموسها.

كان الشيخ - رحمه الله تعالى - كثير الذكر لله، قلَّ ما يفتر لسانه من قول: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وكان إذا جلس الناس ينتظرونه يعلمون إقباله إليهم قبل أن يروه من كثرة لهجه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وكان عطاؤه عطاء من وثق بالله لا يخشى الفقر، بحيث إنه يهب الزكاة والغنيمة في موضع واحد لا يقوم معه منها شيء، ويتحمل الدين الكثير لأضيافه والوافدين إليه، وعليه الهيبة العظيمة التي ما سمعنا بها اتفقت لغيره من العلماء والرؤساء وغيرهم، وهذا شيء وضعه الله في القلوب وإلا فما علمنا أحدًا ألين ولا أخفض جنابًا منه لطالب العلم أو سائل أو ذي حاجة أو مقتبس فائدة. وكان له مجالس عديدة في التدريس كل يوم وكل وقت في التوحيد والتفسير والفقه وغيرها»[(١)] اهـ.

رابعًا: من أقوى أسباب نجاح الدعوة التجديدية تلك اللحظات التاريخية التي شهدت أروع تحول فكري وسياسي واجتماعي في قلب الجزيرة العربية في ذلك العصر، حين التحم «التوحيد» و«الحديد»، والتقى «القرآن» و«السلطان»، واندمجت «قوة العقيدة والملة» في «قوة السلطة والدولة» مُمَثَّلَتَيْنِ في شَخْصَي الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود، ووقَّعا الأحرف الأولى بالتزام تأليف السفر الضخم النابض بالحياة والإيمان والتقوى في صورة من أجمل مشاهد أيام الإسلام في العصور المتأخرة، أضف إلى ذلك وجود قاعدة أرضية في الدرعية يأوى وينحاز إليها الداعية وأنصاره، فصارت مركز الدعوة ومنطلقها[(٢)].

فجاهد الإمام محمد بن سعود وذريته وخاصة الإمام تركي بن عبد الله - مؤسس الدولة السعودية الثانية- والملك الصالح الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن وأبناءه الملوك البررة، والإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذريته من العلماء النجباء وخاصة الشيخ عبد الرحمن بن حسن -المجدد الثاني للدعوة

---

(١) ينظر: «خزانة التواريخ النجدية» (٦/٣٨٤).
(٢) ينظر: «خواطر حول الوهابية» إعداد: محمد المقدم (صـ ٣٢-٣٦).

السلفيةـ، وعبد الله بن عبد اللطيف، ففي اجتماع تلك الأسرتين وأهل العلم وبعض رؤساء البلدان وأنصارهم للدعوة لنصرة السنة والدين وإحياء عقيدة السلف الصالح تحقق الإصلاح الديني والسياسي.

أما الإصلاح الديني: فكان الدعوة إلى الدين الخالص وتجنب البدع والمحدثات ونشر السنة، وأما الإصلاح السياسي: فكان الناس في فُرقة واختلاف، على كل قرية أمير، بل وصل الحال -كما تقدم- أنْ تنازع على الإمارة في قرية صغيرة -وهي قرية التويم- أربعة أمراء فقسموا البلد أرباعًا؛ كل واحد شاخ في رُبع تلك القرية، وقامت للدعوة الإصلاحية دولة وحَّدتْ الجزيرة العربية بعد فِرقة وشتات واختلاف، فحققتْ الأمن والاستقرار بعد فوضى وخوف، وخدمتْ الحرمين الشريفين وأقامتْ شعائر الإسلام وأركانه، واستطاعتْ أنْ تواكب العصر الحاضر في التجديد والتحديث والنهضة العمرانية والاستجابة للمتغيرات السياسية والاجتماعية في إطار المحافظة على العقيدة والدين، فلا عَجَب أنْ توجَّه السهام والحقد والكراهية إلى دولة التوحيد والسنة من شتى طوائف أهل الأهواء والبدع والحُساد والمبغضين للسنة وأهلها، فهي تمثِّل نجاح تلك الدعوة الإصلاحية السلفية، وما حصل التمكين والاستقرار والأمن ورغد العيش إلا بفضل الله ورحمته وبحمد الله وشكره، والقيام بحقه سبب في دوام النِّعَم، قال تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾(١)، ومن أعظم الحقوق إخلاص الدين لله وحده، والبراءة من الشرك وأهله، وإقامة العبودية لله سبحانه وتعالى، وتحقيق اتباع الرسول ﷺ ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وتجنب البدع والمحدثات في الدين.

هذا وقد صنَّف الإمام محمد بن عبد الوهاب مصنفات عظيمة البركة، كثيرة النفع، ومن أهمها: «كتاب التوحيد»، ألَّفه -رحمه الله- لبيان حقيقة التوحيد وبيان حقيقة الشرك والرد على المخالفين وبيان أنَّ العبادة حقٌّ لله وحده، وأن الواجب إخلاصها لله وحده، وأن الواجب الحذر من الشرك، وأضاف إلى ذلك بيان وسائل الشرك وذرائعه وشيءٍ من البدع التي تقدح في التوحيد، وشيءٍ من المعاصي التي تنقص ثواب أهل التوحيد.

فكتاب التوحيد هو كتاب عرض ورد على المخالفين، يعرض العقيدة الصحيحة بأدلتها النقلية من الكتاب والسنة، ويحتج بالآثار عن الصحابة ﷺ والتابعين من سلف الأمة في بعض المواضع، وهو كتابُ ردٍّ يرد فيه على

---

(١) إبراهيم: ٧

المخالفين، فمن تأمل عناوين تراجم الأبواب التي وضعها الإمام المصنف مع الأدلة التي استشهد بها يتضح له أن فيه ردا على المخالف، فنجد أنه بوَّب خمسة أبواب(١) للرد على المرجئة في دعواهم أن التوحيد الواجب وهو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل: هو توحيد اعتقادي -الربوبية- ويُخرِجون التوحيد العملي من مسمى التوحيد، وبوَّب باباً في التحذير من الشرك، وذكر أبواباً في أنواع الشرك(٢)، واستشهد بالآيات والأحاديث الدالة على أن الشرك يقع في الأعمال والأقوال كما يقع في الاعتقاد.

وكذلك ردَّ على المخالفين في دعواهم أن الشرك لا يقع في أمة محمد ﷺ، فذكر الأدلة الدالة على أن بعض من منتسبي الإسلام يلحق بالمشركين، وعنون هذا الباب: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، وبوَّب بابًا في الرد على من يقدِّم أقوال الرجال على قول الرسول ﷺ ممن يتعصب للآراء والمذاهب، وعنوان هذا الباب: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

وكذلك بوَّب بابًا في الرد على من يتحاكم إلى الطواغيت ويرفض التحاكم إلى شرع الله، وعنوان هذا الباب: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء:٦٠].

وبوّب بابًا في الرد على اجتهادات بعض الفقهاء في القرون الوسطى -الذين ردوا على شيخ الإسلام ابن تيمية- كالسبكي والهيتمي ومَن تابعهم من أهل التصوف والكلام في دعواهم أن الرسول ﷺ تُطلَب منه الشفاعة بعد مماته في قبره، فعقد بابًا بعنوان: باب الشفاعة، وعنوانًا آخر بعنوان: باب لا يُستَشفع بالله على خلقه.

وردَّ على المخالفين من أهل الأهواء والبدع في غلوهم في الأولياء والصالحين، فعقد بابًا بعنوان: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم

---

(١) مثل كتاب التوحيد وقول الله تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾، وباب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وباب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وباب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وباب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

(٢) باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه، وباب: ما جاء في الذبح لغير الله، وباب: من الشرك النذر لغير الله، وباب: من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى، وباب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، وباب قول الله تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا**﴾.

هو الغلو في الصالحين.

وكذلك رد على من غلا في قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، فعقد بابًا بعنوان: باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وردَّ على المخالفين كذلك من أهل لأهواء والبدع من الباطنية وغيرهم في استخدامهم السحر للسيطرة على أتباعهم؛ فعقد بابًا بعنوان: باب ما جاء في السحر، وبابًا آخر بعنوان: باب بيان شيء من أنواع السحر.

ورد على من يُنكِر الأسماء والصفات؛ فعقد بابًا بعنوان: باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

ورد على منكري القدر، فعقد بابًا بعنوان: باب ما جاء في منكري القدر.

وبوب بابًا في تعظيم الله سبحانه وتعالى، فذكر النصوص الدالة على عظمة الرب تعالى وكبرياءه ومجدِه وجلاله، وعنوان الباب: باب ما جاء في قول الله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [الزمر:٦٧].

وعقد بابًا بعنوان: باب ما جاء في كثرة الحلف، ففيه سوء الأدب مع الله، وغفلة من العبد في ترك تعظيمه لله، فالواجب على المسلم أن يرضى بالحلف بالله، ولا يُكثِر الحلف في ذلك، وغير ذلك من الأبواب.

«وهذا الكتاب صنفه إمام الدعوة ابتداء في البصرة لمَّا رحل إليها، وكان الداعي إلى تأليفه ما رأى من شيوع الشرك بالله - جل جلاله -، ومن ضياع مفهوم التوحيد الحق عند بعض المسلمين، وما رآه عندهم من مظاهر الشرك: الأكبر، والأصغر، والخفي، فابتدأ في البصرة جمع هذا الكتاب، وتحرير الدلائل لمسائله، ذكر ذلك تلميذه، وحفيده الشيخ الإمام عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله- في «المقامات»، ثم إن الشيخ لمَّا قدم نجدا حرر الكتاب، وأكمله، فصار كتابه هذا - بحق- كتاب دعوة إلى التوحيد الحق»[١].

قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز -رحمه الله- عن كتاب التوحيد:

«وهو كتابٌ لا نعلم أنه سبق أنْ أُلِّف مثله في معناه على صغر حجمه وكثرة فوائده، فينبغي حفظه وتأمل ما فيه من الآيات والأحاديث لما فيه من العلم والهدى المستقيم والدلالة على توحيد الله، والإخلاص له، وعلى بطلان الشرك وسائر ما

---

(١) ينظر: «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح آل الشيخ (صـ ٨)، وأصله كان دروسًا ثم فُرِّغ وطُبِع.

حرم الله من البدع والمعاصي التي نهى الله عنه»[١].اهـ.

هذا وقد اعتنى بشرح «كتاب التوحيد» العلماء قديمًا وحديثًا ولا يكاد طالب علم سلفي المعتقد إلا وقرأه ودرسه مع بعض شروحه.

ومن تلك الشروح المختصرة: كتاب «القول السديد في مقاصد التوحيد» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة (١٣٧٦هـ)، وطريقته في شرح كتاب التوحيد هي ما يلي:

١- ذكر مقدمة مشتملة على مجملات عقيدة أهل السنة والجماعة في الأصول.

٢- لا يعلق على مسائل كتاب التوحيد.

٣- عنايته الظاهرة بتوضيح مقاصد كتاب التوحيد وبيان التقاسيم والفروق العقدية، قال -رحمه الله- في آخر كتابه: «وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول، وبه تقوم العلوم كلها».

٤- قد يترك التعليق على بعض الأبواب وعددها سبعة لما يرى من وضوحها، ويشرح بقية الأبواب، ويعتني بذِكر مقاصدها، ويوضِّح الفروق لبعض المصطلحات العقدية، والتقاسيم والتفصيلات النافعة، فعلى رغم صِغَر الشرح إلا أنه احتوى مقاصد وقواعد عقدية قد لا تجدها في غيره من شروح كتاب التوحيد.

٥- يذكر المعنى الإجمالي للباب في بعض المواضع، مبينًا مناسبة الباب لما قبله.

٦- اختصر في شرحه، فهو لمْ يلتزم في تحليل وشرح النصوص التي استشهد بها الإمام المصنِّف في متن كتاب التوحيد كما هي طريقة الشُّرَّاح لكتاب التوحيد، بل يركِّز على مقصد كل باب، مع عنايته بالفروق والتقاسيم.

هذا وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة متعددة منها: طبعة مؤسسة النور في (١٣٨) صفحة، باعتناء الشيخ علي المحمد الصالحي، وطبعته الجامعة الإسلامية سنة (١٤٠٩هـ)، وطبع الكتاب ضمن المجموعة الكاملة للشيخ السعدي منشورات مركز بن صالح الثقافي في عنيزة سنة (١٤١١هـ).

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» لسماحة العلامة الشيخ ابن باز (صـ ١٦).

وكذلك قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مشكورة في دولة قطر بطباعة مجموع مؤلفات الشيخ كاملة، وتوزع على طلاب العلم، وجزى الله القائمين عليها كل خير.

هذا ومن فضل الله عليَّ وتوفيقه أنْ يسر لي شرح كتاب التوحيد ومعه: «القول السديد في مقاصد التوحيد» للإمام العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في مجالس متعددة في دولة الكويت -حرسها الله- منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، ورغب بعض طلاب العلم وحث على طباعة هذا الشرح والتوسع في بيان مقاصده، فأعدتُ النظر في صياغته وإصلاح عبارته وتكميل نقصه، وسميته: «النهج الرشيد في التعليق على القول السديد في مقاصد التوحيد»، ورأيتُ أنْ أضيف تمهيدًا[١] وخاتمة[٢] في بيان نواقض عقيدة أهل السنة التي قررها الشيخ عبد الرحمن السعدي في مقدمة كتابه.

أما التمهيد فتحته أربعة فصول:

الفصل الأول: حقيقة التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين.

الفصل الثاني: موقف المخالفين من توحيد الألوهية ومن العقيدة السلفية.

الفصل الثالث: موقف المخالفين من الدعوة الإصلاحية.

الفصل الرابع: ترجمة الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي.

وقد سلكتُ في شرح هذا الكتاب المبارك الطريقة التالية وجعلته في أربعة مقاصد في الغالب، وهي:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات الباب.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات

---

(١) نشط أهل الأهواء والبدع من أهل الكلام والتصوف والباطنية وغيرهم في محاربة الدعوة الإصلاحية -دعوة التوحيد- وخاصة في وسائل الاتصال الحديثة، فيعقدون الدورات والمحاضرات للناشئة وعوام المسلمين في نشر باطلهم وعقائدهم الفاسدة، فأحببتُ في هذا التمهيد أنْ أكتب حقيقة التوحيد عند أهل الكلام والتصوف وموقفهم من توحيد الألوهية والرد عليهم إجمالًا.

(٢) اختصرتُ قدر الإمكان نواقض عقيدة أهل السنة والجماعة ووضعتها ملحقًا في آخر الشرح على شكل مشجرات وجداول لتسهيل قراءتها وحتى لا يثقل الكتاب، وأشكر من أعانني على وضع تلك الجداول المذكورة، وبارك الله في عمله هذا وعلمه، وبالله التوفيق.

المناقضة لمقاصد الباب.

وقد استفدتُ في هذا المبحث من كتابات وتقريرات الدكتور تقي الدين الهلالي، وخاصة كتاب: (سبيل الهدى والرشاد)، وغير ذلك من الكتب والمراجع.

هذا والله أسأل أنْ يجزي الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، والعلامة عبد الرحمن السعدي خير الجزاء وأوفاه، ويجعل هذا العمل في ميزان حسناتهم.

وفي الختام لا يسعني إلا أنْ أشكر الابن د. عبد الرحمن بن مقبل الشمري (الأستاذ بوزارة التعليم بحفر الباطن) لعنايته بهذا الشرح وتلك التقريرات وإشرافه على إعدادها وتهيئتها، فجزاه الله خيرا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه: أد. محمد بن عبد الرحمن الخميس

التمهيد

وتحته أربعة فصول:

الفصل الأول: حقيقة التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين.

وفيه اثنا عشر مبحثًا:

المبحث الأول: مفهوم التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين.

المبحث الثاني: التوحيد الذي جاءت به الرسل نوعان.

المبحث الثالث: وجه خطأ المخالفين لأهل السنة في تعريفهم للتوحيد.

المبحث الرابع: مقارنة بين طريقة أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد.

المبحث الخامس: الفرق بين أقسام التوحيد عند أهل السنة وعند أهل الكلام.

المبحث السادس: وجه الارتباط بين مفهوم التوحيد وحقيقة الإيمان.

المبحث السابع: شهادة الله لنفسه بالتوحيد.

المبحث الثامن: مكانة توحيد الألوهية وأهميته وفضائله وكيفية تحقيقه ومراتب الناس فيه.

المبحث التاسع: دليل التمانع في الألوهية.

المبحث العاشر: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

المبحث الحادي عشر: معنى لا إله إلا الله ودلالتها على توحيد الألوهية.

المبحث الثاني عشر: أول واجب على المكلف.

الفصل الثاني: موقف المخالفين من توحيد الألوهية ومن العقيدة السلفية.

وفيه أحد عشر مبحثا:

المبحث الأول: نشأة الخلاف في مفهوم التوحيد وحقيقته.

المبحث الثاني: سوء فهم المخالفين للمصطلحات العقدية أوقعهم في قلب الحقائق الشرعية.

المبحث الثالث: الأشاعرة والماتريدية مرجئة في باب التوحيد.

المبحث الرابع: أسباب إهمال المتكلمين لتوحيد الألوهية.

المبحث الخامس: أثر إهمال توحيد الألوهية عند المتكلمين.

المبحث السادس: حقيقة العبادة ومعناها عند المتكلمين.

المبحث السابع: الرد على معتقد أهل الكلام في توحيد الألوهية.

المبحث الثامن: الرد على أدلة المتكلمين في إنكارهم لتوحيد الألوهية.

المبحث التاسع: موقف المتكلمين من الشرك في العبادة.

المبحث العاشر: الرد على شبهات المتكلمين في تبرير الممارسات الشركية إجمالًا.

الفصل الثالث: موقف المخالفين من الدعوة الإصلاحية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عداء أهل الكلام لدعوة التوحيد الإصلاحية.

المبحث الثاني: مصير علماء الدعوة الإصلاحية بعد سقوط

الدرعية.

المبحث الثالث: نقض دعوى تأثر الجماعات الحركية المعاصرة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

الفصل الرابع: ترجمة العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

توطئة

نشط أهل الأهواء والبدع من أهل الكلام والتصوف والباطنية وغيرهم في محاربة الدعوة السلفية الإصلاحية -دعوة التوحيد- فكتبوا الرسائل والكتب في تشويه الدعوة الإصلاحية والهجوم عليها، ورميها بما ليس فيها، ولا عجب في ذلك؛ فالدعوة السلفية تكشف زيغ باطل أهل الأهواء، وتقطع الطريق على أهل البدع لإفساد عقائد المسلمين وعباداتهم، وتضيِّع عليهم المكاسب الدنيوية التي ينالونها بتضليل العامة واستغلال عاطفتهم الدينية بدعوى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم والأولياء الصالحين.

وقد رصد صاحب الكتاب المعنون بـ: «كتب حذر منها العلماء»(١) الكتب التي هاجمت الدعوة الإصلاحية السلفية بلغتْ عنده اثنتين وسبعين كتابًا، ونشطوا كذلك في استخدام وسائل الاتصال الحديثة، فيعقدون الدورات والمحاضرات للناشئة ولعوام المسلمين لنشر باطلهم وعقائدهم الفاسدة، فأحببتُ في هذا التمهيد أنْ أبَيِّن حقيقة التوحيد عند أهل الكلام والتصوف وموقفهم من توحيد الألوهية والرد عليهم إجمالًا.

الفصل الأول: حقيقة التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين

وفيه اثنا عشر مبحثًا:

المبحث الأول: مفهوم التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين.

المبحث الثاني: التوحيد الذي جاءت به الرسل نوعان.

المبحث الثالث: وجه خطأ المخالفين لأهل السنة في تعريفهم للتوحيد.

المبحث الرابع: مقارنة بين طريقة أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد.

المبحث الخامس: الفرق بين أقسام التوحيد عند أهل السنة وعند أهل الكلام.

المبحث السادس: وجه الارتباط بين مفهوم التوحيد وحقيقة الإيمان.

---

(١) ينظر: «كتب حذر منها العلماء» للشيخ مشهور حسن (١/٢٥٠-٢٨٧).

المبحث السابع: شهادة الله لنفسه بالتوحيد.

المبحث الثامن: مكانة توحيد الألوهية وأهميته ومكانته وفضائله وكيفية تحقيقه ومراتب الناس فيه.

المبحث التاسع: دليل التمانع في الألوهية.

المبحث العاشر: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

المبحث الحادي عشر: معنى لا إله إلا الله ودلالتها على توحيد الألوهية.

المبحث الثاني عشر: أول واجب على المكلف.

المبحث الأول: مفهوم التوحيد عند أهل السنة وعند المخالفين:

إن مفهوم التوحيد عند أهل السنة والجماعة هو: إفراد الله جل وعلا في عبادته، وألوهيته، وصرف العبادة كلها لله تعالى دون غيره، -وهذا هو مفهوم التوحيد في إطلاق الشارع-، مع اعتقاد ربوبيته، وتفرده بالخلق والتدبير والملك، وغير ذلك من خصائص الربوبية، واعتقاد تفرده في أسمائه وصفاته، وتنزيهه عن المثلية والمشابهة، وهذا المفهوم هو بالاتفاق والإجماع فيما بينهم.

قال الإمام أبو سعيد الدارمي رحمه الله: ((وتفسير التوحيد عند الأمة وصوابه قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له....من قالها فقد وحد الله))[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وأمَّا التوحيد الذي ذكر اللَّه في كتابه, وأنزل به كتبه, وبعث به رسله, واتفق عليه المسلمون من كل ملة, فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلاَّ اللَّه, وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له))[٢].

وأما المخالفون لأهل السنة والجماعة، من الفلاسفة[٣]، والمتكلمين٤، والمتصوفة[٥]، فقد اختلفوا في مفهوم التوحيد، فافترقت أقوالهم، ولم تتفق.

---

(١) نقض الدَّارمي على بشر المريسي(١٥٢/١).

(٢) التسعينية(٧٩٧/٣).

(٣) الفلاسفة هم الذين ينظرون إلى طبائع الأشياء بفكرهم لمعرفة عللها والأسباب الخفية وراء ظهورها، والفلاسفة لم يتوقفوا في النظر والتفكير فيما هو ظاهر أمام أعينهم من المخلوقات، وإنما راحوا يبحثون فيما وراء ذلك، وهو الخالق جل وعلا، ويسمون ذلك ما وراء الطبيعة، أو يسمونه الإلهيات. ينظر: كتاب «مبادئ الفلسفة» (صـ ٢٤ - ٢٥) ترجمة د. أحمد أمين.

٤ المتكلمون: هم الذين عزلوا الشرع أن يكون مصدرهم في الاعتقاد، وجعلوا مصدرهم في ذلك العقل أو المسائل العقلية المقرة في علم الكلام المتأثر بفلاسفة اليونان وغيرهم. ينظر: «مذكرة العقيدة» للخلف (صـ ١٠٢)، ويدخل في مصطلح المتكلمين الذين يتعاطون علم الكلام المذموم كالجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم، قال شيخ الإسلام-متحدثًا عن علم الكلام والمتكلمين-: «تجدهم أعظم الناس شكًّا واضطرابًا وأضعف الناس علمًا ويقينًا، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا». «مجموع الفتاوى» (٢٧/٤-٢٨).

(٥) الصوفية: سموا بهذا الاسم نسبة إلى لبس الصوف، لاختصاصهم به. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/٦-٧).

وهم فرقة مبتدعة، من أصول الفرق المنتسبة للإسلام، تميزت في بدء ظهورها بالاعتناء بجانب السلوك والتعبد، فغلوا فيه، وخرجوا به عن السنة، إلا أنه تطور بهم الأمر إلى القول ببعض العقائد المخالفة الكفرية، كالقول بالحلول والاتحاد، وغير ذلك.

وقد اختلفت كلمة الصوفية قديماً وحديثاً في تحديد ماهية التصوف وحقيقته، حتى اعترف أحد رؤوسهم في هذا العصر وهو د. عبد الحليم محمود بأنه: (لم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد). أبحاث في التصوف ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته (ص: ١٥٣) بواسطة تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي للدكتور محمد أحمد لوح (٤٠/١)

فأما الفلاسفة: فالتوحيد عندهم إثبات ذات مجردة عن الأسماء والصفات(١).

وأما المتكلمون فالتوحيد عندهم اعتقاد الوحدانية لله ذاتًا وصفة(٢) وفعلا(٣)، فاعتنوا بتوحيد الربوبية وأهملوا توحيد الألوهية تمامًا٤، مع نفيهم لكثير من الصفات.

وأما المتصوفة، فحقيقة التوحيد عند الصوفية أنهم انقسموا في ذلك إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المتصوفة الذين وافقوا أهل الكلام في التوحيد؛ فحقيقة التوحيد عندهم هو ما عند أهل الكلام، ومعناه: هو اعتقاد الوحدانية لله ذاتًا وصفة وفعلًا، فيدّعون أن توحيد الربوبية هو غاية التوحيد، وهو أن يشهد المرء أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، ولا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن نفسه، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية

---

(١) هذا قول لبعض الفلاسفة المنتسبين للإسلام، أما الفلاسفة المتقدمون فهم على أقسام

أ - **الفلاسفة الملاحدة:** المنكرون لوجود الخالق تبارك وتعالى، وهم فرقتان:

الأولى: الدهريون القائلون بالجوهر الفرد، فيعتقدون أن الكون تكوّن من ذرات صغيرة تتحرك في الفضاء، ثم بسبب الحركة الوقتية تتجمع فتحدث مظاهر الحياة، وعلى هذا المذهب أبيقور وديمقريطس وغيرهم. ينظر: «مبادئ الفلسفة» (صـ ١٦٤).

الثانية: الوجوديون وهم الذين يزعمون بأن الله-تعالى عما يقولون- هو هذا الكون كله، وليس له ذات قائمة بنفسها، بل هو حال في كل شيء، وعلى هذا المذهب الرواقية، ومنهم: زينون وسبينوزا. ينظر: «موسوعة الفلسفة» (٥٣٩/١)، و«مذكرة العقيدة» للخلف (صـ ٩٦).

ب - **الفلاسفة المؤلهة:** وهم القائلون بوجود موجود أعلى، يسمونه الإله، وهم كثير من الفلاسفة، منهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم ، إلا أنهم يختلفون في كلامهم عن هذا الإله بالنسبة لصفاته وأفعاله إلى أقوال تعود في جملتها إلى ادعاء أن الله تبارك وتعالى عقل أوحد لا يتغير ولا يتحرك، وهو محرك للأشياء كتحريك المعشوق لعاشقه، وهو علة وجود الأشياء، وقالوا في إيجاد هذا الكون إن المادة والصورة للأشياء أزلية غير مخلوقة، ثم إن الله تبارك وتعالى في زعمهم أوجد ما يسمونه النفس الكلية، ثم النفس الكلية صنعت نفوس الكواكب وجعلتها آلهة مثلها، ثم إن هذه النفوس تعاونت مع الله تعالى في صنع بقية العالم وتدبيره. ينظر: «موسوعة الفلسفة» (٥٧٩/١)، و«مذكرة العقيدة» للخلف (صـ ٩٧).

(٢) المعتزلة يجعلون نفي الصفات هو التوحيد، قال عبد الجبار الهمداني في «شرح الأصول الخمسة» (صـ ١٢٨) في تعريف التوحيد: «هو العلم بأن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفيًا وإثباتًا على الحد الذي يستحقه والإقرار به».

(٣) ينظر : كتاب «الإرشاد» للجويني (صـ ٥٠) ، وقواعد العقائد للغزالي (صـ ١٤٤)

٤ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «عامة المتكلمين الذين يقرّرون التوحيد في كتب الكلام والنظر - غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث: وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله، حتى قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع، ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بُعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم أولًا - لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرّون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضًا، وهم مع هذا مشركون» «التدمرية» (صـ ١٧٩-١٨٠).

بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، ومعلوم أن هذه الغاية هي ما أقر به المشركون من التوحيد، وهي الغاية لا يكون بها الرجل مسلمًا فضلًا عن أن يكون من أولياء الله.

الطائفة الثانية: المتصوفة الاتحادية؛ فتوحيدهم: أن الله موجود أزلًا في كل شيء حتى في الكلب والخنزير والقرد، ويعتقدون أن كل المخلوقات ما هي إلا صور تتجلى فيها الذات الإلهية، أي: أن الموجود الحقيقي هو الله وحده، وكل المخلوقات صورة له منذ الأزل[١].

الطائفة الثالثة: المتصوفة الحلولية؛ فتوحيدهم: أن الله يحلُّ في عباده الصالحين بكثرة العبادة وإخلاص الحب لله.

المبحث الثاني: التوحيد الذي جاءت به الرسول نوعان:

التوحيد الذي جاء به الرسل نوعان:

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات.

والثاني: توحيد في الطلب والقصد.

فمن أدلة **النوع الأول** قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص : ١ - ٤]، وكما في أول سورة الحديد، وآخر الحشر، وآلم السجدة؛ لاشتمال كل هذه المواضع على الكلام عن الرب سبحانه، وذكر مظاهر ربوبيته والإشارة إلى أسمائه وصفاته، وسمي توحيد المعرفة والإثبات؛ لأنه يتضمن إثبات ذات الرب وأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة واعتقادًا ثابتًا.

ومن أدلة **النوع الثاني** قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وسمي توحيد القصد والطلب؛ لأنه يتعلق بعمل المرء ونيته ومراده من ذلك، وما يقصد بعمله، وتوحيد المعرفة والإثبات: يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد

---

١ يقول الشيخ حافظ حكمي رحمه الله في منظومته: «الجوهرة المفيدة في تحقيق العقيدة» (صـ ٦٢-٦٣):

ولا ابن سيناء وفارابيه قدوتنا ... ولا الذي لفصوص الشر يستند
مؤسس الإلحاد حيث يرى ... كل الخلائق بالباري قد اتحدوا
معبوده كل شيء في الوجود بدا ... الكلب والقرد والخنزير والأسد

الأسماء والصفات، وتوحيد القصد والطلب:يتضمن توحيد الألوهية(١).

المبحث الثالث: وجه خطأ المخالفين لأهل السنة في تعريفهم للتوحيد:

إن خطأ المخالفين لأهل السنة في تعريف التوحيد هو أنهم لا يتعرضون لتوحيد الألوهية ويفسرونه بتوحيد الربوبية، فظنوا أن معنى لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، فأفنوا أعمارهم بما لم ينازع فيه المشركون، لكن لم ينفعهم ذلك، ولم يدخلهم في الإسلام.

ومعلوم أن المقصد الأعظم الذي أرسل لأجله الرسل، وأنزلت الكتب، وخلق له الجن والإنس هو عبادة الله وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

المبحث الرابع: مقارنة بين طريقة أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد:

مقارنة بين طريقة أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد:

أهل السنة	أهل الكلام
يعظمون نصوص التوحيد الواردة في الكتاب والسنة سواء كانت من باب الخبر أو من باب الطلب.	يعظمون نصوص التوحيد الواردة إذا كانت من باب الخبر، ويهملون نصوص التوحيد إذا كانت من باب الطلب.
مفهوم التوحيد عند أهل السنة: اعتقاد الوحدانية لله ذاتًا وصفة وفعلًا، وإفراده بالألوهية والعبادة.	مفهوم التوحيد عندهم: اعتقاد الوحدانية لله ذاتًا وصفة وفعلًا.

(١) ينظر : شرح الأصبهانية لابن تيمية(ص ١٠٧), ودرء التعارض (٣٤٤/٩), ومجموع الفتاوى (٣٧/٢)(٥٤/١٠، ٢٤٩)، والاستقامة(٣١/٢), ومدارج السالكين(٣١/١)(٣٣١/٣), وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(٢٤/١, ٢٨, ٤١),

أول واجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله.	أول واجب على المكلف: النظر أو القصد إلى النظر أو الشك.
أقسام التوحيد من خلال استقراء نصوص الكتاب والسنة: أ - توحيد الألوهية. ب - توحيد الربوبية ج- توحيد الأسماء والصفات.	أقسام التوحيد عندهم: أ - توحيد الذات. ب - توحيد الصفات. ج - توحيد الأفعال.

المبحث الخامس: الفرق بين أقسام التوحيد عند أهل السنة وعند أهل الكلام:

إذا قارنا بين أقسام التوحيد عند أهل السنة وعند أهل الكلام، فإننا نجد أن توحيد الربوبية عند أهل السنة يقابله توحيد الأفعال عند المتكلمين؛ لأن المعنى المراد منهما واحد وهو إفراد الله تعالى بأفعاله المتعدية من الخلق والرزق والتدبير، ويزيد مفهوم الربوبية عند أهل السنة بأنه يتضمن الانفراد بالملك والسيادة المطلقة، وهذه الزيادة في المعنى يدخلها أهل الكلام في الصفات ولا ينكرونها، كما أننا نجد أن الأسماء والصفات عند أهل السنة يقابله توحيد الذات والصفات عند أهل الكلام، أما توحيد الألوهية فإننا لا نجد ما يقابله عند أهل الكلام، وهم يفسرون الإله بمعنى الرب[١]، وعلى هذا فإنهم يفسرون توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

المبحث السادس: وجه الارتباط بين مفهوم التوحيد وحقيقة الإيمان:

حقيقة التوحيد ومفهومه عند أهل السنة هو: إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وأما وجه الارتباط بين مفهوم التوحيد ومفهوم الإيمان:

---

١ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «القول الصحيح أن «الله» أصله «الإله»، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم» «بدائع الفوائد» (٢/٢٤٩).

أن مفهوم التوحيد يقوم على أصلين:

الأول: إفراد الله تعالى بالربوبية والأسماء والصفات، وهذا النوع هو الاعتقاد القلبي.

والثاني: إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو عمل القلب، وعمل الجوارح.

وأما مفهوم الإيمان: فهو **قول القلب**، وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، **وقول اللسان**: وهو النطق بالشهادتين والذكر، **وعمل القلب:** كالإخلاص والمحبة، **وعمل الجوارح:** كالصلاة والصيام.

ويلاحظ أن بين أجزاء الإيمان السابقة تلازما قويا(١)؛ وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة؛ ولذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان سببا لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم، وإن كان أصله في القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب، بل لا بد معه من الأعمال الصالحة(٢)، **فإن قيل:** إن العطف يقتضي التغاير في اللغة، فكأن الأعمال ليست من الإيمان، بل هي شيء خارج عنه.

يقال: إن العطف لا يقتضي التغاير دائمًا، يقول الله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ**﴾ [القدر:٤]، فإن الروح وهو جبريل من الملائكة، فهو من باب عطف الخاص على العام تنبيهًا على أهمية الخاص الذي هو جزء من العام.

ولهذا كان لأعمال القلب منزلة كبيرة بين أجزاء الإيمان؛ لأنها هي الطاقة المحركة لبقية أجزاء الإيمان؛ ولهذا اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أعمال القلب هي الأصول، وأعمال الجوارح هي الفروع، فأساس الإيمان أعمال القلب، وبقية أجزاء الإيمان تابعة لها (٣).

المبحث السابع: شهادة الله لنفسه بالتوحيد:

قال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]. معنى الآية : أنه-سبحانه وتعالى- حكم وأعلم عباده وأخبرهم وبيَّن لهم أنه لا إله مستحقًا في هذا الكون غيره عز وجل، وكذلك علم هذا وأخبر به الملائكة الأخيار الأطهار وكذلك أهل العلم

(١) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للسلمي (صـ ٤٥٢).
(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (١٠/٣٥٥).
(٣) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» (صـ ٤٥٣).

الربانيين بما علموه من وحي الله تعالى وشرعه وحقه على خلقه وعظمته في هذا الكون، وفي الآية رد على طوائف الغلاة الذين رفعوا بعضًا من الخلق إلى منزلة الربوبية والألوهية فعبدوهم من دون الله وهم لا يستحقون ذلك؛ لأنهم ليس لهم من الربوبية شيء، وليسوا متصفين بصفات الكمال كاتصاف الرب سبحانه وتعالى بها، وليسوا مستحقين للعبادة مثله.

وأما معنى «شهد» عند العلماء: فإن أقوالهم تدور حول أربعة معان هي: الحكم، والإعلام، والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وهو هنا كلامه بانفراده بالألوهية، وتتضمن كذلك خبره عن هذه الألوهية، وتتضمن إعلامه وإخباره بما يشهد به كما تتضمن بيانه لما شهد به من أمر استحقاقه تعالى للألوهية(١).

المبحث الثامن: مكانة توحيد الألوهية وأهميته ومكانته وفضائله وكيفية تحقيقه ومراتب الناس فيه:

إن لتوحيد الألوهية مكانة علية، ومنزلة رفيعة، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - إن توحيد الألوهية دعوة جميع الرسل قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل : ٣٦].

٢ - أنه حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله عز وجل دينًا سواه، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

٣ – أنه مضمون كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي يحصل بها السعادة، يقول ابن تيمية: «فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم: عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله»(٢).

فضائل توحيد الألوهية وثمراته:

إن لتوحيد الألوهية ثمرات وفضائل جمة منها:

١ - أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى قَدْر، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٢ - أن جميع الأقوال والأعمال لا تقبل بدون التوحيد.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل -تفسير البغوي- (١٧/٢) -دار طيبة-، ومجموع فتاوى ابن تيمية (١٦٨/١٤)، ومفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٨/١).

(٢) ينظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٣٢٤/٦).

٣- أن الله تكفل لأهل التوحيد بالنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والصلاح.

٤ - أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة.

٥- أنه يُـحَرِّر العبد مِن رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم إلى عبودية الخالق التي فيها سعادته وأمنه ونجاته.

٦ - أنه يخفف على العبد المكاره، ويهون عليه الآلام، فبسبب تكميل العبد للتوحيد والإيمان؛ يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة للعبد.

٧- أنه يكفّر الذنوب والخطايا.

٨- أن من حقق التوحيد فله الأمن وطمأنينة النفس وزوال الخوف، قال الله تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

٩- أن من كان آخر كلامه لا إله إلا اللهُ دخل الجنة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من كان آخرُ كلامهِ لا إله إلا اللهُ دخل الجنة**» (١).

معنى تحقيق التوحيد وجزاء من حققه:

تحقيق التوحيد هو تهذيب التوحيد وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فلا يعمل الموحد شركًا يحبطه، ولا بدعة تقدح فيه، ولا معصية تنقص من كماله.

فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه بالإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إليه، ولم ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي؛ فهذا يدخل الجنة بغير حساب ويكون من السابقين إلى دخولها.

مراتب الناس في تحقيق توحيد الألوهية:

مراتب الناس في تحقيق التوحيد:

١- أعلاها من حقق التوحيد؛ بأن امتلأ قلبه بالإيمان والتوحيد والإخلاص

(١) رواه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد في «مسند» (٢٢٠٣٤) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصححه الحاكم (٥٠٣/١)، وابنُ الملقن في «البدر المنير» (١٨٨/٥-١٨٩).

ولم ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي، مع كمال القنوت لله وقوة التوكل عليه بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصودًا بها وجه الله متبعًا فيها رسول الله ﷺ.

٢ - وأدناها من حقق التوحيد بأن لم يلبس إيمانه بالشرك، ولكن توحيده ينقص بفعل شيء من المعاصي، فهذا لا يحصل له كمال تحقيق التوحيد كما حصل لأهل المرتبة الأولى.

توحيد الألوهية أول دعوة الرسل:

التوحيد أول دعوة الرسل، وأول ما أمر الله به من الواجبات، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل وخصوصًا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دعوا إلى توحيد الله وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين له وحده، ونهوا عن ضده وهو الشرك، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل : ٣٦].

فأخبر الله تعالى أنه أرسل في كل طائفة من الناس رسولًا يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، فدين الأنبياء واحد وهو إخلاص العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم، قال الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة : ٤٨]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الأنبياء أولاد علات**(١) **ديننا واحد**»(٢).

توحيد الألوهية هو الغاية من الخلق:

إن الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل عند أهل السنة والجماعة هي عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن : «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى**»٣.

فهذان النصان الشرعيان يدلان على أن أول دعوة الرسل، والغاية من بعثتهم هي الدعوة إلى توحيد الله في العبادة، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأشهد أن

(١) **أولاد العلات:** الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى، ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع. ينظر: «فتح الباري» (٦/٤٨٩). يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «النبي صلى الله عليه وسلم شَبَّه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه= بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم». «بدائع الفوائد» (٣/١١٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟»[١].

والنصوص الشرعية الدالة على أن توحيد الألوهية هو الغاية من خَلْق الخلق وإرسال الرسل كثيرة، وقد خالف أهل الكلام في ذلك فجعلوا الغاية العظمى من إرسال الرسل هي معرفة الله وإثبات الصانع الخالق وهي إثبات الربوبية لله تعالى.

والغريب أن أهل الكلام أفنوا أعمارهم لتحقيق هذه القضية المسلّم بها حتى عند المشركين، وليتهم وقفوا عند هذا الحد، بل لقد زعموا أن توحيد الربوبية هو الغاية العظمى من بعثة الرسل، وأنهم إذا أثبتوه بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد[٢].

المبحث التاسع: دليل التمانع في الألوهية:

دليل التمانع في الألوهية:

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء:٤٢] ولأهل العلم في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: أي: لو كان معه آلهة كما تزعمون إذًا لابتغوا سبيلًا إلى مغالبته وقهره؛ رغبة في الانفراد بالملك من دونه، كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض.

الثاني: أي: لو كان معه آلهة لعرفوا فضله ومنزلته فاتخذوا إليه سبيلًا

---

١ ينظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣٦/١).

٢ «الذين يريدون تقرير الربوبية من أهل الكلام والفلسفة، يظنون أن هذا هو غاية التوحيد، كما يظن ذلك من يظنه من الصوفية، الذين يظنون أن الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية. وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء وهؤلاء من الجهل بالتوحيد الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، فإن هذا التوحيد -الذي هو عندهم الغاية- قد كان مشركو العرب يقرون به، كما أخبر الله عنهم». «درء التعارض» (٣٤٥/٩).

بالتقرب إليه وابتغاء الزلفى لديه، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا**﴾ [المزمل: ١٩].

والقول الثاني هو الصحيح المنقول عن أكثر السلف١؛ وذلك أنه قال: ﴿**لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ**﴾ أي: المشركون، وهم لا يقولون إن للعالم صانعين بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء، وقالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣].

المبحث العاشر: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية:

اعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطابقة وتضمن والتزام:

فدلالة اللفظ على جميع معناه **دلالة مطابقة**.

ودلالته على جزء من معناه **دلالة تضمن**.

ودلالته على أمر لازم خارج **دلالة التزام**.

مثال ذلك: «الخالق» يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام [(٢)].

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، ويوضح ذلك قول العلامة الشنقيطي رحمه الله: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**﴾، فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرا عليهم شركهم به غيره، بقوله: ﴿**فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس:٣١]» [(٣)].

---

١ وقد رجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه قد جاء عقب هذه الآية قوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤]. ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥٧٧/١٦)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣٥٠/٩).

(٢) ينظر: «القواعد المثلى» (صـ١١)، و«أحكام القرآن» لابن عثيمين (١٩/١).

(٣) ينظر: «أضواء البيان» (٤١٢/٣)، ويقول الشنقيطي -أيضًا-: «كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية =

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية، وعلى توحيد الإلهية وهو التوحيد الواجب الكامل، الذي جاء به القرآن»(١).

المبحث الحادي عشر: معنى لا إله إلا الله ودلالتها على توحيد الألوهية؟

أولًا: معنى لا إله إلا الله، ومتى تنفع قائلها؟

معنى شهادة أن لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله وحده.

وتنفع قائلها: إذا كان عارفًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، ويدل لفظ «شهد» على أن الشهادة لا تصح إلا عن علم ويقين وإخلاص وصدق، أما النطق بها من غير معرفة بمعناها ولا يقين بها ولا عمل تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل لله؛ فغير نافع.

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لها ركنان: نفي وإثبات:

نفي: وهو قول «لا إله» أي: نفي للآلهة الباطلة التي عُبدت من دون الله.

إثبات: وهو قول «إلا الله» أي: إثبات الألوهية لله وحده٢.

ثانيا: المخالفون لأهل السنة في معنى لا إله إلا الله:

إن كثيرًا من الناس قد أخطأ في فهم معنى لا إله إلا الله، وإجمال ذلك فيما يلي:

أ - الوجودية الصوفية الاتحادية:قالوا معناها: لا موجود إلا الله، فهم يعتقدون بأن الله عين هذا الكون، وأن الخالق عين المخلوق، فظنوا أن كل موجود من الكلب والخنزير والقرد والماء والأرض والبر والبحر هو الله تعالى بنفسه(٣)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ب - كثير من المتكلمين من المعتزلة والماتريدية والأشعرية الذين فسروا

يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تَعَالَى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار، لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه». «أضواء البيان» (٣/٢١).

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢/٣٧).

٢ ينظر: «بدائع الفوائد» (١/١٣٤)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (صـ ٦٤)، و«مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان - ضمن مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب» (١/٣٧١)، و«مفتاح الجنة» للمعصومي (صـ ٣٩).

(٣) ينظر في بطلان قولهم: «مجموعة الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام (٢/٤-١١٤).

الإله بالرب والصانع والخالق١، وقالوا: إن معنى كلمة التوحيد لا رب إلا الله، أي: لا خالق ولا صانع إلا الله(٢).

ومن أشهر شبهات هؤلاء المتكلمين في تفسير الألوهية بالصانعية والخالقية والربوبية «دليل التمانع» المأخوذ عندهم من قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فظنوا أن المراد بالإله الخالق، ولكن تفسير «الإله» في الآية بالخالق باطل؛ لأن الآية سيقت لنفي تعدد المعبودين، لا لنفي تعدد الخالقين؛ لأن هذه الآية ترد على مشركي العرب الذين ينفون تعدد الخالقين، ولكن كانوا يعتقدون تعدد المعبودين.

فتفسيرهم باطل؛ لأن الآية جاءت في تقرير توحيد الألوهية، والرد على المشركين الذين كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى، قال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢١- ٢٤] ففيها الاستدلال بعدم فساد السموات والأرض على أنه ليس فيهما آلهة يستحقون العبادة غير الله تعالى، بينما مراد الأشاعرة والماتريدية من دليل التمانع هو إثبات توحيد الربوبية بفساد العالم لو وجد خالق آخر للعالم، ولا شك أن هذا غير مطلوب الآية.

يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان.. الخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل: أرباب.

وأيضًا: فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا.

وأيضًا فإنه قال: ﴿**لَفَسَدَتَا**﴾ وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا.

ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا الواحد، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله، وأن فساد

---

١ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والإله هو بمعني المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعني القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من المتكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين». «درء التعارض» (١/٢٢٦).

(٢) ينظر: «حاشية الجندي» (صـ ٨٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣/٩، ١٠١).

السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره. فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد»١.

وأيضًا فإن سياق الآية في بطلان عبادة غير الله تعالى، والرد على المشركين، وليس في تقرير توحيد الربوبية، فإنهم كانوا مقرين بالربوبية، يقول ابن أبي العز أيضًا: «وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾، لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [لقمان: ٢٥]»٢.

ودليل التمانع حجة في نفسه لكن في غير هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩١][٣].

ولأجل أن هؤلاء لم يعرفوا الفرق بين «الإله» و«الرب» وقعوا في أنواع من الشرك وعبادة القبور وأهلها ظنًّا منهم أنهم لم يشركوا بالله شيئًا في الخالقية والصانعية والربوبية.

ج - القبورية: ظنوا بأن «الرب» و«الإله» بمعنى واحد، أي:معنى لا إله إلا الله: لا رب إلا الله[٤].

وبالجملة فتفسير «لا إله إلا الله» بـ«لا رب» «ولا خالق» و«لا صانع» «إلا

---

١ «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٠/١-٤١)، وينظر: «شرح الأصفهانية» لابن تيمية (صـ ١٢٣)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٣٨٨/٢)، و«منهاج السنة» (٣١٤/٣).

٢ «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٨/١-٢٩).

(٣) ينظر: «شرح العقائد النسفية» (صـ ١٣٤)، و«مجموع الفتاوى» (٩٨/٣)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٤٨٠/١).

(٤) ينظر: «الدرر السنية» (صـ ٤٠-٤١)، و«براءة الأشعريين» (صـ ٨٨-٩٣، ٩٨)، و«البراهين الساطعة» (صـ ٣٧٥-٣٨٣).

الله» باطل؛ لأن كلمة التوحيد والإسلام والإيمان هي كلمة «لا إله إلا الله» دون كلمة «خالق» ولا «صانع» ولا «رب» إلا الله، ولا يدخل المرء الإسلام إلا بكلمة «لا إله إلا الله» دون غيرها من الكلمات؛ لأن الكفار أيضًا يقرون بلا رب إلا الله، ولا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله [(١)].

ثالثا: من الأسباب التي أوقعت بعض الفِرق في المخالفات العقدية: خطؤهم في إعراب كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»، فبعضهم عن إعرابه لكلمة التوحيد يُقدِّر الخبر المحذوف بموجود فيكون المعنى: (لا إله موجود إلا الله)،وقد أخطأ كثير من أهل الكلام -ممن تتعرض لإعرابها- فكان نتيجة هذا الخطأ هو: تفسير هذه الكلمة بغير معناها الصحيح.

والصواب في إعرابها ما يلي: (لا): نافية للجنس، (إله): اسم (لا) مبني على الفتح.

(إلا): أداة استثناء وحصر، (الله): بدل من خبر (لا) المحذوف[(٢)].

وقد اختُلف في تقدير خبر (لا) على أقوال متعددة منها:

(كائن)، (لنا)، (موجود)، (حق).

ولا شك أن التقدير الأول لن يعطي نتيجة صحيحة، فلو قدرنا الخبر المحذوف بـ(كائن) لم يصح واقعيًّا، لأننا نرى أن كثيرًا من المشركين اتخذ مع الله تعالى إلهًا آخر، ومثله التقدير بـ(لنا) و(موجود) فكلها لا تسلم من الاعتراض؛ فتعيّن تقدير الخبر: (حق) أو (بحق) فيكون معنى (لا إله إلا الله): لا معبود حق إلا الله[(٣)].

رابعًا: دلالة لا إله إلا الله على أنواع التوحيد:

أما دلالتها على توحيد الألوهية، فواضح، حيث إنها نفت الإلهية عما سوى الله، وأثبتت الإلهية لله وحده لا شريك له.

٢.**وأما دلالتها على توحيد الربوبية**، فقد دلت كلمةُ التوحيد على توحيد

---

(١) ينظر : «مفتاح الجنة» (صـ ٤٠-٤١، ٦٢، ٦٧)، و«الكليات» (صـ ٩٧١)، و«مجموع الفتاوى» (٢/١٤)، و«درء التعارض» (١١/٨)، و(٣٧٨/٩)، و«تجريد التوحيد» للمقريزي (صـ ٥).

(٢) ينظر: «معنى لا إله إلا الله» للزركشي (صـ ٦٠)، و«عجالة ذوي الانتباه بتحقيق إعراب لا إله إلا الله» للكوراني (صـ ٣٤٠)، و«التجريد في إعراب كلمة التوحيد» للقاري (صـ ١٥)، و«شرح الأربعين النووية» لابن عثيمين (صـ ٢١).

(٣) ينظر: «الاستغناء في الاستثناء» للقرافي (صـ ٣٠٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (صـ ٦٤)، و«معنى لا إله إلا الله» للزركشي (صـ ٧٥)، و«الدرر السنية في الأجوبة النجدية» لمجموعة من العلماء (١١/ ٢٦٠)، و«معارج القبول» (٢/ ٥١٦).

الربوبية على سبيل التضمن، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية بالدلالة، وذلك لأنه لا يستحق أن يفرد بالعبادة إلا من كان منفردًا بالربوبية.

٣. **وأما دلالتها على توحيد الأسماء والصفات**، فذلك لأن إثبات وجود الله أصلًا يعد إثباتًا لأسمائه وصفاته، وذلك لأنه لا يتصور وجود ذات دون أسماء وصفات؛ لأن هذا لا يصح إلا في حق الممتنعات والمعدومات.

المبحث الثاني عشر: أول واجب على المكلف:

أ- أول واجب على المكلف عند أهل السنة:

ينص أهل السنة والجماعة أن أول ما يجب على العبد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وحجتهم في ذلك أمور، من أهمها: قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، لما أرسله إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله..**» الحديث[١]، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك، كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يُؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه»[٢].

ومعرفة الله عز وجل من الأمور الفطرية الضرورية، لكن إذا حصل خلل في الفطرة السليمة، فتحصل المعرفة بعد ذلك بالنظر، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة [٣].

ب ـ أول واجب على المكلف عند أهل الكلام:

اختلف أهل الكلام المذموم في بيان أول واجب على المكلف، وذلك كما يلي[٤]:

---

١ أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ ينظر: «شرح الطحاوية» (صـ ٢٧).

٣ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقال جمهور طوائف المسلمين: يمكن أن تقع ضرورة، ويمكن أن تقع بالنظر. بل قال كثير من هؤلاء: إنها تقع بهذا تارة وبهذا تارة، فالذين جوزوا وقوعها ضرورة هم عامة أهل السنة وسائر المثبتين للقدر». «درء التعارض» (٧/٣٥٤).

(٤) أصل اختلاف المتكلمين في مسألة أول واجب على المكلف راجع إلى الاختلاف في أصل المعرفة، أهي ضرورية، أم نظرية؟ وقد ذهب كثير من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية، ومن وافقهم من الطوائف بأن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر، وأنكروا ضرورة =

وأقوالهم الممكنة في ذلك -باختصار- خمسة أقوال:

الأول: أن أول واجب على المكلف: هو معرفة الرب تعالى، ومنهم من يشترط تقدم النظر عليها، وهذا القول نقله ابن فورك عن أبي الحسن الأشعري، وقال به بعض الأشاعرة، كإبراهيم اللقاني، والصاوي، وغيرهم[١].

الثاني: أنه النظر والاستدلال المؤدي إلى معرفة الرب تعالى[٢]، وهذا القول عليه جمهور الأشاعرة، ومن وافقهم[٣].

الثالث: أنه القصد إلى النظر[٤]؛ إذ النظر يستدعي القصد إليه، والقصد إليه متقدم عليه، يعزى لابن فورك، وقال به الجويني، وهو اختيار الفخر الرازي، وغيرهم[٥].

الرابع: وهو: ما نسب لأبي بكر الباقلاني؛ من أن أول ما يجب على المكلف: أول جزء من النظر؛ وذلك لأن النظر ينبني على أجزاء وضروب[٦].

الخامس: أنه الشك في الله تعالى -على قول أبي هاشم الجبائي المعتزلي- [٧]، أو هو دوام الشك في الله تعالى -إن لم يكن مقصودا لذاته- على ما ذهب إليه الآمدي الأشعري[٨]، وهذا قولٌ خطير جدًّا؛ لأنه يجعل الشك في الله -وهو كفر- يجعله أول ما يجب على المكلف[٩].

والحق هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو أن أول واجب على المكلف هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإفراد الله تعالى بالعبادة، ويدل

المعرفة، فتفرع الكلام عليها مسألة وجوب النظر، ثم تفرع عنها مسألة أول واجب على المكلف. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي(١/٥٠)

١ انظر: مقالات الشيخ أبي الحسن لابن فورك(ص٢٥٩)، هداية المريد للقاني (١/٢١٤)، وشرح الصاوي على جوهرة التوحيد (ص١٢٤).

٢ أي: النظر في الأدلة الكلامية لمعرفة الله، وهذه المعرفة مبنية على إثبات حدوث العالم، فإذا كان حادثًا فلا بد له من محدث، فجعلوا عمدتهم في الاستدلال لإثبات الربوبية الاستدلال بحدوث العالم، فسلكوا في ذلك مسلكًا وعرًا ومنهجًا عسرًا لا يتناسب مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية.

٣ انظر: مقالات الأشعري لابن فورك (ص٣٠، ٢٥٩)، والإنصاف للباقلاني (ص ٢١)، والشامل في أصول الدين للجويني (ص ١٢٠)، شرح السنوسي على الكبرى (ص٣)، وفتح الباري لابن حجر (٣٦١/١٣).

٤ القصد إلى النظر: يعني: القدرة على التعبير على وجود الله من خلال الأدلة المنطقية الكلامية.

٥ انظر: الشامل للجويني (ص ١٢٠)، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد له أيضا (ص٣)، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي (ص٤٧)، وفتح الباري لابن حجر (٣٦١/١٣).

٦ انظر: الشامل للجويني (ص ١٢٠).

٧ أي: الشك في الله وفي النبوة، وهذه طريقة أبي هشام عبد السلام الجبائي المعتزلي. ينظر في الرد عليه: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٧٤/٤-٧٥).

٨ انظر: أبكار الأفكار للآمدي (١/١٧٠)، وينظر: الشامل في أصول الدين للجويني (ص ١٢٠- ١٢١)

٩ نقله في «الفتح» (٣٦٣/١٣) عن القرطبي.

على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله..**» الحديث[١]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله**»[٢]، ووجه الدلالة من هذه النصوص ظاهر، فأما دلالة الآية: فإن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام أول ما دعوا إليه أقوامهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة غيره، وإفراد الله بالعبودية هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة المدلول عليها بكلمة الشهادة «لا إله إلا الله»، فتعين أن أول واجب هو الشهادتان.

وأما وجه الدلالة من الحديثين وما في معناهما من النصوص على أن أول واجب على المكلف هو الشهادتين: ظاهر؛ إذ لو كان هناك شيء أوجب لأمر به النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا حينما بعثه إلى اليمن، ولأمر به عمه أبا طالب، ولا سيما أن أبا طالب كان في الرمق الأخير من حياته، والرسول ﷺ كان حريصًا على هدايته، وحزن لموته حزنًا شديدًا[٣].

---

١ متفق عليه، وقد تقدم تخريجه قريبًا.

٢ أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب رضي الله عنه.

٣ وأما ما اشتهر عند بعض المتأخرين بأن عام الحزن هو العام الذي توفيت فيه خديجة رضي الله عنها، وتوفي فيه أبو طالب، وتسمية ذلك العام بعام الحزن؛ لم يثبت به خبر صحيح، ولم يذكره أصحاب السير كابن إسحاق والسهيلي وابن القيم وابن كثير، وقد حصل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ابتلاءات عظيمة في أقل من سنة ولم يُسَمّ ذلك العام باسم خاص. ينظر: «دفاع عن الحديث النبوي والسيرة» للألباني (صـ ١٨)، و«ما شاع ولم يثبت في السيرة» للعوشن (صـ ٦٧).

الفصل الثاني: موقف المخالفين من توحيد الألوهية ومن الدعوة السلفية(١)

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: نشأة الخلاف في مفهوم التوحيد وحقيقته.

المبحث الثاني: سوء فهم المخالفين للمصطلحات العقدية أوقعهم في قلب الحقائق الشرعية.

المبحث الثالث: الأشاعرة والماتريدية مرجئة في باب التوحيد.

المبحث الرابع: أسباب إهمال المتكلمين لتوحيد الألوهية.

المبحث الخامس: أثر إهمال توحيد الألوهية عند المتكلمين.

المبحث السادس: حقيقة العبادة ومعناها عند المتكلمين.

المبحث السابع: الرد على معتقد أهل الكلام في توحيد الألوهية.

المبحث الثامن: الرد على أدلة المتكلمين في إنكارهم لتوحيد الألوهية.

المبحث التاسع: موقف المتكلمين من الشرك في العبادة.

المبحث العاشر: الرد على شبهات المتكلمين في تبرير الممارسات الشركية إجمالًا.

---

(١) ينظر: كتاب «منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» تأليف: د. خالد بن عبد اللطيف، وكتاب: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» تأليف: د.عبد الرحيم السلمي، وقد استفدت منه في تحرير بعض المباحث في هذا الفصل.

المبحث الأول: نشأة الخلاف في مفهوم التوحيد وحقيقته

اعتنى القرآن الكريم ببيان حقيقة التوحيد عنايةً شديدة، فلا تكاد آية أو سورة إلا فيها ذكرٌ للتوحيد، وما ذلك إلا لأهميته، فهو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول ما يقوم فيه السالك إلا الله تعالى، وأول الأمر وآخره، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(١)، وَقَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(٢)، وَقَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(٣)، وَقَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾(٥)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾(٦).

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن الربوبية، فلو أقر العبد بتوحيد الربوبية وهو مع ذلك لمْ يعبد الله وحده ولمْ يتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين.

«وأول ما وقع الخلاف في مفهوم التوحيد وحقيقته في تاريخ هذه الأمة هو عندما وقع التفرق في الأمة بعد مقتل عثمان بن عفان، فبعد مقتل خليفة المسلمين ذرّ قرن الفتنة ووقع البلاء في الأمة، وقد كانت أول قضية عقدية وقع فيها التفرق هي مسألة «الإيمان» حيث كفّرت الخوارج عصاة المسلمين غلوًا منهم في منزلة العمل، ثم ظهرت بعد ذلك المرجئة كرد فعل للخوارج فأخرجوا العمل من مفهوم الإيمان، واعتبروا الإيمان هو مجرد التصديق القلبي دون عمل القلب والجوارح وبهذا أخرجوا توحيد الألوهية من الإيمان، فإن عمل القلب والجوارح هو حقيقة توحيد الألوهية، ثم لما ظهر جهم بن صفوان ابتدع القول بنفي الأسماء والصفات؛ مع قوله بقول المرجئة فاستحكم بهذا الانحراف في مفهوم التوحيد وحقيقته حيث انحرفت الجهمية في مفهوم التوحيد بشطريه العلمي والعملي، فقد صوّرت التوحيد مجرد اعتقاد ومعرفة الله تعالى لا علاقة لها بالعمل؛ وهذا الاعتقاد اعتقاد كاذب

---

(١) الأعراف: [٥٩].
(٢) الأعراف: [٦٥].
(٣) الأعراف: [٧٣].
(٤) الأعراف: [٨٥].
(٥) النحل: [٣٦].
(٦) الأنبياء: [٢٥].

خاطئ حيث نفت الجهمية أسماء الله تعالى وصفاته وسمّت ذلك توحيدًا، ولما جاء الأشاعرة والماتريدية أخذوا ما عند الجهمية من تصورات ضالة في مفهوم التوحيد وحقيقته في الجملة، وبهذا وقع الخلاف الكبير بين أهل الكلام من جهة وأهل السنة من جهة أخرى في مفهوم التوحيد وحقيقته.

وبناءً على هذا الخلاف فقد اختلفت بينهم المعايير والمقاييس في اعتبار هذا أو ذاك موحدًا أو مشركًا كما اختلفت بينهم معايير نواقض التوحيد ومبطلاته.

ولقد كان لهذا الخلاف آثار فظيعة ومؤلمة في حياة المسلمين، ففي الوقت الذي يعتبر أهل السنة فيه الاستغاثة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله شركًا مخرجًا من الملة يرى أهل الكلام أن ذلك لا يعتبر شركًا، وكذلك الحال في الذبح لغير الله تعالى والنذر والطواف لغيره تعالى، بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن «من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا»(١).

وحقيقة التوحيد لم تكن غامضة عند أصحاب الرسول ﷺ والتابعين من بعدهم؛ لأنهم عاشوا النقلة الكبرى من الجاهلية المشركة إلى التوحيد الخالص، كما عاشوا التوحيد عمليا مع صاحب الرسالة، والفرق الكبير بين تصور الصحابة الكرام لحقيقة التوحيد؛ وبين تصور أهل الكلام له لم يحدث دفعة واحدة، بل بدأ بالانحراف في مفهوم الإيمان واعتباره التصديق القلبي المجرد، ثم تلاه الانحراف في الإله؛ التأثر بمناهج الفلاسفة في تصور التوحيد على أنه تجريد نظري للإله من الصفات الثبوتية إلى أن وصل الحال إلى تسويغ الشرك وتجويزه، بل إيجابه باسم احترام الأنبياء والأولياء والصالحين وتقديرهم؛ ومعرفة الفضل لأهله - زعموا-.

ولم يقف الأمر عند ممارسات شركيّة يقوم بها العوام عند القبور ونحوها، بل أصبح أهل العلم في القرون المتأخرة في مقدمة من يمارس هذه الشركيات مع تقديم الآراء العلمية المبيحة لهذه الأعمال.

وتجاوز الأمر حده عندما حُرّف الدين نفسه من المنتسبين إلى العلم، فقالوا: التوحيد الذي شرعه الله تعالى وأرسل لأجله الرسل، وأنزل الكتب هو اعتقاد وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فمن اعتقد أن الله تعالى هو الخالق

---

(١) ينظر: «درء التعارض» (٢٢٧/١).

الرازق المدبر مع إثباته لصفات المعاني ونفيه للصفات الخبرية والاختيارية فقد حقق التوحيد، كما أصبحت المفاضلة - عندهم - في التوحيد بتركهم للأسباب الشرعية والفناء في ذلك، وهذا الاعتقاد - عندهم - هو العبادة التي لا تصرف إلا الله تعالى، أما الدعاء والاستغاثة والذبح والنذر والطواف والسجود، ونحو ذلك فلا تعتبر عبادة - عندهم ؛ ولهذا صرفوا هذه الأعمال لأهل القبور والأولياء الأحياء في زمانهم وحثوا العامة على ذلك، فانتشر بسببهم شر عظيم في عامة البلاد الإسلامية وهذا البلاء العظيم الذي وقع في الأمة هو أشدّ عليها مما لاقته من أعداء الإسلام من القتل والاستيلاء على البلاد والأموال ونحو ذلك، وقتل المسلم على التوحيد الصحيح خير له من البقاء على الشرك وهو يظن نفسه على التوحيد.

وتزداد المشكلة عندما نعلم أن هذا الاتجاه الخطير الذي يهدد الإسلام والمسلمين في أصول دينهم أصبح في فترة ماضية هو السائد وهو الأصل في حياة المسلمين في شرق البلاد الإسلامية وغربها، في الوقت الذي يُعتبر فيه أهل الحق قلة مستضعفة بين هذه الجموع المتكاثرة الضالة.

وعندما ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بدعوته التجديدية في القرن الثاني عشر الهجري، وجد الأمة تتخبط في الشرك، فالحياة العامة يمارس فيها العوام والمنتسبون إلى العلم الشرك صراحة باسم التوحيد، وكتب التوحيد العلمية امتلأت بتقرير توحيد الربوبية فقط ونفي الصفات، وأن العبادة اعتقاد توحيد الربوبية ونفي الأسباب، بل تجاوزت هذه الفكرة كتب التوحيد إلى كتب التفسير والحديث والفقه والأصول وحواشيها.

فلما أظهر الدعوة إلى التوحيد كان من الطبيعي أن يقف هؤلاء صفًا واحدًا ضده -وهذا الذي وقع- فقد تآمر عليه أهل الكلام في عصره؛ ورموه عن قوس واحدة، وألّفوا المؤلفات الكثيرة في الرد عليه وإبطال دعوته، واتهموه بأنه من الخوارج وأنه أدخل في المكفرات ما ليس منها.

والحقيقة أن مصدرنا الأساسي في فهم التوحيد ومعرفة أحكامه ليس هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا غيره، بل المصدر هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله وما أجمع عليه سلف الأمة.

والشيخ وغيره يخطئ ويصيب كما هي سنة الله تعالى في الخلق، والصراع في حقيقته ليس بين الشيخ وأهل الكلام في زمانه فقط بل هو بين أهل السنة وأتباع السلف وبين أهل الكلام والقبوريين في كل زمان، ولا يزال الصراع مستمرًا إلى

اليوم[١].

(١) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للدكتور/ عبد الرحيم السلمي (صـ ٦-٩).

المبحث الثاني: سوء فهم المخالفين للمصطلحات العقدية أوقعهم في قلب الحقائق الشرعية

الخلاف الواقع بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن تيمية وغيرهم من علماء السلف وبين أهل الكلام والتصوف ذيوله قديمة عند ظهور الفرق الكلامية بسبب سوء فهم المصطلحات العقدية عند المخالفين، فنتج عنه قلب الحقائق الشرعية، فالخلاف في فهم المصطلحات العقدية قديم بظهور أهل الكلام والتصوف، فالجهمية فسرت النصوص العقدية بأهوائهم وقلبت الحقائق الشرعية التي عليها السلف، ولا زالت أفكار الجهمية مبثوثة بين الفرق المعاصرة، فمن المصطلحات العقدية التي فسرتها الجهمية وأخرجتها عن حقيقتها الشرعية: (الإيمان)، و(الكفر)، و(التوحيد) و(الشرك)، وغيرها، فحقيقة الإيمان عندهم هو معرفة الله بالقلب فقط وبدون تصديق وقول وعمل، والكفر هو الجهل بالله؛ لذا تصدى علماء السلف لانحراف الجهمية كالشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الدين وحذروا منهم وألفوا المؤلفات في الرد عليهم، ولكل قوم وارث، وفي هذا يقول العلامة المعلمي:

«فإني تدبرت الخلاف المستطير بين الأمة في القرون المتأخرة في شأن الاستغاثة بالصالحين الموتى وتعظيم قبورهم ومشاهدهم، وتعظيم بعض المشايخ الأحياء، وزعم بعض الأمة في كثير من ذلك أنه شرك، وبعضها أنه بدعة، وبعضها أنه من الحق، ورأيت كثيرًا من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيين والجن ما يطول شرحه، وبعضه موجود في كتب التنجيم والتعزيم؛ كـ«شمس المعارف»[(١)] وغيره، وعلمت أن مسلمًا من المسلمين لا يقدم على ما يعلم أنه شرك ولا على تكفير من يعلم أنه غير كافر، ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك، فنظرت في حقيقة الشرك فإذا هو بالاتفاق اتخاذ غير الله عز وجل إلاهًا من دونه أو عبادة غير الله، فاتجه النظر إلى معنى الإله والعبادة فإذا فيه اشتباه شديد فعلمت أن ذلك الاشتباه هو سبب الخلاف»[(٢)].

فسوء فهمهم للمصطلحات العقدية أوقعهم في قلب الحقائق الشرعية[(٣)]،

---

(١) ينظر الكلام على هذا الكتاب في: «كتب حذر منها العلماء» (١/١٢٤-١٢٨).
(٢) ينظر: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (صـ ٣١).
(٣) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٧/٣٥٥): «...، فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها، والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، =

الحاصل أن علماء السلف الصالح استقرأوا نصوص الكتاب والسنة في المصطلحات العقدية مثل: (الإيمان)، و(التوحيد)، و(العبادة)، و(الشرك والكفر) وغيرها، فوجدوا أن النصوص الشرعية تشتمل على الاعتقاد والعمل، فالإيمان هو اعتقاد وعمل، والتوحيد اعتقاد وعمل، والعبادة اعتقاد وعمل، والشرك اعتقاد وعمل، والكفر هو اعتقاد وعمل، فاقتصر المخالفون على الاعتقاد وأهملوا العمل، فالإيمان عندهم هو التصديق القلبي، وأخرجوا العمل من مسمى الإيمان، والتوحيد عندهم هو اعتقاد الوحدانية في الذات والصفات وأخرجوا التوحيد العملي الذي هو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل، وقولهم فاسد لمخالفته الأدلة الشرعية وإجماع السلف، فالإيمان يشمل الدين كله بما فيه التوحيد اعتقاديا كان أو عمليا، فعمل القلب والجوارح هو شرط أساسي في الإيمان، فلا يصح الإيمان بلا عمل وترتب على اقتصار المخالف على الاعتقاد دون العمل أمور باطلة وهي:

١/ إخراج التوحيد العملي من حقيقة التوحيد ومسماه.

٢/ تفسير آيات توحيد الألوهية بالربوبية، فهو عندهم واحد لا فرق بينهم.

٣/ تفسير شهادة أن (لا إله إلا الله) بالأمور الاعتقادية دون العمل، فمعنى الشهادة عند المخالفين أنه لا خالق ولا قادر على الصنع إلا الله، ومعلوم أن معنى الإله في اللغة المألوه وهو المعبود بحق[١]، وهو متضمن الربوبية.

٤/ الغاية عندهم من خلق الخلق وإرسال الرسل هو الدعوة إلى التوحيد الاعتقادي دون التوحيد العملي وهذا خلاف دعوة الرسل الكرام.

٥/ أول واجب على المكلف عند المخالفين النظر في أدلتهم الكلامية؛ كدليل الجوهر والعرض والحدوث لإثبات الوحدانية في الربوبية، لذا قالوا: أول واجب على المكلف النظر في الأدلة الكلامية ثم إثبات الوحدانية، وأما العوام العاجزون عن النظر في الدليل الكلامي فيكفيهم القصد إلى النظر بنياتهم، بل غلا بعضهم فقال: أول واجب على المكلف الشك في الوحدانية ثم النظر في أدلتهم الكلامية

ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله، فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ويرد إلى الأول، هذا طريق أهل الهدى والسنة، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس، يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعًا لهم فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم، ويقولون: نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس».اهـ.

(١) ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢٢٢٣/٦)، «لسان العرب» لابن منظور (٤٦٩/١٣)، «القاموس المحيط» (صـ ١٢٤٢).

لإثبات الربوبية.

ومعلوم أن الإقرار بالربوبية أمر فطري إلا من زاغت فطرته باتباع الشبهات والأهواء فأنكر وجود الخالق، وهم قلة من البشر، علما أن قريش الذين أنكروا أن الله هو المعبود وحده يثبتون الربوبية، قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾(١).

٦/ العبادة عند المخالفين هي الإتيان بأقصى الذل والخضوع مع اعتقاد ربوبية المخضوع له، فعندهم من صرف العبادة لغير الله ولا يعتقد فيه الربوبية فليس بشرك، لأن الشرك لا يقع عندهم إلا في الاعتقاد فقط.

٧/ كذلك اقتصروا على الشرك الاعتقادي دون العملي، فمعنى الشرك عندهم هو اعتقاد عدم استقلالية المعبود بالخلق.

٨/ ترتب على خوضهم في المصطلحات العقدية أن قالوا: إن التوسل والشفاعة هما شيء واحد، لا فرق بينهما، وهذا قول فاسد ففرق بين التوسل بدعاء الشخص وبين الاستغاثة به، فالمستغاث به مطلوب مدعوّ وأما المتوسل به فهو غير مطلوب ولا مدعو٢، وإنما يُطلب به، والمستغيث كذلك طالب من المستغاث به بخلاف توسله بالشخص فإنه طالب به لا منه، وإنما يُطلب من الله وحده ويُفرده بالدعاء والمسألة في أن يقبل شفاعة المتوسل به(٣).

الحاصل أننا لا نسلم للمخالفين قولهم إنَّ مَن لجأ إلى غير الله تعالى فيما لا

(١) الزمر: [٣٨].

٢ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وما زلت أتعجب من هذا القول وكيف يقوله عاقل والفرق واضح بين السؤال بالشخص والاستغاثة به وأريد أن أعرف من أين دخل اللبس على هؤلاء الجهال فإن معرفة المرض وسببه يعين على مداواته وعلاجه، ومن لم يعرف أسباب المقالات وإن كانت باطلة لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم فوقع لي أن سبب هذا الضلال هو الاشتباه عليهم أنهم عرفوا أن يقال: سألت الله بكذا كما في الحديث: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد أنت المنان**»، ورأيي [هكذا في المطبوع] أن الاستغاثة تتعدى بنفسها كما يتعدى السؤال كقوله: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ [الأنفال:٩]، وقوله: ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾ [القصص:١٥]، فظنوا أن قول القائل: استغثت بفلان كقول: سألت بفلان، والمتوسل إلى الله بغائب أو ميت تارة يقول: أتوسل إليك بفلان، وتارة يقول: أسألك بفلان، فإذا قيل ذلك بلفظ الاستغاثة فإما أن يقول: أستغيثك بفلان أو أستغيث إليك فلان، ومعلوم أن كلا هذين القولين ليس من كلام العرب، وأصل الشبهة على هذا التقدير أنهم لم يفرقوا بين الباء في استغثت به التي يكون المضاف بها مستغاثًا مدعوًّا مسؤولًا مطلوبًا منه، وبالاستغاثة المحضة من الإغاثة التي يكون المضاف بها مطلوبًا به لا مطلوبًا منه.. فلفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به، وقول القائل: استغثت فلانًا واستغثت به بمعنى طلبت منه الإغاثة لا بمعنى توسلت به». «تلخيص الاستغاثة» (١/١٨٢-١٨٥).

(٣) ينظر: كتاب «الرد على البكري» لشيخ الإسلام (صـ ١٦٩-١٧٠)، و«غاية الأماني» لمحمود شكري الألوسي (٢/٢٩١).

يقدر عليه إلا الله أنه لم يعتقد فيه التأثير، وإلا فما الذي ألجأه إلى أن يستغيث به ويدعوه من دون الله؟ ولو سلمنا جدلًا أنَّ المستغيث بغير الله قصده أن يتخذ مدعوه واسطة بينه وبين الله دون أن يعتقد تأثيره فهذا باطل أيضًا؛ إذ هذا هو قصد المشركين الأوائل الذين أقروا لله تعالى بالوحدانية في الربوبية واتخذوا وسطاء بينهم وبين الله تعالى كما قال تعالى عنهم: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾[١].

(١) الزمر: [٣].

المبحث الثالث: الأشاعرة والماتريدية مرجئة في باب التوحيد

تقدم أن الماتريدية والأشاعرة وغيرهم من أهل الكلام يقسمون التوحيد إلى:

١. توحيد الذات.

٢. توحيد الصفات.

٣. توحيد الأفعال.

وأما توحيد الألوهية فلا يذكرونه ضمن أنواع التوحيد، وقد خلت مصنفاتهم الكلامية عن هذا النوع من التوحيد، فلا تجد فيها ذكرًا للعبادات وإفراد الله بها، والتحذير من الشرك ووسائله، فالتوحيد المطلوب عندهم هو إثبات وجود الخالق ووحدانيته في ربوبيته، وبه يفسرون معنى كلمة التوحيد، بل وفسروا الآيات الدالة على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية، كما ستأتي الإشارة لقولهم في ذلك ضمن تقريرهم لدليل التمانع.

فالإله عند الأشاعرة والماتريدية هو القادر على الاختراع والإيجاد، فيكون معنى (لا إله إلا الله) عندهم لا قادر على الاختراع إلا الله.

يقول ابن فورك عن أبي الحسن الأشعري -بعدما نقل الخلاف في معنى (الإله)-: (واختار من ذلك -يعني أبا الحسن الأشعري- أن معنى وصفنا له بأنه إله: أن له الإلهية, وفسَّر الإلهية: بأنها هي قدرته على اختراع الجواهر والأعراض, وذكر أن ذلك أسدُّ الأقاويل المقولة في معنى الإله) [(١)].

ويقول أبو بكر البيهقي: (الله: معناه: من له الإلهية: وهي القدرة على اختراع الأعيان وهذه صفة يستحقها بذاته)[(٢)].

ويقول أحمد بن موسى الخيالي في شرح كلام التفتازاني: «قوله: لو أمكن إلهان. أي: صانعان قادران على الكمال بالفعل أو بالقوة»[(٣)].

وقد فسر التفتازاني لفظة الجلالة (الله) بقوله: «أي: الذات الواجب الوجود، الذي يكون وجوده من ذاته، ولا يحتاج إلى شيء أصلًا»[(٤)].

---

(١) مقالات أبي الحسن الأشعري لابن فورك(ص ٤٨).
(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي(ص ٤٩). وينظر من كتب الأشاعرة: أصول الدين للبغدادي(ص ١٢٣)، وشرح أسماء الله الحسنى لأبي القاسم القشيري(ص ٦٥- ٦٦).
(٣) «حاشية الخيالي على شرح العقائد النسفية» (صـ ٥١).
(٤) «شرح العقائد النسفية» (صـ ٢٥-٢٦).

وهذا التفسير أبعد من تفسيره بـ«القادر على الاختراع»، بل هذا تفسير للفلاسفة؛ فإن أخص وصف الإله عند الفلاسفة هو وجوب الوجود، وقد قلدهم في ذلك التفتازاني، وهذا مما يدل على تأثير الفلاسفة على المتكلمين في مباحث الألوهية.

وجعل البياضي الماتريدي اسم الجلالة (الله) دالًّا على الذات فقط من غير معنى، يقول في ذلك: «إن مفهوم الاسم قد يكون نفس الذات والحقيقة وهو اسم الجلالة فقط...»(١).

ولا شك أن هذا خطأ ظاهر؛ فإن أسماء الله تعالى دالة على معانيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهي حسنى لدلالتها على صفات الكمال ونعوت الجلال، ولو لم تكن كذلك لكان وصفها بأنها حسنى باطلًا؛ إذ لا مدح ولا ثناء لله تعالى فيها حينئذٍ.

وقد ذكر التفتازاني أن استحقاق العبادة من خواص الألوهية، يقول عن ذلك: «حقيقة التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الألوهية وخواصها»(٢).

قال الكستلي في شرح هذا التعريف: «أراد بالألوهية- على ما صرح به- وجوب الوجود، والقدم الذاتي، بمعنى عدم المسبوقية بالغير.

وبخواصها: مثل تدبير العالم، وخلق الأجسام، واستحقاق العبادة، والقدم الزماني مع القيام بنفسه»(٣).

وهم مع هذا التقرير لا يرون أن استحقاق الله للعبادة من حقيقة التوحيد الذي يقع فيه الشرك، بل يرون أن العبادات من كمالات التوحيد الواجبة أو المستحبة، وحالهم في ذلك كحالهم في تأخير العمل عن الإيمان، فإنه لا يعتقد أحد أن الأشاعرة ينكرون أن يكون العمل من دين الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ(٤)، وإنما مرادهم أن العمل لا يدخل في حقيقة الإيمان بحيث يتعلق الكفر بتركه أو نقضه.

---

(١) ينظر: «إشارات المرام» (صـ ١١٩).
(٢) ينظر: «شرح المقاصد» (٣٩/٤).
(٣) ينظر: «حاشية الكستلي على شرح العقائد» (صـ ٦٢-٦٣)، و«حاشية الجندي على شرح العقائد -ضمن مجموع الحواشي البهية» (٨٢/١).
(٤) فهم لا ينفون استحقاق الله للعبادة، بل يقولون بذلك قطعًا، لكنهم يجعلون ذلك من جملة الدِّين، وليس قسمًا من أقسام التوحيد، فضلًا عن كونه يمثل حقيقة التوحيد، وينظر للأهمية: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للدكتور/ عبد الرحيم السلمي (صـ ١١٣-١١٤)، و«مواقف التفتازاني الاعتقادية» للدكتور/ محمد النورستاني (١٧٣٧/٣-١٧٤١).

ومن هنا فإننا نرى أن الماتريدية والأشاعرة مرجئة في التوحيد، كما أنهم مرجئة في الإيمان.

وهذا من الأسباب التي أثرت على الماتريدية والأشاعرة في إهمالهم لتوحيد الألوهية؛ فالإيمان عندهم هو التصديق فقط، وأما توحيد الألوهية- الأعمال- فقد أخرجوه من الإيمان واعتبروه شيئًا كماليًا لا يتعلق بأصل الإيمان، يقول التفتازاني عن تعريف الإيمان: «وذهب جمهور المحققين إلى أنه- أي الإيمان- التصديق بالقلب»(١).

المقصود هنا أن الماتريدية والأشاعرة مرجئة في باب الإيمان، فإنهم لا يرون التوحيد العملي جزءًا من الإيمان، ولا يترتب عندهم على تركه كفر(٢)، ولا شك أن بين الإيمان والتوحيد تلازمًا، فالإيمان يطلق ويراد به الجانب العلمي وهو التصديق القلبي، ويطلق ويراد به الجانب العملي وهو عمل القلب واللسان والجوارح، وكذلك التوحيد له جانب علمي وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، كما أن للتوحيد جانب عملي وهو توحيد الألوهية والعبادة، فالانحراف في أحد المفهومين يؤثر على الآخر.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: «وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب؛ فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب؛ وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب، بل لا بد معه من الأعمال الصالحة»(٣).

---

(١) ينظر: «شرح العقائد النسفية» (صـ ٩٠)، وقد ادعى بعضهم الإجماع على ذلك، وهذا باطل، بل الإجماع على خلافه، وينظر للأهمية: «دعاوى الإجماع عند المتكلمين في أصول الدين» (صـ ٦٩١-٧٠١).
(٢) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» (صـ ٤٤٩).
(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٩٨/٧).

المبحث الرابع: أسباب إهمال المتكلمين لتوحيد الألوهية

تقدم بيان أن الماتريدية والأشاعرة أهملوا توحيد الألوهية، ويرون أنه لا يدخل في حقيقة الإيمان، ولا يترتب على تركه كفر، ومع ذلك يقولون بوجوب الفرائض ويترتب العقاب على تركها، وتفسير ذلك: هو أنهم يرون أن عمل القلب والجوارح شرط كمال لا يدخل في ماهية الإيمان، وإنْ كان من دين الإسلام.

والحق أن عمل القلب والجوارح الذي هو توحيد الألوهية ركنٌ أساسي في الإيمان، حيث يزول الإيمان بزواله، والمراد بأعمال القلب والجوارح التي يزول الإيمان بزوالها هو أصول أعمال القلب والجوارح وجنسها، حيث يعتبر أهل السنة أن من ترك أعمال القلب وجوارحه كلها ليس بمسلم، في الوقت الذي يعتبره أهل الكلام مسلمًا، فإرجاء المتكلمين لتوحيد الألوهية عن حقيقة الإيمان كان سببًا في إهمالهم لتوحيد الألوهية.

وهناك سبب آخر ساهم في إهمالهم لتوحيد الألوهية، وهو تفسيرهم الإله بالقادر على الاختراع، ثم فسروا الألوهية بالربوبية، وفي هذا التفسير إلغاء لمعنى الألوهية الشرعي، فظنوا أن قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(١) يدل على دليل التمانع في الربوبية عندهم، وتفسير أهل الكلام (الإله) بالقادر على الاختراع باطل لأمور منها:

أولًا: أن هذا القول لا يعرف في لغة العرب، وليس من استعمالهم، والقرآن جاء بلسان عربي مبين، فلا يصح أن يفسر القرآن بغير لغته.

ثانيًا: أنّ هذا القول مخالف لاستعمال القرآن لهذا المفهوم، فقد تبين لنا أن أهل الكلام لم يوفقوا في معرفة مفهوم الألوهية في القرآن، واستعمال القرآن لهذا المفهوم وإن كان يصدق على ما قاله أهل الكلام إلا أنه لم يُفسر به، بل فُسّر بما هو أشمل، فأصبح يصدق عليه، ويزيد عليه بما تضمنه من معان أخرى.

ثالثًا: أن قولهم مخالف لأقوال الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة.

رابعًا: أنه ترتب على هذا القول اتحاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وردّ الأول للآخر، وهذا من أعظم الباطل، لمخالفته للقرآن والسنة، ودعوات الأنبياء، وحال المشركين، وعلى هذا فقولهم بدعة محدثة في اللغة، وفي الشرع فهو في غاية البطلان.

---

(١) الأنبياء: [٢٢].

أما ما استدل به المتكلمين فغير صحيح، والرد عليه من وجوه:

الأول: أنه سبحانه أخبر أنه ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ**﴾ غيره ولم يقل: «أرباب»، فالآية تدل على إثبات توحيد الألوهية[١].

الثاني: أن هذا الفساد بعد وجود السماوات والأرض، فلو كان فيهما - وهما موجودتان - آلهة سواه لفسدتا.

الثالث: أنه قال ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[٢]، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: «لم يوجدا»، أي: لاختل أمرهما بعد أن خلقتا، ولم يقل: لم تخلقا أصلًا، فدل على أن الفساد المذكور إنما هو بعد وجودهما وخلقهما.

الرابع: أن الآية دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون إلا إله واحد.

الخامس: أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله.

السادس: فساد السماوات والأرض يحدث إذا كانت الآلهة فيهما متعددة، أو كان الإله الواحد غير الله.

السابع: أنه لا صلاح للسماوات والأرض إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره[٣].

---

(١) قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٣/ ٣٣٤): «والمقصود هنا أن في هذه الآية بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشئ عن عبادة ما سوى الله تعالى; لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته، من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم».اهـ.

وقال في «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٣٤٤): «الآية دلت على ما هو أكمل وأعظم من هذا، وأن إثبات ربين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم، ولا أثبت أحد إلهين متماثلين، ولا متساويين في الصفات ولا في الأفعال، ولا أثبت أحد قديمين متماثلين، ولا واجبي الوجود متماثلين، ولكن الإشراك الذي وقع في العالم إنما وقع بجعل بعض المخلوقات مخلوقة لغير الله في الإلهية بعبادة غير الله تعالى، واتخاذ الوسائط ودعائها والتقرب إليها؛ كما فعل عباد الشمس والقمر والكواكب والأوثان، وعباد الأنبياء والملائكة أو تماثيلهم ونحو ذلك، فأما إثبات خالقين للعالم متماثلين فلم يذهب إليه أحد من الآدميين».اهـ.

(٢) الأنبياء: [٢٢].

(٣) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للدكتور/ عبد الرحيم السلمي (صـ ٤٧٧)، وكتاب «التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية» للأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن الخميس (١٢٣/١).

المبحث الخامس: أثر إهمال توحيد الألوهية عند المتكلمين

تقدم بيان أن إهمال المتكلمين لتوحيد الألوهية نتج عنه حصر حقيقة التوحيد ومفهومه في توحيد الربوبية فقط، أما توحيد الألوهية فقد ألغوا مفهومه برده إلى توحيد الربوبية.

لذا يعتبر بعض المتكلمين المتأخرين التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية بدعة اخترعها ابن تيمية، وتابعه عليها محمد بن عبد الوهاب، وخلاف هؤلاء مع أهل السنة ليس خلافا في التقسيم الاصطلاحي للتوحيد فقط بحيث يكون الخلاف لفظيًّا، فهم يُنكرون أنْ يتعلق التوحيد بأفعال العباد وإرادتهم وأقوالهم فيقع فيها الشرك كما يقع في اعتقاد الشريك مع الله تعالى في الخلق والرزق والتدبير.

كذا من آثار إهمالهم لتوحيد الألوهية هو إخراجهم للشرك العملي من حقيقة الشرك ومسماه، حيث لا يعتبرون الاستغاثة والاستعانة بغير الله في ما لا يقدر عليه إلا الله، وكذا الذبح والنذر والطواف بالقبور شركًا إلا إذا تضمن اعتقاد ربوبية من صُرِفتْ له العبادة، فكل الأعمال إذا صُرِفتْ لغير الله لا تُعتَبر -عندهم- شركًا إلا إذا تضمنتْ اعتقاد الربوبية لغير الله، ومنشأ رابط الشرك باعتقاد الربوبية لغير الله هو أنهم لا يعتبرون حقيقة التوحيد ومسماه إلا في التوحيد الاعتقادي -توحيد الربوبية- فالشرك عندهم لا يقع إلا في الاعتقاد دون عمل الجوارح[(١)].

(١) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة وبين المتكلمين» للدكتور/ عبد الرحيم السلمي (صـ ٤٧٨) باختصار.

المبحث السادس: حقيقة العبادة ومعناها عند المتكلمين

العبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد، وهو التذلل لله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبةً وتعظيمًا.

الثاني: فهو المتعبد به، وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وعلى هذا فإن الدين كله داخل في العبادة، والمعنى اللغوي لمْ يتغير في الاستعمال الشرعي إلا أن الشرع زاد فيه معنىً آخر وهو: «الحب»، فلا بد من الخضوع والذل مع الحب.

الحاصل: أن أهل الكلام لما أخرجوا توحيد الألوهية من حقيقة التوحيد تحيروا في الآيات الكثيرة التي تصف المشركين بأنهم الذين عبدوا غير الله، وتجعل حقيقة التوحيد: إفراد الله تعالى بالعبادة له وحده، والشرك صرف العبادة لغير الله، فحاولوا التوفيق بين هذه الآيات وبين رأيهم فزعموا أن العبادة لا تكون عبادة إلا إذا تضمنتْ اعتقاد الربوبية لمن صُرِفتْ له، وإلا فليستْ عبادة حتى لو جمعتْ الذل والخضوع والمحبة والتعظيم، وهذا التعريف للعبادة لمْ يسبقهم إليه أحد، وإنما حملهم على هذا إصرارهم على أن توحيد الألوهية لا معنى له سوى توحيد الربوبية، ويدل على بطلان تعريفهم للعبادة أنه مخالف للنصوص، حيث قال رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ**»(١) فهذا الحديث يدل على أن الإنسان يمكن أن يعبد الدرهم والدينار، وحينئذ يكون له عبدًا دون أن يعتقد الربوبية للدرهم والدينار.

وكذلك يردُّ تعريفهم للعبادة حديث أبي رجاء العُطَاردي يقول: «كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً(٢) مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ»(٣).

ولا يمكن لعاقل أن يظن أنهم يعبدون الحجارة لاعتقادهم أنها تخلق وترزق ونحو ذلك من صفات الربوبية.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) **الجُثوة:** الشيء المجموع، والمراد: كومة من التراب. وينظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢٣٩/١).
(٣) رواه البخاري (٤٣٧٦).

وكذلك يدل على بطلان تعريف أهل الكلام للعبادة مخالفته للغة العرب.

والأصل أن يبقى اللفظ على مدلوله اللغوي إلا إذا ثبت تغييره في الشرع، ولفظ العبادة لم يرد في الشرع أنه محصور فيمن يعتقد فيه الربوبية، بل ورد ما يخالفه.

المقصود أنه لا يستوي من عرَّف العبادة وقصر التألُّه على مجرد الاعتقاد القلبي بروبية الله تعالى وهم أهل الكلام، ومن جعله قولًا وعملًا واعتقادًا يشمل عمل القلب والجوارح وهم أهل السنة[1].

---

(١) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للسلمي (صـ ٤٨٩).

المبحث السابع: الرد على معتقد أهل الكلام في توحيد الألوهية

إن معرفة المفاهيم الشرعية وتحديد مدلولات النصوص من الأهمية بمكان؛ فإن أغلب اختلافات الناس، ومعظم انحرافاتهم وقعت بسبب الجهل بتلك الحقائق، وعدم معرفة حدود الألفاظ الشرعية، وما يناقضها.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن: «اعلم أن من تصور حقيقة أي شيء على ما هو عليه في الخارج وعرف ماهيته بأوصافها الخاصة، عرف ضرورة ما يناقضه ويضاده، وإنما يقع الخفاء بلبس إحدى الحقيقتين، أو بجهل كلا الماهيتين، ومع انتفاء ذلك وحصول التصور التام لهما لا يخفى ولا يلتبس أحدهما بالآخر، وكم هلك بسبب قصور العلم وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة، وكم وقع بذلك من غلط وريب وغمة.

مثال ذلك: أن الإسلام والشرك نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والجهل بالحقيقتين أو إحداهما أوقع كثيرًا من الناس في الشرك وعبادة الصالحين، لعدم معرفة الحقائق وتصورها، وأن لساعد الجهل وقصور العلم عوائد مألوفة استحكمت بها البلية وتمكنت الرزية»(١).

ومن تلك الألفاظ التي وقع بسببها الانحراف في توحيد الألوهية لدى الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من أهل الكلام، مصطلح: (الإله) و(العبادة) و(الشرك)، وقد ألف الشيخ عبد الرحمن المعلمي كتابه «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» لأجل توضيح هذه المصطلحات، وبيان الحق فيها، يقول رحمه الله: «فإني تدبرت الخلاف المستطير بين الأمة في القرون المتأخرة في شأن الاستغاثة بالصالحين الموتى، وتعظيم قبورهم ومشاهدهم، وتعظيم بعض المشايخ الأحياء، وزعم بعض الأمة في كثير من ذلك أنه شرك، وبعضها أنه بدعة، وبعضها أنه من الحق، ورأيت كثيرًا من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيين والجن ما يطول شرحه، وبعضه موجود في كتب التنجيم والتعزيم كـ«شمس المعارف» وغيره، وعلمت أن مسلمًا من المسلمين لا يقدم على ما يعلم أنه شرك، ولا على تكفير من يعلم أنه غير كافر، ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك، فنظرت في حقيقة الشرك، فإذا هو بالاتفاق اتخاذ غير الله إلهًا من دونه، أو عبادة غير الله، فاتجه النظر إلى معنى الإله والعبادة، فإذا فيه اشتباه شديد...

---

(١) ينظر: «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس» (صـ ١٢).

فعلمت أن ذلك الاشتباه هو سبب الخلاف»[١].

الفروق بين توحيد الربوبية والألوهية:

فسر الأشاعرة والماتريدية الألوهية بالربوبية فـ(الإله) عندهم هو القادر على الاختراع، وواجب الوجود، وهذه من معاني الربوبية، وهم قد أخطأوا في هذا التفسير، وفيما يلي بيان خطأهم وتوضيح الفرق بين الربوبية والألوهية من عدة أوجه:

أولًا: الفرق بين الربوبية والألوهية لغة:

الفرق بين معنى الربوبية والألوهية في اللغة واضح؛ فإن الربوبية مأخوذة من (الرب). وكلمة (الرب) في اللغة تطلق على عدة معان، منها:

- مالك الشيء وصاحبه.

قال الجوهري: «رب كل شيء مالكه»[٢].

وقال الأزهري: «كل من ملك شيئًا هو ربه. يقال: هو رب الدابة ورب الدار»[٣].

- **المَلِك.** قال تعالى: ﴿**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾[٤]، أي: عند مَلِكِك.

قال ابن الأثير: «فإنه خاطبه على المتعارف عندهم وعلى ما كانوا يسمونه به»[٥].

- السيد المطاع.

قال الجوهري: «ربّيت القوم أي كنت فوقهم»[٦].

وقال ابن منظور: «والعرب تقول لأن يربيني فلان أحب إليّ أن يربيني فلان، يعني أن يكون ربًّا فوقي وسيدًا يملكني»[٧].

- التربية.

قال الراغب الأصفهاني: «الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالًا

---

(١) ينظر: «رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله» (صـ ٣١).
(٢) ينظر: «الصحاح» (١/١٣٠-١٣٢).
(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٥/١٢٨).
(٤) يوسف: [٤٢].
(٥) ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/١٧٩).
(٦) ينظر: «الصحاح» (١/١٣٠-١٣٢).
(٧) ينظر: «لسان العرب» (١/٣٩٩).

فحالًا إلى حد التمام، يقال ربّه ورباه وربيبه»[(١)].

ـ المصلح للشيء.

قال ابن فارس: «الرب: المصلح للشيء، يقال ربّ فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها»[(٢)].

وأما الألوهية: فهو منسوب إلى (الإله)، والإله فِعال بمعنى مألوه؛ أي معبود. وألهه: اتخذه إلهًا؛ أي معبودًا. وكل ما اتخذ معبودًا، فهو إله عند متخذه[(٣)].

وإله جعلوه اسما لكل معبود لهم.. وأَلِه فلان يأله عَبَد، وقيل تأله فالإله على هذا هو المعبود[(٤)].

أَلِه بالفتح إلهة أي: عبد عبادة... إله على فِعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي: معبود كقولنا إمام فعال بمعنى مفعول لأنه مؤتم به[(٥)].

ومنه قرأ ابن عباس ﷺ: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَٰهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] بكسر الهمزة قال: «وعبادتك»[(٦)].

والتأله: التنسك والتعبد. قال رؤبة:

لـلـه در الـغـانــيـات الـمـده   سبّحن واسترجعن من تألّهي[(٧)]

فالإله بمعنى المألوه، وهو المعبود، والرب بمعنى المالك للشيء والقائم عليه ومصلحه، وهذا الفرق بين هاتين الكلمتين فبطل تفسير إحداهما بالأخرى لغة.

ثانيًا: الفرق بين الربوبية والألوهية شرعًا:

تقدم تفسير هاتين الكلمتين شرعًا، وذكرنا أن الرب هو الخالق المالك المدبر، وأما الإله فهو المعبود الحق، الذي تألهه القلوب محبة، وخوفًا، ورجاءً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإله المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبودا محبوبا لذاته إلا هو، وكل

---

(١) ينظر: «مفردات غريب القرآن» (صـ ١٨٤).
(٢) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣٨١/٢).
(٣) ينظر: «الصحاح» للجوهري (٢٢٢٣/٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (٤٦٩/١٣)، و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي (١٧٣/١)، و«مفردات غريب القرآن» (صـ ٢١).
(٤) ينظر: «القاموس المحيط» (١٧٣/١)، و«مفردات غريب القرآن» (صـ ٢١).
(٥) ينظر: «الصحاح» (٢٢٢٣/٦).
(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٣٦٦/١٠) ط هجر، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٥٣٨/٥)، و«الصحاح» للجوهري (٢٢٢٣/٦)، و«موسوعة التفسير بالمأثور» (٢٨٢/٩-٢٨٣).
(٧) ينظر: «ديوان رؤبة» (صـ ١٦٥).

عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد كما قال تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**(١).

فالمقصد الأعظم الذي لأجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجن والإنس هو عبادة الله وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وقد شهد بذلك آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي ﷺ.

فأخبر الله تعالى أن المشركين الذين بعث فيهم محمد ﷺ معترفون بالربوبية لا ينكرونها، ولا يجعلون أحدًا من آلهتهم شريكًا لله في ربوبيته من الخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف، فهذه حقيقة لا ينكرها المشركون، وأخبر تعالى أن المشركين أنكروا على النبي ﷺ حقيقة أخرى لما نهاهم عن اتخاذ الشركاء وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده.

فهذا باطل عندهم وفاسد، وقالوا ما حكى الله عنهم في كتابه الكريم: **﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**(٢).

لذا تعجبوا كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده.

وأما الأدلة من السنة فهي أن النبي ﷺكان يعلم أصحابه والداخلين في الإسلام من جديد بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا، حيث كانوا مقرين بأن الله هو الخالق، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ...**»(٣).

وفي رواية: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، ...**»(٤).

وفي رواية أخرى قال: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، ...**»(٥).

وكذلك قال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله،**

---

(١) الأنبياء: [٢٢].
(٢) ص: [٥].
(٣) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) رواه البخاري (٧٣٧٢).
(٥) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

وأن محمد رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[(١)].

وأخبر النبي ﷺ أصحابه أن حق الله على العباد أن يوحدوه بالعبادة ويفردوه في ذلك، ويتجردوا من الشرك قليله وكثيره، صغيره وكبيره، حيث قال لمعاذ بن جبل: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟**»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**ألا يعذبهم**»[(٢)].

فالمقصود أن الكتاب والسنة واللغة دلت جميعها على أن هناك فرقًا بين الربوبية والألوهية.

وهذا خلاف ما عليه المتكلمون فهم خلطوا معنى الألوهية بالربوبية، وظنوا أن الألوهية هي القدرة على الاختراع؛ فمن أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد صار عندهم موحدًا، وليس الأمر كما ذهبوا إليه؛ بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد دون غيره.

ثالثًا: ومن الفروق بينهما أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية:

فمن أقر لله بالربوبية لزمه أن يقر له بالإلهية[(٣)]، وهذا الأمر قد بينه القرآن غاية البيان، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «ومن ذلك أنه [أي: القرآن] يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلًا على الثاني؛ إذ كانوا يسلمون الأول، وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟

كقوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾[(٤)].

يقول الله تعالى في آخر كل آية: ﴿**أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ**﴾ أي: أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله،

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه.
(٣) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٤١٣/١).
(٤) النمل: [٥٩-٦٠].

فاحتج عليهم بذلك»(١).

رابعًا: خصائص توحيد الألوهية:

ومن الفروق بين الربوبية والألوهية أن لتوحيد الألوهية عدة خصائص ما يجعله يمتاز عن غيره، ومن هذه الخصائص:

أ- أنه الغاية من خلق الثقلين الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(٢).

فتوحيد العبادة غاية محبوبة لله تعالى، لأجلها خلق الثقلين.

ب- إنه المقصود الأعظم من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم،

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾(٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾(٤).

وأخبر عن رسله نوح، وهود، وصالح، وشعيب، أنهم قالوا لقومهم: ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾(٥).

ج- أنه أول واجب على المكلف، فإن توحيد الألوهية هو معنى (لا إله إلا الله)، وهي أول دعوة الرسل، وقد تقدم تفصيل ذلك.

د- أن الشارع احتاط لهذا التوحيد أعظم الحيطة عن كل قولٍ وفعلٍ وقصدٍ يكون شركًا أو وسيلة إلى الشرك كالرياء والحلف بغير الله والطيرة وبناء المساجد على القبور، والعكوف عندها.

وكذلك الألفاظ التي توهم النِّدِّيَّةَ بين الله وبعض خلقه كقول القائل: «ما شاء الله وشاء فلان».

روى حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء**

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/٣٦-٣٧).
(٢) الذاريات: [٥٦].
(٣) النحل: [٣٦].
(٤) الأنبياء: [٢٥].
(٥) الأعراف: [٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[(١)].

بطلان تفسير الأشاعرة والماتريدية لآيات الألوهية بالربوبية:

تقدم أن الأشاعرة والماتريدية يفسرون آيات الألوهية بالربوبية، ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[(٢)] بدلالة التمانع، وهو دليل الربوبية.

وهذا التفسير باطل؛ لأن الآية جاءت في تقرير توحيد الألوهية، والرد على المشركين الذين كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى، قال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾[(٣)]، ففيها الاستدلال بعدم فساد السموات والأرض على أنه ليس فيهما آلهة يستحقون العبادة غير الله تعالى، بينما مراد الماتريدية من دليل التمانع هو إثبات توحيد الربوبية بفساد العالم لو وجد خالق آخر للعالم، ولا شك أن هذا غير مطلوب الآية.

يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان... الخ، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل: أرباب.

وأيضًا: فإن هذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا.

وأيضا فإنه قال: ﴿**لَفَسَدَتَا**﴾ وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا.

ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا الواحد، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله c، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قامت

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٥٥)، وابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٢٦٥)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري»، والحديث في «السلسلة الصحيحة» (١٣٧).

(٢) الأنبياء: ٢٢

(٣) الأنبياء: ٢١- ٢٤

السماوات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد»[(١)].

وأيضًا فإن سياق الآية في بطلان عبادة غير الله تعالى، والرد على المشركين، وليس في تقرير توحيد الربوبية، فإنهم كانوا مقرين بالربوبية، يقول ابن أبي العز أيضًا: «وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿**لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلّا اللَّهُ لَفَسَدَتا**﴾ لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام.

وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد؛ كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[(٢)]...»[(٣)].

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/٤٠-٤١)، و«شرح الأصفهانية» لشيخ الإسلام (صـ ١٢٣)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٣٨٨)، و«منهاج السنة» (٣/٣١٤).
(٢) لقمان: [٢٥].
(٣) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/٢٨-٢٩).

المبحث الثامن: الرد على أدلة المتكلمين في إنكارهم لتوحيد الألوهية

«استدل المتأخرون من أهل الكلام على إنكار دخول توحيد الألوهية في حقيقة التوحيد، وأنه راجع إلى توحيد الربوبية بأدلة، أكتفي بذكر دليلين وهما:

الدليل الأول: أن الله تعالى يقول: في أخذ الميثاق على بني آدم: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾ [الأعراف:١٧٢]، كما أن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [الأحقاف: ١٣]، وكذلك جاء في حديث سؤال الملكين في القبر: «**من ربك؟**»[(١)]، وكذا في حديث: «**قل ربي الله ثم استقم**»[(٢)]، وهذه الأدلة جميعًا تدل - عندهم - على أن الإله بمعنى الرب، وعلى هذا فتوحيد الألوهية هو توحيد الربوبية بعينه ولا فرق[(٣)].

والجواب عن هذا الدليل أن يقال: إن كلمة «الرب» و«الإله» إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا، واجتماعهما في المعنى عند الافتراق هو باعتبار أن مصداقهما في نفس الأمر وفي اعتقاد المسلمين المخلصين واحد.

ولهذا يأتي الرب بمعنى المعبود المتألِّه في اللغة واستعمال الشرع[(٤)] أما عند الاجتماع في اللفظ فإنّ كل كلمة تعود إلى معناها الشرع الخاص بها فيفترقان في المعنى.

وقد أوضح ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب حيث يقول: «اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان ويفترقان كما في قوله: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ١ - ٣]، وكما يقال: رب العالمين وإله المرسلين، وعند الإفراد يجتمعان كما في قول القائل: «من ربك؟»، مثاله: الفقير والمسكين نوعان في قوله: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾ [التوبة: ٦٠]، ونوع واحد في قوله: «**افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم**»[(٥)]، إذا ثبت هذا فقول الملكين للرجل في القبر: «**من ربك؟**» معناه مَن إلهك؛ لأن الربوبية التي

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٠) وصححه، وابن ماجه (٣٩٧٢) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، ورواه مسلم (٣٨)، بلفظ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**».

(٣) ينظر: «الدرر السنية في الرد على الوهابية» (صـ ٣٧-٣٨)، و«مصباح الظلام» (صـ ١٧)، و«التوسل بالنبي وجهلة الوهابيين» (صـ ٢٢-٢٣).

(٤) ينظر: «العين» (٢٥٦/٨)، و«الصحاح» (١/ ١٣٠) مادة (رب)، و«لسان العرب» (١ / ٤٠٠) مادة «ريب»، و«أساس البلاغة» (صـ ١٥٠).

(٥) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «... فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم».

أقر بها المشركون ما يمتحن أحد بها، وكذلك قوله: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا**﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [الأحقاف: ١٣].

فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها، كما تكون قسيمة لها عند الاقتران»(١).

وقد رد السهسواني على هذا الدليل ردا شافيا فقال: «ولا أظنك شاكا في أن مفهوم الرب ومفهوم الإله متغايران، وإن كان مصداقهما في نفس الأمر وفي اعتقاد المسلمين المخلصين واحدا، وذلك يقتضي تغاير مفهومي التوحيدين، فيمكن أن يعتقد أحد من الضالين توحيد الرب ولا يعتقد توحيد الإله، وأن يشرك واحد من المبطلين في الألوهية ولا يشرك في الربوبية وإن كان هذا باطلا في نفس الأمر، ألا ترى أن مصداق الرازق، ومالك السمع والأبصار والمحيي والمميت، ومدبر الأمر ورب السماوات السبع ورب العرش الكريم ومن بيده ملكوت كل شيء، والخالق ومسخر الشمس والقمر ومنزل الماء من السماء ومصداق الإله واحد؟

ومع ذلك كان مشركو العرب يقرون بتوحيد الرازق ومالك السمع ومع والأبصار، وغيرهما، ويشركون في الألوهية والعبادة»(٢).

كما قال أيضًا: «وكون مصداق الرب عين مصداق الإله في نفس الأمر وعند المسلمين المخلصين لا يقتضي اتحاد مفهوم توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ولا اتحاد مصداق الرب والإله عند المشركين من الأمم الماضية وهذه الأمة.

أما نعقل أن لفظ توحيد الربوبية، ولفظ توحيد الألوهية كلاهما مركبان إضافيان والمضاف في كليهما كلي؟ وهذا غني عن البيان، وكذلك المضاف إليه في كليهما، فإن الربوبية والألوهية معنيان مصدريان منتزعان من الرب والإله وهما كليان.

أما الرب فلأن معناه المالك والسيد والمتصرف للإصلاح والمصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم والمعبود، وكل واحد مما ذكر معنى كلي.

وأما الإله فلأن معناه المعبود بحق أو باطل، وهو معنى كلي، فالمنتزع منهما أيضا معنى كليا، فتوحيد الربوبية اعتقاد أن الرب واحد سواء كان ذلك الرب عين

---

(١) ينظر: «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (١٧/٥).
(٢) ينظر: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» (صـ ٤٣٩).

الإله أو غيره وتوحيد الألوهية اعتقاد أن الإله واحد سواء كان ذلك الإله عين الرب أو غيره.

وإذا تقرر هذا فنقول: يمكن أن يوجد في مادة توحيد الربوبية ولا يوجد توحيد الألوهية كمن يعتقد أن الرب واحد ولا يعتقد أن الإله واحد، بل يعبد آلهة كثيرة، ويمكن أن يوجد في مادة توحيد الألوهية ولا يوجد توحيد الربوبية، كمن يعتقد أن المستحق للعبادة واحد، ولا يعتقد وحدانية الرب، بل يقول إن الأرباب كثيرة متفرقة، ويمكن أن يجتمعا في مادة واحدة كمن يعتقد أن الرب والإله واحد، فثبت أن مفهوم توحيد الربوبية مغاير لمفهوم توحيد الألوهية، نعم توحيد الربوبية من حيث إن الرب مصداقه إنما هو الله تعالى لا غير يستلزم توحيد الألوهية من حيث إن الإله مصداقه إنما هو الله تعالى لا غير، لكن هاتين الحيثيتين زائدتان على نفس مفهومي التوحيدين ثابتتان بالبرهان العقلي والنقلي»[١].

وقال أيضًا: «وأما استدلال المؤلف على اتحاد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولم يقل ألست بإلهكم بأنه تعالى اكتفى منهم بتوحيد الربوبيّة فليس بشيء، فإن غاية ما يثبت من الآية أن الله تعالى لم يذكر في هذه الآية توحيد الألوهية، وهذا لا دلالة له بشيء من الدلالات على اتحادهما فرب حكم لم يذكر في آية دون أخرى، وتوحيد الألوهيّة وإن لم يذكر في هذه الآية فهو مذكور في الآيات التي تلونا آنفًا»[٢].

الدليل الثاني: أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]، وقد بين الدجوي وجه الاستدلال بهذه الآية على مذهبه فقال:

«فصرح بتعدد الأرباب عندهم، وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنهم جعلوا الملائكة أربابا، يقول ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب: إنهم موحدون توحيد الربوبية، وليس عندهم إلا رب واحد، وإنما أشركوا في توحيد الألوهية»[٣].

وكل الآيات التي استدلوا بها على أن المشركين لا يعترفون بالربوبية، وأن شركهم وقع في إسناد الخلق والإيجاد والتأثير والتدبير لغير الله تعالى يستدلون بها أيضًا على أن توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية وليس هناك توحيد آمن به

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٤٠-٤٤١).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٤٢).
(٣) ينظر: «مقالات الدجوي» (١/٢٥٠)، وأيضًا: «صلح الإخوان» (صـ ١٢٥)، و«جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (١/٢٤٢)، و«دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ عبد الوهاب» (صـ ٣٣١).

المشركون وتوحيد لم يؤمنوا به.

ويجاب عن هذا الدليل بأنه ليس في هذه الآية ولا غيرها أن مشركًا قال حق غير الله إنه رب بمعنى أنه الخالق والمالك والمدبر للكون، وإنما فيها اتخاذ الأرباب، وهذا ليس نصًّا على أنهم مقرون بربوبيتهم بحيث يمكن أن يعارض به النصوص الدالة على إقرارهم بالربوبيّة بل يحتمل أن يكون اتخاذهم الأرباب بمعنى صرف شيء من العبادة إليهم أو بمعنى اتباع ما شرعوا لهم من تحريم الحلال وتحليل الحرام(١).

وعلى هذا فيحمل معنى الرب على معنى الإله فيكون بمعنى المعبود.

وهذا ما فسره به ابن جرير حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا**﴾ [آل عمران: ٨٠]: يعني بذلك آلهة يعبدون من دون الله(٢).

ويؤيد هذا ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي - حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى، من أهل نجران عند رسول الله ودعاهم إلى الإسلام-: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني**» أو كما قال رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾ إلى قوله: ﴿**بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠](٣)...(٤).

---

(١) ينظر: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» (صـ ٤٥٠).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥/٥٣٥) ط هجر.
(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/٥٢٤) ط هجر، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/٦٩٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٣٨٤) جميعًا من طريق ابن إسحاق، وشيخه محمد بن أبي محمد: مجهول.
(٤) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للسلمي (صـ ٤٨٢-٤٨٥).

المبحث التاسع: موقف المتكلمين من الشرك في العبادة

سبق أن ذكرنا أن موقف المتكلمين من توحيد الألوهية هو الإهمال والإعراض وذلك هو موقفهم من الشرك أيضًا، فلا تجد في كتبهم ذكرًا للشرك في الألوهية بدعاء غير الله أو الاستغاثة به، أو الطواف بالقبور أو اللجوء لأصحابها، والذبح أو النذر عندها، إلى غير ذلك من أنواع الشرك التي حذر الله، وحذر الرسول ﷺ منها، ومن الطرق الموصلة إليها، فكان في ذلك وقاية وحماية للمسلمين من الوقوع في هذا الانحراف إلى أن جاء المتكلمون فأهملوا بيان توحيد الألوهية، كما أهملوا التحذير من ضده وهو الشرك، فجهل المسلمون توحيد الألوهية، ووقعوا في ضده وهو الشرك حتى صار لدى كثير من المسلمين في بلدانهم قبور أوثان يعكفون عندها، ويدعون عندها وينذرون ويذبحون لها وهم يظنون أن ذلك قربة إلى الله، وأن هؤلاء الموتى واسطة شرعية ووسيلة مقبولة عند الله.

وما ذلك إلا لإعراض المتكلمين عن بيان الشرك والتحذير منه مما جعل المسلمين يجهلونه فيقعون فيه، ظنا أن ذلك ليس شركا، وأن الشرك إنما هو في خصائص الربوبية؛ كما أوعز إلى ذلك المتكلمون بتركيزهم على إثبات الوحدانية في الذات والوحدانية في الأفعال، أما الوحدانية في العبادة فقد أهملوها ولم يذكروها، فصار المسلم يظن أن لا شرك فيها، مع أن الشرك الذي حذر منه الله إنما كان في هذا النوع، وهو بلية بني آدم ومصيبتهم التي حذرهم منها رسل الله عليهم الصلاة والسلام[١].

---

(١) ينظر: «التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية» للمؤلف (١/١٥٠).

المبحث العاشر: الرد على شبهات المتكلمين في تبرير الممارسات الشركية إجمالًا

الشبهة الأولى: أن من شهد لله تعالى بأنه وحده الخالق والرزاق والمدبر، ثم طلب من الأنبياء والصالحين المدد والعون وكشف الضراء، فإنه لا يكون مشركا، لأن للأنبياء والصالحين جاه عند الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فإن الالتجاء إلى الأنبياء والصالحين ليس بشرك.

ونلاحظ أن هذه الشبهة مركبة من أمور متعددة وهي:

١- أن التوحيد هو الشهادة لله تعالى بالربوبية.

٢- أن الشرك هو الشرك في الربوبية.

٣- أن صرف العبادة كالدعاء، والخوف والرجاء، والمحبة والعبادات العملية المتعلقة بالجوارح لا تكون شركا إذا لم يعتقد استقلالية المعبود بالربوبية، وهذه الشبهات الثلاث سبق الجواب عنها مفصلا.

ويمكن أن نجيب على ما سبق بجواب مختصر، نقول كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (إن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرون بما ذكرت (يعني: الربوبية)، ومقرون بأن أوثانهم لا تدبر شيئا، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة وأقرأ عليهم ما ذكر الله في كتابه ووضحه)[(١)].

الشبهة الثانية: أن المشركين كانوا يعبدون حجارة وخشبًا، وينسبون لها التصريف والخلق، أما المتأخرون فإنهم يقصدون الأنبياء والصالحين ويستغيثون بهم ويذبحون وينذرون لهم ويطوفون بقبورهم لما لهم من الجاه عند الله تعالى.

ولا يستوي من يعبد الحجر الأصم ومن يقصد النبي والولي، كما لا يستوي من يعلم أن من يقصده لا يملك شيئا من التدبير والتأثير، ومن يظن أن الأصنام تملك التدبير والتأثير استقلالًا.

وكذا نلاحظ أن هذه الشبهة مركبة من شبهتين:

إحداهما: أن المشركين يعتقدون في أصنامهم أنها تملك شيئا من الخلق والتدبير، وقد سبق مناقشة شبهاتهم في ذلك والرد عليها.

الثانية: أن المشركين يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة والخشب، والمتأخرين يلتجئون إلى الصالحين، وهناك فرق بين الحجارة والصالحين.

---

(١) كشف السبهات (ص١٨).

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١- لا يصح القول أن المشركين يعبدون حجارة وخشبا مصنوعا لذاته، وإنما كانت الأصنام رمزا يدل على الصالحين الذين هم المعبودون حقيقة.

٢- أن الله تعالى قد ذكر أوصاف العقلاء لآلهة المشركين وعبر عن آلهتهم بصيغة العاقل، فدل ذلك على أنهم ما كانوا يعبدون الحجارة والأخشاب لذاتها، وإنما كانت العبادة في الحقيقة للصالحين، فقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾ [سورة الإسراء:٥٧]، ولو أن آلهة المشركين حجارة وأخشاب لما صح التعبير عنها بصيغة العاقل، فلما جاء التعبير بالصيغة الدالة على العاقل دل ذلك على أن المعبودين في الحقيقة هم الصالحون.

٣- أنه لو كان المشركون يعبدون الحجارة لذاتها، فإن عبادة الصالحين من دون الله شرك - أيضا -؛ لأن الشرك هو صرف العبادة لغير الله تعالى سواء كانت الحجارة أو لرجل صالح.

ولا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالا أو مع الله تعالى، وناداه أو توجه إليه، أو استغاث به في الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده بالعبادة؛ إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجارة أو ملكا أو شيطانا كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية وبين أن يكون إنسانا من الأحياء أو الأموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين.

الشبهة الثالثة: استدلوا بعصمة دم ومال من قال: (لا إله إلا الله) وذكروا الأحاديث الدالة على هذا المعنى، ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[(١)]. وقوله: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا**»[(٢)].

قالوا: فهذه الأحاديث تدل على أن من قال: «لا إله إلا الله»، فهو مسلم

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) بنحوه رواه ابن زنجويه في «الأموال» (٩٨) من حديث معاوية بن قُرَّة مرسلًا، وينظر: «نصب الراية» (٤٤٧/٣)، وروى البخاري (٣٩١) من حديث أنس رضي الله عنه، بلفظ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**».

معصوم الدم والمال، ولا يكفر أبدا؛ لأن الكفر أمر اعتقادي في الباطن لا يعلمه إلا الله، ثم ذكروا أن دعوة الشيخ الإمام خارجية حرورية؛ لأنها كفرت المسلمين - فيما زعموا - بعد قولهم: «لا إله إلا الله»!

ويجاب عن هذا بأنه لا يسمح لأحد أن يأخذ هذه العموميات ويعمل بها دون الرجوع إلى النصوص الشرعية التي تقيدها وتبين معناها، ومن أمثلة هذه النصوص المقيدة لها والمبينة لمعناها: حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»[1].

وقد بين الشيخ عبد الرحمن بن حسن اشتمال هذا الحديث على شروط الشهادة، وأنها ليست كلمة تقال فقط.

ومن الأحاديث الدالة على شروط هذه الكلمة قوله: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[2]. فقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**» يدل على شرط الإخلاص الله تعالى.

وخلاصة القول: أن قول: (لا إله إلا الله) لا يكفي وحده في استمرار ثبوت الإسلام للإنسان، كما لا يكفي في النجاة من النار يوم القيامة، بل لا بد من أمرين مهمين:

١- العمل الظاهر والباطن - إجمالا.

٢- ترك النواقض.

فلا تنفع (لا إله إلا الله) مَن أعرض عن جنس العمل، كما لا تنفع من نقض مدلولها بأحد النواقض.

الشبهة الرابعة: قالوا: إن للرسول ﷺ جاها عند الله تعالى، فنحن نطلب منه أن يشفع لنا عند الله، وشفاعته هي مجرد دعائه الله تعالى وابتهاله وطلبه منه لمن سأله ذلك؛ كما يدعو المؤمن لأخيه بظهر الغيب، وقد أذن الله تعالى للرسول ﷺ أن يشفع كما ثبت ذلك في السنة[3]، وقد كان يدعو لأصحابه، وهذا من الشفاعة

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨)، واللفظ للبخاري.
(٢) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) من حديث محمود بن الربيع رضي الله عنه.
(٣) وهذا في أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: «فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه، =

لهم وطلب الشفاعة منه ليس عبادة تصرف لغير الله تعالى، وعليه فلا فرق بين أن يقول: اللهم شفع محمدا فيَّ، وبين أن يقول: يا محمد اشفع لي. وإذا ثبت جواز طلب الشفاعة من الرسول، فإنما جاز طلها منه لمكانته من مالك الشفاعة الحقيقي وهو الله تعالى، فلا مانع إذن من طلبها من الأولياء والصالحين لوجود المقتضي لذلك وهو المكانة والجاه.

والجواب: أن الشفاعة ملك لله تعالى وحده كما قال تعالى: ﴿**قل لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [سورة الزمر:٤٤]، ووجه التخصيص في هذه الآية تقديم الجار والمجرور وحقه التأخير، ونكتته البلاغية أنه يفيد الحصر والتخصيص؛ ولهذا نفى الله تعالى أن يكون ملكها عند أحد غيره فقال: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة الزخرف: ٨٦]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»(١). وقد قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**»(٢).

قال الحافظ في «الفتح»(٣) وقد استشكل ظاهر الحديث بما وقع لكثير من الأنبياء من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا صلى الله عليه وسلم، وظاهره أن لكل نبي دعوة مستجابة فقط، والجواب أن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة.

وإذا تقرر هذا فإن طلب الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وسلم له ثلاث حالات باعتبار الدار:

الحالة الأولى: أن يطلب من النبي ﷺ الدعاء في حياته، وقد طلب الصحابة منه أن يدعو لهم وهو معنى أن يشفع لهم، وهذا لا ينازع في جوازه أحد.

الحالة الثانية: أن يطلب من النبي ﷺ الشفاعة بسؤاله إياها بعد موته وهو في قبره في حياته البرزخية، وهذا لا يجوز فعله بإجماع أهل السنة، ومما يدل على عدم جواز ذلك ما يلي:

وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدًّا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه فإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيحد لي حدا، فأدخلهم الجنة، ...».

(١) رواه مسلم (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٤)، مسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٩٦/١١).

١- أن الشفاعة ملك الله تعالى، وطلبها من غيره بسؤاله إياها داخل في دعاء غير الله تعالى ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا شك أن هذا من الشرك.

٢ - أن أهل الإسلام بعد موت النبي ﷺ لم يعرفوا سؤال الشفاعة منه خلال الثلاثة قرون المفضلة، بل مضى الخلفاء الراشدون ولم يسأل أحد منهم نبي الله الشفاعة بعد موته، فهذا عمر بن الخطاب يعدل في طلب الدعاء من النبي ﷺ إلى العباس بن عبد المطلب[١]، هذا مع محبتهم لرسول الله ﷺ غاية المحبة وهم أعلم الأمة، وأحرص الناس على الخير.

٣- أن أهل السنة أجمعوا على أن للنبي صلى الله عليه وسلم أنواعا من الشفاعة يشفع بها، ولم يذكروا منها طلبها منه عند قبره، بل كلها في يوم القيامة، والمخالف لإجماع أهل السنة ليس منهم.

٤- أن رسول الله ﷺ أخبر أنه: أول شافع وأول مشفع[٢]، وهذا الإخبار منه يقتضي أولية مطلقة لا استثناء فيها، على كل من قامت قيامته.

وتخصيص النبي ﷺ بهذه الفضيلة يوم القيامة تنفي أن يكون شافعا في قبره، وهذا ما يدل عليه لفظ «**أنا أول**».

فإذا كان في حياته يشفع لهم بالدعاء وبعد موته يشفع وبعد قيام قيامة الناس يشفع، فأي معنى لقوله: «**أنا أول شافع**»[٣]؟ فهو على هذا الفرض مستديم الشفاعة، ودائم قبولها منه عند أولئك الزاعمين، وإذا كذلك فأي فائدة من إنشاء هذا الخبر أنه أول شافع، وأول مشفع.

٥- أن عمومات النصوص تنهى عن طلب الشفاعات من الأموات؛ لأنهم أفضوا إلى ما قدموا.

٦- أن الله تعالى علق قبول الشفاعة عنده بمن أذن له، وقد علم أن الله تعالى يأذن لرسوله أن يشفع في الآخرة بعدما يأتي ويسجد لله ويسبحه تعالى، ثم يأذن الله له بالشفاعة فيمن رضي عنه، وليس هناك ما يدل على أنه إذن له في الشفاعة مطلقة حتى في البرزخ كما يزعم هؤلاء، وعليه: فطلبهم الشفاعة من الرسول ﷺ في البرزخ باطل لعدم ورود ما يدل على الإذن فيه، والله تعالى يقول: ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾ [سورة طه: ١٠٩].

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨)، وبنحوه البخاري (٤٧١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

والنصوص الواردة في طلب الشفاعة أي: الدعاء من رسول الله إنما وردت في حياته الدنيوية ويوم القيامة، ولم تخبر بطلبها منه في حياته البرزخية.

الحالة الثالثة: أن تطلب الشفاعة منه ﷺ في يوم القيامة، وهذا لا إشكال فيه، فقد دل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه له في طلب الناس الشفاعة من الأنبياء ثم يشفع لهم رسول الله ﷺ بعدما يأذن الله تعالى له(١).

الشبهة الخامسة: أن الناس يوم القيامة يستغيثون بالأنبياء ليشفعوا لهم عند الله فيخلصهم من كرب الموقف، ففي هذا دليل على أن الاستغاثة بالمخلوق، ليست بشرك.

والجواب: أن الاستغاثة بالمخلوق نوعان:

١ـ الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، وهذا النوع لا إشكال في جوازه وإباحته، كما قال تعالى في قصة موسى ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**﴾ [سورة القصص ١٥]، وهذا من باب التعاون، كما قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

٢ ـ الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، وهي التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدرون عليها، فهذا النوع من الشرك.

الشبهة السادسة: أن دعاء المسألة لا يعتبر من العبادة؛ لأنه مجرد نداء، ولو كان دعاء المسألة عبادة لكان نداء الأحياء فيما بينهم في الدنيا شركا، والآيات الواردة في اعتبار الدعاء عبادة، وأن دعاء غير الله شرك تحمل على أن معنى الدعاء العبادة، فالمراد بالآيات: أن من عبد غير الله فهو مشرك، وللعبادة مفهوم خاص ـ عندهم ـ سبقت الإشارة إليه، وبناء على هذا فإن سؤال غير الله تعالى والاستغاثة به لا يدخلها الشرك؛ لأنها ليست عبادة كما تقدم، وهذا القول فيه مصادمة للكتاب والسنة فإن أكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة، ومن بعدهم من العلماء في السؤال والطلب.

فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**﴾ [سورة فاطر: ١٣].

---

(١) ينظر التخريج السابق.

ومن السنة: قوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[١]. وفي لفظ: «**مخ العبادة**»[٢].

أما تشبيهه -أي: دعاء المسألة- بالنداء بين الناس في الدنيا فباطل، فإن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ليس نداء عاديا، بل معه من الذل والخضوع والرغبة في تحقيق مطلوبة ممن دعاه، والخوف من عدم حصول مطلوبة شيء كثير، فلا يصح تشبيهه بالنداء العادي، وهذا بيِّن.

فإذا ثبت أن من دعاء المسألة ما يكون من العبادة، فإن الشرك يقع فيه إذا صرف لغير الله تعالى، أما تغيير مفهوم العبادة بأنه من دعي مع اعتقاد الخلق والتدبير فهذا ما تقدم إبطاله سابقا.

الشبهة السابعة: أنه لا فرق بين التوسل والتشفع والاستغاثة، فلا فرق بين أن يقول: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمدًا صلى الله عليه وسلم، وبين أن يقول: يا رسول الله اشفع لي، وبين أن يقول: يا رسول الله أغثني، وجميع هذه الأنواع بمعنى واحد، وقد ثبت جواز التوسل فجواز الاستغاثة مثله.

والجواب: أن يقال قبل الرد على هذه الشبهة لا بد من معرفة المعنى الصحيح لكل واحدة من هذه الألفاظ، فالتوسل هو سؤال الله تعالى بوسيلة ما، والتشفع طلب الشفاعة من الرسول ﷺ أو من غيره، والاستغاثة طلب الغوث وإزالة الشدة من الرسول ﷺ أو من غيره.

وعلى هذا فإن هذه الأنواع الثلاثة تعود إلى نوعين:

١- دعاء الله تعالى بالأصالة ثم تضمين الدعاء له تعالى بأمر ما.

٢- دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والنوع الأول يشمل التوسل، والثاني: يشمل الاستغاثة والاستشفاع.

واختلط عليهم الأمر؛ لأن لفظ التوسل مجمل، فظنوا أن المراد به جعل واسطة بين العبد وربه يدعوه ويرجوه ويخافه، وعلى هذا فإن التوسل إذا كان بأسماء الله وصفاته، أو بالأعمال الصالحة أو بدعاء بعض الصالحين، فهو توسل مشروع لورود السنة بذلك.

أما التوسل بذوات الأنبياء والأولياء والصالحين فهو توسل ممنوع مبتدع؛ لأنه لم يرد في السنة، وقد قال رسول الله: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه،**

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وصححه، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ الأول هو الأصح.

فهو رد»[(١)][(٢)].

والتوسل بذوات الأنبياء والأولياء والصالحين لا يعتبر من الشرك الأكبر، لأنه دعاء الله تعالى، فليس فيه صرف لعبادة من العبادات لغير الله تعالى، بينما الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والاستشفاع بالرسول أو بغيره بعد موته وهو في البرزخ من الشرك الأكبر، لأنه من صرف العبادة لغير الله تعالى[(٣)].

وقد تبين أنه لا يصح إطلاق التوسل على الاستغاثة والتشفع والتوجه لأن كلًّا منها لها معنى تختص به، ومما يوضح ذلك ما يلي:

١- إن هذا الخلط والتسوية بين هذه المفردات لم تخالف النصوص الشرعية فحسب، بل خالفت حتى كلام العرب، فإن هناك فرقًا بين أن يقال استغثت به وبين أن يقال توسلت به، فالأول هو المسؤول والثاني مسؤول به[(٤)]. وقد نتج عن هذا الخلط: مظاهر الشرك الأكبر كدعاء الموتى والاستغاثة بهم.

٢- إن هؤلاء قد خلطوا بين الباء في استغثت به والباء في توسلت به، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى هذا الإشكال والسبب الذي أوقعهم به فقال رحمه الله تعالى: «وما زلت أتعجب من هذا القول وكيف يقوله عاقل والفرق واضح بين السؤال بالشخص والاستغاثة به، وأريد أن أعرف من أين دخل اللبس على هؤلاء الجهال فإن معرفة المرض وسببه يعين على مداواته وعلاجه، ومن لم يعرف أسباب المقالات وإن كانت باطلة لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم، فوقع لي أن سبب هذا الضلال هو الاشتباه عليهم أنهم عرفوا أن يقال: سألت الله بكذا كما في الحديث: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد أنت المنان**»[(٥)]، ورأيي[(٦)] أن الاستغاثة تتعدى بنفسها كما يتعدى السؤال كقوله: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾، وقوله ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾، فظنوا أن قول القائل: استغثت بفلان؛ كقول: سألت بفلان، والمتوسل إلى الله بغائب أو ميت تارة يقول: أتوسل إليك بفلان، وتارة يقول: أسألك بفلان، فإذا قيل ذلك بلفظ الاستغاثة فإما أن يقول: أستغيثك بفلان أو أستغيث إليك فلان، ومعلوم أن كلا هذين القولين ليس من كلام العرب، وأصل الشبهة على هذا التقدير أنهم لم يفرقوا بين الباء في استغثت به

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٤٢).
(٣) ينظر: «حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين» للسلمي (صـ ٥٠٣-٥٢٨).
(٤) ينظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (١/ ٧٠)، و«الدرر السنية» (١٢/ ٥٣).
(٥) رواه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني.
(٦) هكذا في المطبوع، ولعل الصواب: (ورأى).

التي يكون المضاف بها مستغاثًا مدعوًّا مسؤولًا مطلوبًا منه، وبالاستغاثة المحضة من الإغاثة التي يكون المضاف بها مطلوبًا به لا مطلوبًا منه ... فلفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به، وقول القائل: استغثت فلانًا واستغثت به بمعنى طلبت منه الإغاثة لا بمعنى توسلت به»(١).

٣- إن من سأل بشيء لا يكون هذا الشيء هو المخاطب، كقول أتوسل إليك يا إلهي بكذا فهذا خطاب لله لا لذلك الشيء، بخلاف المستغاث به فإنه مخاطب مسؤول فحصلت المشاركة في سؤال ما لا يقدر عليه إلا الله(٢).

٤- إن مادة التوسل تتعدى بالحرف كقول: توسلت بفلان إلى فلان، وأما مادة الاستغاثة فإنها تتعدى بنفسها وبالحرف وكلاهما بمعنى واحد كقول: استغاثه، واستغاث به، وكلا المعنيين طلب الغوث من المستغاث به(٣).

وبهذا يُعلم أنه لا بد من التقيد بالألفاظ الشرعية وعدم الإخلال بها؛ لأن الإخلال بها يؤدي إلى تعطيل معانيها المقصودة شرعًا، وهؤلاء لما خلطوا بين هذه المصطلحات نتج عن ذلك مظاهر الشرك ووسائله فصار دعاء الأموات والاستغاثة بهم هي من قبيل التوسل عندهم وهكذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى أهمية مراعاة الألفاظ فقال: «فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل، ويراعون أيضًا الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه، ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقًّا وباطلًا نسبوه إلى البدعة أيضًا»(٤).

---

(١) ينظر: «تلخيص الاستغاثة» (١/ ١٨٢ - ١٨٥).
(٢) ينظر: «التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق» لابن سحمان (صـ ٣٠٨).
(٣) ينظر: «الكشف المبدي» (صـ ٢٦٠)، و«جلاء العينين» (صـ ٤٣٨).
(٤) ينظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٥٤).

الفصل الثالث: موقف المخالفين من الدعوة الإصلاحية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:عداء أهل الكلام لدعوة التوحيد الإصلاحية.

المبحث الثاني:مصير علماء الدعوة الإصلاحية بعد سقوط الدرعية.

المبحث الثالث: نقض دعوى تأثر الجماعات الحركية المعاصرة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

المبحث الأول: عداء أهل الكلام لدعوة التوحيد الإصلاحية

تقدم بيان أن العقيدة الإسلامية الصحيحة قد تعرضتْ في بعض فترات التاريخ إلى كثير من التشويه والتحريف على يد أهل الأهواء والبدع الذين أبعدوها عن نقائها وصفائها، فانحسر أثرها في بعض المجتمعات الإسلامية.

هذا وقد عُرف وتميَّز ما بعد القرن التاسع الهجري إلى القرن الثاني عشر الزمن الذي عاش فيه الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- بالجمود المذهبي والفكري والانحطاط الاجتماعي رغم توافر العلماء في بعض البلاد الإسلامية، ولكن أكثرهم للأسف على عقيدة أهل الكلام وينحون منحى التصوف في السلوك والتعصب المقيت للمذاهب الفقهية، بل وصل الحال أنَّ الحنفي لا يصلي خلف الشافعي؛ لأنه بزعمه شاك في إيمانه، لقوله بجواز الاستثناء في الإيمان في بعض المواضع، بل وصل الحال إلى أنَّ أحدهم يقرر في أحد كُتُبه أنه لا يجوز تزويج الحنفي موليته لأتباع المذهب الشافعي، ويجوز للحنفي أنْ يتزوج من شافعية لأنها بمنزلة أهل الكتاب[(١)]، بل وصل الحال أنهم وضعوا أربع مقامات في الحرم للصلاة، فكل مذهب له إمام يصلي خلفه جماعة من أتباع مذهبه الفقهي، وأبطل الملك الصالح الملك عبد العزيز -رحمه الله- تلك المقامات وتلك البدعة، وجمع الناس خلف إمام واحد، والعصمة في ذلك باتباع ما جاء به القرآن الكريم وبينته السنة الصحيحة والالتزام بطريقة سلف الأمة ومنهجهم، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، فهذا زجر ووعيد لمن اتبع دينًا وطريقةً في التعبد غير الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

المقصود: أن متأخري أهل الكلام وكتبهم ومؤلفاتهم استحوذتْ على عقول كثير من المنتسبين للعلم حتى ساد القول: «إن العدول عن مذهب الأشعري ولو قيد شبر كُفْر، ومباينته ولو بشيءٍ يسير ضلالٌ وخُسرٌ»٢.

قلت: وهذا يفسر إلى حد كبير العداء السافر والهجمة الشرسة والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، ووصل الأمر إلى حد الحكم بكفر أتباع الدعوة الإصلاحية واستباحة دمائهم وأعراضهم

---

(١) ينظر: «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» لابن نجيم (٤٩/٢)، وقد استدرك رحمه الله على هذا القول ثم قال:«فتجوز المناكحة بين الحنفية والشافعية بلا شبهة».

٢ ينظر: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» للغزالي (صـ ٤٦)، وقد نقل الغزاليُّ هذا الكلام عن بعضهم في سياق الذم.

وأموالهم، واستعداء الدولة العثمانية على أهل الدعوة السلفية حتى أرسلتْ الجيوش الجرارة فهدمتْ الدرعية وسبوا النساء والذرية والأطفال، وقتلوا بعض العلماء وهجروا الآخر إلى مصر(١)، وليس بمستغرب محاربة الدعوة السلفية، فقد سبق أنْ حاربوا من يدعوا لمذهب السلف قبل ذلك، والنيل من العلماء، واستعداء السلطة عليهم كما فعلوا بالحافظ عبد الغني المقدسي حين طردوه من البلد، ومن قبله بأبي إسماعيل الهروي صاحب كتاب: «ذم الكلام»، فقد عرضوا عليه السيف خمس مرات وهددوه بالقتل إنْ لمْ يسكت عنهم٢، والذي جرى منهم لشيخ الإسلام ابن تيمية أمرٌ مشهور، حيث تسببوا في نفيه وسجنه وحرق كتبه٣، وكذلك فعلوا بابن القيم٤ وغيره من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية حتى صار بعضهم يخفي عقيدته لأن لا تطاله أيدي هؤلاء بالأذى(٥).

وقبل ذلك حصل لأهل السنة في المغرب الأقصى فتنة عظيمة على يد أهل الكلام ورئيسهم ابن تومرت الأشعري، فقُتِل بعض العلماء وسُجِن البعض، وهرب من استطاع الهرب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن التومرت الذي تلقب بـ:«المهدي» وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة وكان قد دخل إلى بلاد العراق وتعلم طرفًا من العلم وكان فيه طرف من الزهد والعبادة، ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب؛ إلى قوم من البربر وغيرهم: جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واستجاز

---

(١) ينظر: «عجائب الآثار» للجبرتي (٤٠٦/٣)، و«روضة الأفكار» لابن غنام (١٥٧/١-١٥٨).

٢ ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٠٩/١٨).

٣ قال المقريزي رحمه الله-عن ابن تيمية-: «وأكثر مصنّفاته مسوّدات لم تُبَيَّضْ، وأكثرُ ما يوجد منها الآن بأيدي الناس قليل من كثير، فإنّه أُحرقَ منها شيءٌ كثير، ولا قوّة إلاَّ بالله». «المقفى الكبير» (٢٨٤/١).

وقد حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية محن عديدة، حتى قال ابن رجب رحمه الله: «وأما محن الشيخ [يعني:ابن تيمية] فكثيرة، وشرحها يطول جدًّا». «الذيل على طبقات الحنابلة» (٥١٠/٤).

وذكر بعضهم أن المحن لم تزل تتوارد عليه إلى أن توفي رحمه الله، قال ابن سيد الناس اليعمري: «ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة، إلى أن فُوِّض أمره لبعض القضاة فتقلد ما تقلد من اعتقاله، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله». «العقود الدرية» (صـ ١٨).

وقد ذكر بعضَ تلك المحن جملةٌ من المترجمين له. ينظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (صـ ٢٤٩)، و«الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للبزار (صـ ٧٧).

٤ ينظر: «المعجم المختص» للذهبي (صـ ٢٦٩)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي (٨٩/٣).

(٥) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٤٢/١٣)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥٠٩/١٨)، و«الانحرافات العقدية والعملية» لعلي الزهراني (٢٠٧/١، ٦٨).

أن يظهر لهم أنواعًا من المخاريق ليدعوهم بها إلى الدين.. واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة، يقرءون القرآن والحديث؛ كالصحيحين والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة، فزعم أنهم مشبهة مجسمة، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم، واستحل أيضًا أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة لما امتحنوا الناس في «خلافة المأمون» وأظهروا القول بأن القرآن مخلوق وأن الله لا يُرى في الآخرة، ونفوا أن يكون لله علم أو قدرة أو كلام أو مشيئة أو شيء من الصفات القائمة بذاته، وصار كل من وافقهم على هذا التعطيل عصموا دمه وماله وولوه الولايات وأعطوه الرزق من بيت المال وقبلوا شهادته وافتدوه من الأسر ومن لم يوافقهم على أن القرآن مخلوق وما يتبع ذلك من بدعهم قتلوه أو حبسوه أو ضربوه أو منعوه العطاء من بيت المال ولم يولوه ولاية ولم يقبلوا له شهادة ولم يفدوه من الكفار، يقولون: هذا مشبه؛ هذا مجسم»[١].

الحاصل: أن الإمام المصنف عاش في زمن انتشر فيه عقائد أهل الكلام والتصوف في كثير من حواضر العلم، ولن يسلم من ذلك طلاب العلم النجديين الذين أخذوا العلم من العلماء في البلاد المجاورة كالحجاز والأحساء والعراق والشام ومصر، لذا سلكوا المسلك الذي عليه علماء تلك الأقاليم، وهذا كان سببًا رئيسًا في موقفهم من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والعداء والخصومة له.

ومعلوم أن مصدرنا الأساسي في فهم التوحيد وأحكامه ليس هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا غيره، بل مصدرنا هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما أجمع عليه السلف الصالح.

والشيخ وغيره يخطئ ويصيب كما هي سنة الله في الخلق.

والصراع في حقيقته ليس بين الشيخ وأهل الكلام في زمانه فقط، بل هو بين أهل السنة وأتباع السلف وبين أهل الكلام والقبوريين في كل زمان ومكان، ولا يزال الصراع مستمرًا إلى اليوم، وإليك نماذج من أقوال العلماء النجديين الذين عاشوا في زمن الشيخ وما قبله الذين تأثروا بعلم الكلام والتصوف.

فقد كتب أحمد بن عطوة (ت٩٤٨ه) رسالة بعنوان: «طُرَف الطَّرْف في مسألة الصوت والحرف»، فيها في مطلع السؤال أن أقواما من طلاب العلم في

---

١ ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٥-٤٧٩).

نجد يجاهرون بتمشعرهم ويشهدون أن القرآن لا حرف ولا صوت وأن من يقول هو حرف وصوت كافر عندهم(١).

وفي ذلك ما يكشف عن واقع الأثر الكلامي الأشعري على طلاب العلم في نجد.

وكذا ما كتب عثمان بن قايد النجدي (ت١٠٩٧هـ) فهي حافلة بالمآخذ الكلامية، فاستهل رسالته بإيجاب النظر وجعله أول الواجبات على طريقة الأشاعرة والماتريدية فقال: «تجب معرفة الله تعالى شرعًا بالنظر...وهو أول واجب له تعالى»(٢).

والحق أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر في الأدلة الكلامية ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما يقوله أرباب أهل الكلام المذموم.

ومن التقريرات الكلامية في رسالة «نجاة الخلف» أن مؤلفها اقتصر على إثبات الصفات السبع على طريقة الأشاعرة، وكذا استعمل الألفاظ المجملة الموهمة، واستحوذ عليه النفي المفصل(٣)، فقال: «إنه سبحانه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا تحله الحوادث...والله تعالى كان ولا مكان، ثم خلق المكان، وهو على ما عليه قبل خلق المكان»(٤).

وأما عبد الله بن عيسى المويس(٥) المتوفى سنة (١١٧٥هـ) وهو من أشد أعداء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى توحيد الألوهية، فيُلحَظ عليه التشبث بطريقة أهل الكلام والانتصار لهم، فزعم أن مذهب أهل السنة والجماعة هو إثبات الصفات السبع(٦)، وقال في خطب الجمعة: «إن الله ليس بجوهر ولا جسم ولا

---

(١) ينظر: «طُرَف الطَّرْف في مسألة الصوت والحرف» (صـ ٣١).
(٢) ينظر: «نجاة الخلف في اعتقاد السلف» (صـ ٧١-٧٢).
(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، قال أهل اللغة: (هل تعلم له سميًّا) أي: نظيرًا يستحق مثل اسمه، ويقال مساميًا يساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثلًا أو شبيهًا». «التدمرية» (صـ ٨).
(٤) ينظر: المصدر السابق (صـ ٧٢).
(٥) أشار الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى إجازات عبد الله المويس من عند مشايخه، وأن شيخ مشايخه عبد الغني -النابلسي-، ويثنون عليه في أوراقهم ويسمونه العارف بالله، وهذا اشتُهر عنه أنه على دين ابن عربي الذي ذكره العلماء أنه أكفر من فرعون، وحكى الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن المويس وأصحابه رحلوا وتركوا أموالهم وأهليهم لأجل الذود عن قباب الشرك وأضرحة الوثنية والتحريض على دعاة التوحيد واستحلال دمائهم وأموالهم. ينظر: «تاريخ ابن غنام» (١٠٣/٢)، و«مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٢٧/٥، ٢٠٥-٢٠٦).
(٦) ينظر: «تاريخ ابن غنام» (٩٩/١).

عرض»[١].

ومما يؤكد النزعة الكلامية الجامحة لدى عبد الله المويس حُنقُه على الدعوة الإصلاحية وإعراضه عن توحيد العبادة، فلَم يرفع بذلك رأسا، بل كان يتهكم بهذا التوحيد، وزعم أن تعليم معنى (لا إله إلا الله) بدعة.

ومن علماء نجد الذين تأثروا بعلم الكلام الشيخ محمد بن عباد المتوفى سنة (١١٧٥هـ) من ذلك قوله: «أول واجب على كل ذكر وأنثى النظر في الوجود»[٢].

وقد حصر ابن عباد الإيمان بالتصديق[٣]، فقال: «الإيمان هو التصديق الجازم بما أتى به الرسول ﷺ»[٤].

وكذلك يُلحَظ الأثر الكلامي عند سليمان بن سحيم المتوفى سنة (١١٨١هـ)[٥].

ويقرر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجود متصوفة اتحادية، فيقول: «وكذلك أيضًا من أعظم الناس ضلالًا متصوفة معكال[٦] وغيره مثل ولد موسى بن جوعان وسلامة بن مانع....وغيرهما يتبعون مذهب ابن عربي من أئمة أهل المذهب الاتحادية، وهم أغلظ من اليهود والنصارى»[٧].

كما يوجد في بلدة حرمة في إقليم سدير قوم يمارسون دجل التصوف من الضرب على الحديد والقفز على السطوح٨.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (٩٧/١).
(٢) ينظر: «روضة الأفكار» لابن غنام (١٠٤/١).
(٣) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الإيمان في اللغة ليس التصديق فحسب، يقول رحمه الله: «الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة ... فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة». «الصارم المسلول» (٩٦٧/٣)، وعلل ذلك -رحمه الله تعالى- بأن الإيمان ليس مرادفًا للتصديق في المعنى فقال رَحِمَهُ اللهُ: «فمن قال: السماء فوقنا. قيل له: صدق، كما يقال: كذب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت أنه يقال: آمناه. كما يقال: صدقناه؛ ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم؛ يقال: صدقناهم؛ وما يقال آمنا لهم؛ فإن الإيمان مشتق من الأمن». «مجموع الفتاوى» (٢٩١/٧).
وما ذكره شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللهُ- قول وجيه؛ «لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديتها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فتقول مثلًا: صدقته، ولا تقول: آمنته، بل تقول: آمنت به. أو: آمنت له. فلا يمكن أن نفسر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعدٍّ ينصب المفعول به بنفسه». «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٢٣٠/٢).
(٤) ينظر: المصدر السابق (١٠٤/١).
(٥) ينظر: «مسائل الاعتقاد عند علماء نجد قبل الدعوة الإصلاحية» (صـ ٧٦).
(٦) معكال: بلدة من بلدات الرياض القديمة.
(٧) ينظر: «مجموعة مؤلفات الشيخ» (١٨٩/٥).
٨ ينظر: «مجموعة الرسائل النجدية» (٥٢٣/١).

المقصود: أن بعض علماء نجد قد تأثروا بعلم الكلام والتصوف، بل هو واقع ومتحقق، وكان ذلك سببًا رئيسيًّا في موقفهم من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، فدعوته قائمة على أصلين كبيرين: (ألا نعبد إلا الله)، و(ألا نعبده إلا بما شرعه المصطفى ﷺ)، فأهل الكلام أفسدوا الأصل الأول، فحصروا التوحيد في توحيد الاعتقاد، وأهملوا توحيد العمل، وفسَّروا آيات الألوهية بالربوبية، وجعلوا الإلهية معناه الخلق والقدرة على الاختراع، وأهل التصوف أفسدوا الأصل الثاني، فجعلوا التعبد وفق عوائدهم وأذواقهم وأحوالهم.

وهذه الدعوة الإصلاحية تحقِّق هذين الأصلين، والله أعلم.

خلاصة ما سبق تبين لنا ما يلي:

أولًا: الزمن الذي عاش فيه الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو سيطرة الدولة العثمانية على كثير من البلاد الإسلامية، وهي تشجع علم الكلام والتصوف فمدت يد العون للصوفية وتركت مشايخ الطرق يمارسون نشاطهم في صفوف الناس، بل كان في السلاطين العثمانيين أنفسهم من عنده نزعة تصوف، وكذلك تدعم الاتجاه الكلامي الماتريدي والأشعري، وتقصي الاتجاهات الأخرى، فليس بمستغرب وجود بعض الجماعات التي تعتنق التصوف وعلم الكلام في نجد، وأشار الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى بعض مظاهر التصوف في قريتين، في قرية معكال وقرية حرمة، وأشار الشيخ إلى أن مطوع الرياض ابن سحيم يحضر المولد، فكاتبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب مناصحا له فقال: «إنك تقول: إني أعرف التوحيد وتقر أن من جعل الصالحين وسائط فهو كافر، والناس يشهدون عليك إنك تروح للمولد فتقرأ لهم، وتحضرهم، وهم ينخون ويندبون مشايخهم ويطلبون منهم الغوث والمدد، وتأكل من الطعام المعد لذلك، فإذا كنتَ تعرف أن هذا كفرٌ فكيف تروح لهم وتعاونهم عليه؟!»[(١)].

ثانيًا: أن الصراع بين الاتجاه الكلامي والاتجاه السلفي قديم منذ ظهور الفرق الكلامية، ويستمر إلى يومنا هذا، وما حصل للدعوة الإصلاحية من الإقصاء والتشويه ورميها بعظائم الأمور مما ليس فيها؛ ما هي إلا محاولة لاستئصال شَأْفة الدعوة، وحصل مثل ذلك على أيدي أهل الكلام في زمن الإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية، وكل من دعا إلى مذهب السلف، فليس هذا إلا صورة من صور الصراع بين الاتجاهين.

ثالثًا: تأثر بعض علماء نجد قبل الدعوة الإصلاحية وفي أثنائها بمشايخهم

---

(١) ينظر: «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٥/٢٢٧).

الذين أخذوا عنهم العلم في بعض البلاد وخاصة تأثرهم بحنابلة أهل الشام، إذ إن بعضًا منهم على طريقة أهل الكلام والتصوف.

رابعًا: أن أهل الكلام من الأشاعرة والماتريدية جانبوا الصواب وانحرفوا عن الجادة الحق وفسروا المصطلحات الشرعية كالإيمان والتوحيد والشرك والكفر بما هم عليه من الاعتقادات الكلامية، تأثرًا بالتجهم والإرجاء، فاقتصروا على الجانب الاعتقادي في تفسير تلك المصطلحات العلمية، وأهملوا الجانب العملي.

خامسًا: أن بعض أهل الكلام كاتبوا السلطات العثمانية يستحثونها على استئصال الدعوة الإصلاحية، فبلغ من كيد ابن فيروز -وهو ذو مشرب صوفي- أنه قال عنه صاحب السحب الوابلة: «كاتب السّلطان عبد الحميد خان كان يستنجده على قتال البغاة الخارجين بنجد»[١]، فلَم يكتف كغيره بالرد والكتابة على الدعوة الإصلاحية كغيره من المناوئين، بل دعاه حقده وحسده إلى حمل لواء تأليب السلطان العثماني وحثه على مقاومة أصحاب الدعوة الإصلاحية، وسعى في ذلك كثير من الجالين من أهل نجد.

قال ابن بشر في «تاريخه»[٢]: «وسعى في ذلك كثير من الجالين من أهل نجد في الزبير والبحرين والكويت وغيرهم، وكاتبوا باشا بغداد، وحرضوه وزيَّنوا له ذلك، وكاتبه كثيرون من الرؤساء والعلماء، سيِّما محمد بن فيروز».

سادسًا: من صور الصراع محاولة استئصال الدعوة الإصلاحية بتشويهها واتهامهما بما ليس فيها، مثل: أنهم خوارج، وأنهم أتوا بمذهب جديد، ثم استعدوا السلطات العثمانية فسيرت الجيوش، حتى شارك في هذا الجيش من النصارى، ومدوهم بالأسلحة الحديثة التي لا يعرفها أصحاب الدعوة الإصلاحية، فغدروا وقتلوا بعض العلماء وهجروا البعض الآخر، وهدموا الدرعية، وحرقوا النخيل، وأفسدوا في الأرض.

---

(١) ينظر: «السحب الوابلة» (٩٧٣/٣).
(٢) ينظر: «تاريخ ابن بشر» (٢١٨/١-٢٢٥).

المبحث الثاني: مصير علماء الدعوة الإصلاحية بعد سقوط الدرعية

تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب عدد كبير من طلاب العلم الذين نشروا التوحيد والسنة وأحيوا مذهب السلف، ونشروا الدعوة السلفية في نجد خاصة وفي الأقاليم والبلاد المجاورة، وأعقب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ستة أولاد صالحين نجباء طلبوا العلم ونبغوا فيه، وساروا على طريقة والدهم في نشر التوحيد والسنة وإحياء مذهب السلف الصالح، وهم ستة ذكور وأربع إناث، وهم حسن وحسين وعلي وعبد العزيز وإبراهيم وعبد الله، مات ثلاثة منهم في مصر، وهم إبراهيم وعلي وعبد الله، أما عبد الله فتوفي في مصر سنة (١٢٤٤هـ)، وأنجب أبناء بررة علماء، وهم سليمان وقتله إبراهيم باشا في الدرعية، وعلي بن عبد الله قُتِل فيما بعد على يد عساكر الترك في نجد، وأما عبد الرحمن بن عبد الله فكان صغيرًا فرُحل مع أبيه إلى مصر وتعلم في الجامع الأزهر، ثم درَّس برواق الحنابلة في الجامع الأزهر وتوفي سنة (١٢٧٣هـ).

قال ابن بشر في «تاريخه» عندما ذكر أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعدَّد فضائل كل منهم حتى أتى على ذكر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقال ما نصه: «وكان آية في العلم ومعرفة فنونه»، ثم قال: «وكان لعبد الله ابن اسمه عبد الرحمن جَلَى معه إلى مصر وهو صغير، ويُذكَر لي أنه اليوم في رواق الحنابلة، وعنده طلبة العلم، وله معرفة تامة»[١].

ومن الذين هربوا من أحفاد الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الشيخ علي بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأخوه الشيخ عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفاطمة بنت الشيخ محمد بن عبد الوهاب هربوا إلى قطر ثم إلى رأس الخيمة في الإمارات، وكذلك هرب بعض العلماء الذين سلِموا من القتل ومن أبرزهم عبد العزيز بن معمر إلى البحرين، وقضى فيها بقية حياته حتى وفاته سنة (١٢٤٤هـ).

ومن العلماء الذين رحلوا إلى رأس الخيمة أحمد بن سرحان والشيخ إبراهيم بن سيف، والشيخ إبراهيم الوهيبي، ومن الذين هربوا من أسرة آل سعود كلٌ من مشاري بن ناصر وحسن بن محمد بن مشاري واستُقبِلوا من الأهالي ومن حكام رأس الخيمة أحسن استقبال[٢].

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن بشر» (١٠٣/١).
(٢) ينظر: «عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان»، تأليف: عبد الله المطوع (صـ ١١٧)، و«مشاهير علماء نجد» (صـ ١٧٢)، و«نساءٌ شهيرات في نجد» (صـ ١١٠-١١١).

أما الأحفاد الذين رحّلوا إلى مصر فأبرزهم عبد الرحمن بن عبد الله والذي تقدم الحديث عنه، وعبد الرحمن بن حسن المجدد الثاني فمكث ثماني سنوات في مصر واستطاع الرجوع إلى نجد، وكذلك ابنه عبد اللطيف مكث في مصر ثلاثين سنة ورجع إلى نجد.

جاء في كتاب «مشاهير علماء نجد»: «ولم يزل المترجم له الشيخ عبدالرحمن بن حسن مقيمًا بمصر ينهل العلوم ويتزود من الفنون إلى أنْ رد الله الكرة لأهل نجد على يد الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود فاستعاد نجدًا وطهرها من جميع الغزاة وأرجعها إلى الحكم السعودي مرة ثانية، وذلك سنة (١٢٤٠هـ) فعند ذلك كتب للشيخ عبد الرحمن يستحثه في القدوم عليه من مصر، فحقق الشيخ رغبته وقدِم عليه بعد ولايته بسنة (١٢٤١هـ) ففرح بمقدمه الإمام تركي بن عبد الله وأكرمه غاية الإكرام، فقام الشيخ عبد الرحمن بمؤازرة الإمام تركي خير قيام، فاستعان به الإمام تركي على تأسيس دولةٍ إسلامية ونشر الدعوة السلفية أصلح الله به ما أفسدته تلك العساكر العثمانية فأعادتْ إلى أهل نجد ما افتقدوه من الروح الدينية والقوة المعنوية فاستقر الأمن وساد النظام والعدل»(١).

هذا وقد عاصر الشيخ عبد الرحمن بن حسن ستة من الحكام، ثلاثة من الدولة السعودية الأولى، وهم: الإمام عبد العزيز بن محمد، والإمام سعود بن عبد العزيز، والإمام عبد الله بن سعود في عهد الدولة السعودية الأولى، أما في عهد الدولة الثانية فقد أدرك ثلاثة من الأئمة، وهم: الإمام تركي بن عبد الله، والإمام فيصل بن تركي، والإمام عبد الله بن فيصل، وكانت حياته حافلة بالنشاط في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والتدريس والقضاء والإفتاء، وخلَّف مؤلفات وكتب ورسائل في الرد على المخالفين، وأما ابنه عبد اللطيف فقد مكث في مصر مدة طويلة بعد خروج والده، حيث لم يقدم إلى نجد إلا سنة (١٢٦٤هـ) طلب العلم ونهل مثل والده من علماء الأزهر قبل أنْ يلحق بأبيه ويكون ساعده الأيمن بعد أنْ تقدم به السن، ثم خلفه بعد وفاته في نشر دعوة التوحيد والسنة والعلم والإفتاء والتدريس(٢)

ويصف المؤرخ المصري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي حال من رحّلوا إلى مصر، فيقول: «لما دخلوا الجامع -الأزهر- سألوا عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه، فقيل: انقرضوا من أرض مصر بالكلية واشتريا نُسُخاً من كتب التفسير والحديث مثل الخازن والكشاف والبغوي والكتب

---

(١) ينظر: «مشاهير علماء نجد» (صـ ٨٠)
(٢) ينظر: «كتاب علماء نجد» (٦٣/١).

الستة المجمع على صحتها وغير ذلك»، ويقول الجبرتي أنه بعد ذلك اجتمع بهم مرتين: «فوجدتُ منهما أُنْساً وتضلعاً ومعرفةً بالأخبار والنوادر ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحُسن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف، واسم أحدهما: عبد الله، والآخر عبد العزيز، وهو الأكبر حسًّا ومعنى»، وقال كذلك: «وجاء بواقي الوهابية بحريمهم وأولادهم وهم نحو الأربعمائة نسمة أُسكِنوا بالقشلة التي في الأوزبكية، وابن عبد الله بن سعود بدارٍ عند جامع مسكة وخواصه من غير حرج عليه وطفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ويمشون في الأسواق ويشترون البضائع والاحتياجات»، وقال كذلك في تاريخه: «وفي جمادى الأولى سنة (١٢٣٤هـ) وصلتْ الأخبار أيضًا عن عبد الله بن سعود أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به البلدة وقتلوه عند باب (همايون) وقتلوا أتباعه أيضًا في نواحٍ متفرقة مع الشهداء -بإذن الله-»[١].

وهناك حادثة حصلتْ في الدولة السعودية الثانية تصف حال الإمام فيصل بن تركي بعد استسلامه في الرياض ثم ترحيله إلى مصر وما كان عليه من الاستقامة على السنة والتهجد والعبادة فقال: «فوصلوا إلى المدينة وأنزلوه في بيتٍ وجعلوا عنده حراسًا يحفظونه، وصار في مكانه ذلك يُحيي أغلب الليل بالتهجد والصلاة وفي نهاره بين صلاةٍ وتلاوة القرآن، وكان يتردد كثيرًا من أهل مصر إليه إذا كان في أحدٍ منهم ألم وحمى وغير ذلك، يأتونه يقرأ عليهم، فكانوا يرون أثر الشفاء من قراءته ودعاءه، ومن أجل ذلك ازداد عندهم تكريمًا وتعظيمًا، وذُكِر لي أنه لما خرج من مصر في هذه المرة أنهم يترددون إلى مكانه حيث كان يعيش يستشفون ويتبركون»[٢].

قال صاحب كتاب «السعوديون والحل الإسلامي»: «صحيح أن التبرك بالجدران التي كان يسكنها يتعارض مع الإسلام وما يعنينا هو مغزى هذا السلوك، فعامة البلد يؤمنون ببركته... وصحة دين، بل وقدسية وولاية خصوم واليهم -محمد علي باشا- الذي يدَّعي محاربتهم لأنهم خوارج»[٣].

هذا حال علماء الدعوة الذين رحّلوا إلى مصر، وأما حال الجيش العثماني التركي وما عليه من الفجور وفِعل الفواحش والمنكرات فقد تقدم ذِكر كلام الجبرتي في وصفهم، ولا مانع من إعادته مرة أخرى لأهميته.

---

(١) ينظر: «تاريخ الجبرتي» (٣/٦٠٠).
(٢) ينظر كتاب: «السعوديون والحل الإسلامي» (صـ ١٨٥، ١٨٩)، و«تاريخ الجبرتي» (٣/٣٤١، ٦٠٠).
(٣) ينظر: الموطن السابق.

قال المؤرخ المصري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي: «ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع: أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبًا وصحبتنا صناديق المسكرات، ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، والقومُ[1] إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب، وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون، المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، ، والأكلين الربا القاتلين الأنفس المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غُلْفًا غير مختونين.

ولما وصلوا بدرًا، واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم والصلحاء نهبوهم وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون: هؤلاء الكفار الخوارج! حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له: «حتى تبيت معي هذه الليلة، وأعطيها لك الغد»[2].

الحاصل أن إبراهيم باشا ارتكب جرائم في حق علماء الدعوة الإصلاحية والأعيان، فقد قتل جماعة من العلماء والأعيان صبرًا بالبنادق، وجعل بعضهم في فوهة المدفع فتمزقت أجسادهم إرباً[3].

ثم جاء الأمر من محمد علي باشا سنة (١٢٤٣هـ) بهدم الدرعية وتدميرها وقطع نخيلها وأشجارها وأنْ لا يرحموا صغيرها ولا كبيرها، ثم أشعلوا النيران في بيوتها[4].

«فتركوها خالية المساكن، كأنْ لمْ يكنْ فيها من قديم ساكن وتفرق أهلها في النواحي والبلدان»[5].

---

(١) يقصد: أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.
(٢) ينظر: «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي (٣/٣٤١).
(٣) ينظر: «تاريخ ابن بشر» (١/٤٢١، ٤٢٤).
(٤) ينظر: المصدر السابق (١/٤٢٦، ٤٣٦).
(٥) ينظر: المصدر السابق (١/٤٣١).

«ثم قتلوا فئام من رؤساء وأعيان نجد سنة (١٢٣٤هـ)[١]، وأما أهل الدرعية الذين سلموا من القتل والمنكوبين بفقد قرابتهم وتدمير بلادهم فقد هرب منهم إلى ثرمداء، فخدعهم الأتراك سنة (١٢٣٦هـ)، فنادى أولئك الترك بأنهم سينقلونهم إلى البلاد الذين يرغبون بالرحيل إليها، فلما اجتمعوا أعمل الأتراك فيهم القتل حتى أفنوهم جميعًا، وهم نحو مائتين وثلاثين رجل»[٢].

وفور الاستيلاء على الدرعية أرسلت بريطانيا مبعوثها (جورج فورستر سادلير) ليهنئ إبراهيم باشا على انتصاره، وبعث شاه العجم وملك الرافضة في إيران رسالة إلى محمد علي باشا يعبر فيها عن فرحته الشديدة وبعث إليه بسيف من حديد توارثه ملوك الرافضة وخاتما من فيروز[٣].

وأحب أنْ أختم هذا المبحث بقصيدة أنشأها الشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر في رثاء الدرعية تسمى عند علماء الدرعية (الطنانة) أبكتْ الناس وهي تصور بطش إبراهيم باشا وجنوده، فقال رحمه الله:

وكم قتلوا من عُصْبة الحق فتية هداة وضاة ساجدين وركعا
وكم دمروا مِن مَرْبَع كان آهلًا فقد تركوا الدار الأنيسة بلقعا
فأصبحت الأموال فيهم نهائبا وأصبحتِ الأيتام غرثى وجُوَّعا
وفُرِّق الإخوان من كان قاطنا وفُرّقَ إلْفٌ كان مجتمعا معاً[٤]

ثم دعا الناس إلى الصبر على قضاء الله، ونبذ اليأس وانتظار الفرج، يقول:

ألا أيها الإخوان صبرًا فإنني أرى الصبر للمقدور خيرًا وأنفعا
ولا تيأسوا من كشف ما ناب إنه إذا شاء ربي كَشْفَ ذاك تمزعا
عسى وعسى أن ينصر الله ديننا ويجبر منا اليوم ما قد تصدعا
ويعمر للسمحا ربوعًا تهدمت ويفتح سبلًا للهداية مهيعا[٥]

وقد تحقق ما تمناه الناظم الشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر على يد الإمام تركي بن عبد الله -مؤسس الدولة السعودية الثانية- والشيخ عبد الرحمن بن حسن -المجدد الثاني للدعوة السلفية- فبعد تأسيس الدولة استقر الأمن وساد النظام والعدل

---

(١) ينظر: المصدر السابق (٤٣٧/١).
(٢) ينظر: المصدر السابق (٤٥٣/١).
(٣) ينظر: «خواطر حول الوهابية» (صـ ٦١).
(٤) ينظر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» (٢٧/٢).
(٥) ينظر: المصدر السابق (٣٧/٢-٣٨).

وانتشرتْ الدعوة السلفية، وأصلح الله بهما ما أفسدته تلك العساكر العثمانية، فأعادتْ إلى أهل نجد ما افتقدوه من الروح الدينية والقوة المعنوية، والحمد لله أولًا وآخرًا.

المبحث الثالث: نقض دعوى تأثر الجماعات الحركية المعاصرة بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله-:

إن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قامت على منهاج النبوة، فبدأ بما بدأ به النبي ﷺ ألا وهو الدعوة إلى لا إله إلا الله والدعوة إلى توحيد العبادة، ونفي الشرك والتحذير من صوره وذرائعه، وعقِب مدة من الزمن بعد جهاد طويل ومجادلة باللسان ومجادلة بالسنان تحقق التمكين لهذه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١]، وتحققت الحياة الطيبة في الجزيرة العربية فعم الأمن والطمانينة والسكينة وغلب الرخاء وازدهر الرزق ونما الاقتصاد، فتحقق قول الله تعالى: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ [قريش: ٤].

وفي هذا الوقت الحاضر تكالب على هذه الدعوة الإصلاحية الصليبيون والضالون الغلاة من الروافض والصوفية والفرق الباطنية، ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر تزايد المكر تجاه هذه الدعوة الإصلاحية، وتضاعف الكيد والنقمة لأصول هذه الدعوة وقواعدها، ولحق بعض فئامٍ من الناس من المنتسبين للسنة الخذلان لهذه الدعوة، ودعا بعضهم إلى تهذيب الدعوة الإصلاحية وتطويعها، وصارتْ محاسن الدعوة الإصلاحية محل طعن وانتقاد في نظرهم؛ لأجل محاربتها للشرك والبدع، وللأسف شهدتْ بعض الدول الإسلامية «فتناً وقلاقل واضطرابات نتيجة ثورات ما يسمى الربيع العربي، وهي في الحقيقة الخراب العبري والخريف الغربي، وأدتْ تلك الأحوال إلى تنامي ظاهرة العنف والتطرف والإرهاب، فسفكت الدماء، وقطعت الرؤوس، وانتهكت الأعراض، وروّع الآمنون، وشرد الملايين، وخرب العمران، وعادت ظاهرة العمليات الانتحارية إلى قوتها لتضرب الدول الآمنة - أيضًا - وتفجر في المساجد والمعابد والأماكن العامة في دار الإسلام وخارجه، وقد تنامت مع هذه الظاهرة: ظاهرة الإساءة الإعلامية والدعائية، فنشط المتطرفون والمتعصبون من غير المسلمين في التشويه والتحريض والاتهامات الباطلة ضد الإسلام والمسلمين عمومًا وضد الدعوات الإصلاحية خصوصًا، ووافقهم المبتدعةُ والضُّلال من المسلمين - ومن المنتسبين إلى الإسلام-؛ في الشقِّ الثاني، حيث عملوا - جميعًا - على تشويه الدعوات الإصلاحية والتنفير منها، والتحريض ضدها، من خلال الكذب والتزوير وقلب الحقائق العلمية، وتصيد الأخطاء والعثرات الجزئية التفصيلية.

لقد كان الحظ الأوفر من ظلمهم وبغيهم إنما هو على الدعوة التجديدية الإصلاحية التي قادها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله، وذلك لما لهذه الدعوة من أهمية وتأثير في العالم الإسلامي كله، وهي نقطة تحول مهمة في التاريخ الإسلامي، فهو فجر العصر الإسلامي الحديث، بتجديد نابع من القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح، انطلق من قلب الجزيرة العربية، قبل أن تطأ بلاد الشرق قدمُ محتلٍّ أجنبي، وقبل أن تزحف الفكرة الغربية على أذهان المسلمين، فكانت دعوةً نابعةً من حقائق الإسلام، ممثلة لجوهره وروحه، متميزة في زمانها ومكانها.

فلا عجب - بعد هذا - أن تجتمع عليها سهام أعداء الدين والملة، ويشاركهم في ذلك القبوريون والخرافيون والبدعيون الذين يعلمون أن الدعوة الإصلاحية تكشف زيف باطلهم، وتقطع الطريق عليهم لإفساد عقائد المسلمين وعباداتهم وتضيع عليهم المكاسب الدنيوية التي ينالونها بتضليل العامة واستغلال عاطفتهم الدينية.

ولا عجب - أيضًا - أن توجه تلك السهام إلى دولة التوحيد والسنة: «المملكة العربية السعودية»، فهي تمثل نجاح تلك الدعوة الإصلاحية، فبجهاد آل سعود الأمجاد وبتضحياتهم، وصدقهم في حمل الأمانة، ووفائهم لها؛ قامت للدعوة دولة، وحّدت الجزيرة العربية، وحققت الأمن والاستقرار وخدمت الحرمين الشريفين، وأقامت شعائر الله تعالى واستطاعت أن تواكب العصر في التجديد والتحديث والنهضة العمرانية والاستجابة للمتغيرات السياسية والاجتماعية في إطار المحافظة على عقيدتها ودينها.

إن مثل هذه المقارنة يظهر بطلانها وينكشف زيفها عند أدنى قراءة علمية منصفة لعقائد الطائفتين ومناهجهما وأعمالهما وآثارهما، وهذه إشارة إلى جوانب منها:

أولًا: الفارق الأهم في البواعث والمقاصد والغايات: فالدعوات الإصلاحية تنطلق من بواعث دينية صرفة؛ تجلية لحقائق الدين، وبيانا لشرائعه وأحكامه، وتصفيةً له مما علق به من البدع والخرافات، أداءً لواجب تبليغ الرسالة، وإقامة الحجة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقصدها وغايتها في ذلك: إقامة العبودية لله عز وجل، وتحقيق الاتباع لرسوله ﷺ، للفوز بمرضاة الله تعالى، ودخول الجنة والنجاة من النار؛ لهذا فإن هذه الدعوات لا تخوض في شؤون الدولة والسلطة والسياسة إلا بمقدار ما تقتضيه تلك الأحكام الشرعية بضوابطها المعروفة في «السياسة الشرعية»، وهي سياسة مصلحية غائية بالدرجة الأولى؛

إذ يقصد بها: «ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»(١)، في أمر دينهم أولًا، ثم في أمر دنياهم ثانيًا؛ لهذا كان من خصائص الدعوة الإصلاحية لزوم جماعة المسلمين وطاعة ولاة أمرهم، وعدم الدعوة إلى الثورة والخروج على الحكام، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أكثر العلماء تقريرًا لهذا الأصل، وحثًّا على لزومه(٢).

والشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يطلب السلطة لنفسه، بل تحالف مع السلطة الشرعية التي كانت قائمة في العيينة، ثم في الدرعية حيث كان حاكمها الأمير محمد بن سعود الذي قَبِل الدعوة، وعاهد الشيخ على نصرتها، فلما مكّن الله تعالى للدعوة، وصارت لها دولة قوية؛ لم ينقلب الشيخ عليها، ولم يطلب الملك لنفسه وذريته، بل لما مات الأمير محمد بن سعود بويع لابنه عبد العزيز من قبل الخاص والعام، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ نفسه ـ: رأس ذلك النظام، والمحكم للعقد والإبرام، وكان يتلو عليهم إحكامًا وموعظة وتعليمًا : **﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [الفتح:١٠]»٣.

فكان الشيخ خير مثال للعالم الرباني المصلح الذي يعمل لخدمة دينه وأمته، لا يبتغي بذلك مكاسب مادية، ولا مغالبة على الدنيا.

أما الحركات الإرهابية الهدامة فلها وجهة أخرى؛ فإنها خرجت من رحم الحركة الإسلامية المعاصرة، لهذا تدين لها بالمرجعية العلمية والفكرية والولاء والانتماء الحركي والحزبي واتحاد البواعث والمقاصد التي تحدّدُها نظرية التفسير السياسي للإسلام وخلاصتها: أن الغاية من العبادة والدين والشريعة: عمارة الأرض، وإقامة الدولة والتغلب على السلطة والقوة، فهي الغاية والباعث الكلي على الحركة والعمل، والتدين بالعبادات والشرائع إنما هي وسائل وأدوات لتربية النفس وتهيئتها للوصول إلى تلك الغاية، ومن هنا فإن الشعائر التعبدية المحضة ـ ورأسها وأهمها عند جميع المسلمين الصلاة والزكاة والصيام والحج ـ لا تستغرق مدلول العبادة بل إنَّها تجيء بالتبعية لا بالأصالة!(٤)، حيث تحتل الغاية الدنيوية في التغلب على السلطة وإقامة الدولة مكانة الأصالة والمركزية في مفهوم العبادة والدين والشريعة.

إذا تبين هذا فإنَّ إلحاق حركات وجماعات العنف والإرهاب بالدعوات

---

(١) قاله أبو الوفا ابن عقيل الحنبلي، ونقله ابن القيم في «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» (صـ ١٢).
(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/٥٣)، و(١٤/٤٧٢)، و«منهاج السنة النبوية» (١/٥٥٠).
٣ ينظر: «روضة الأفكار والأفهام» لابن غنام (٢/٧٧٩ـ٧٨٠).
(٤) قاله سيد قطب في «ظلال القرآن» (٤/١٩٠٢).

الإصلاحية، وتكلُّف مقارنة بينهما؛ في غاية السُّخف والتفاهة.

ثانيًا: الفارق في صفة القائمين على تلك الدعوات والحركات: ففي الدعوة الإصلاحية نتحدث عن ابن تيمية الذين تتابع العلماء على اختلاف أمصارهم وأعصارهم على الثناء عليه، والاعتراف بعلمه وفضله، ووصفوه بألقاب الفخامة والتبجيل وأشهرها على الإطلاق: «شيخ الإسلام»، وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ الذي طبقت فضائله الآفاق، وأثنى عليه أفاضل العلماء والمؤرخين والباحثين ووصفوه بالإمامة والتجديد لدعوة التوحيد.

هؤلاء العلماء - وأمثالهم من المصلحين - عُرفوا بين الناس بعنايتهم بالعلوم الشرعية تعلُّمًا وتعليمًا، وبحثًا وتأليفًا، وبسيرتهم واتصالهم بمجتمعاتهم وتأثيرهم فيها.

فإذا جئنا إلى رؤوس الحركات الإرهابية الهدامة؛ فلا نرى إلا مجاهيل ونكرات وملثمين هم أبعد الناس عن العلم الشرعي وأهله وحملته، وإن كان فيهم صاحب فكر وقلم؛ فهو أجنبي عن الشريعة الربانية، متلوث بالأفكار الفلسفية والعصرية الشرقية والغربية، والقليل النادر فيهم من المنتسبين إلى العلم والفقه أصحاب شذوذات ومنكرات في الاعتقاد والقول والعمل، فلا تجد فيهم من له في الأمة قدم صدق في نصرة التوحيد واتباع السنة والاستقامة في الأمر. فكيف تصح المقارنة بين الطائفتين؟! وأنّى للعاقل المنصف أن يلحق أهل الجهل والنقص والفساد بأهل العلم والكمال والصلاح ؟!

ثالثًا: الفارق في نتائج وآثار تلك الدعوات والحركات: أما الدعوات الإصلاحية فآثارها مباركة طيبة على اعتقادات المسلمين وعباداتهم وسلوكهم وأخلاقهم، ولولا أنَّ الله تعالى قد كتب لدينه الحفظ والظهور، وسخَّر لذلك أسبابًا كونية ودينية، ومنها: أن «جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم؛ يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى»[١]؛ لحرف دين الإسلام وتغيرت ثوابته وانطمست معالمه وضاعت حقائقه كما حصل مع الأمم السابقة.

لقد عملت الدعوات الإصلاحية على تجديد معالم الدين، وإحياء حقائقه في النفوس، فدبَّت فيها روح العلم والطمأنينة والحماسة والنشاط بعد أن استحكمت فيها أمراض الجهالة والشك والارتياب والخمول والإعراض بسبب تراكم البدع، وتتابع الخرافات، وتحوُّل الدين إلى ممارسات اجتماعية مقيتة وكهنوتية خادعة

(١) من كلام الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مقدمة كتابه: «الرد على الجهمية والزنادقة» (صـ ٥٥).

بيد دهاقنة التصوف والشعوذة والدجل. فإذا قرأ الإنسان هذه الحقائق التاريخية التي أثبتها عشرات الباحثين على وجه التفصيل، من خلال آلاف النصوص والأدلة والشواهد؛ كيف - بعد ذلك - أن يقارن بتلك الدعوات الإصلاحية؛ الحركات السياسية الإرهابية الهدّامة التي فجرت الصراعات والفتن في المجتمعات المسلمة، وبسبب توجهاتها وأعمالها سفكت الدماء، وانتهكت الأعراض ودُمِّر العمران وانشغل المسلمون بأنفسهم، وتسلط عليهم أعداؤهم وتشوَّهت صورة دينهم، واستغل المغرضون ذلك في التحريض عليهم والإساءة إليهم، وصد الناس عن دين الله الحقِّ؟! **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** [الزمر:٩]، **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾** [غافر:٥٨].

رابعًا: الفارق في الأخطاء والتجاوزات: فلا شك أن كل جهد بشري لا يخلو من النقص والعيب، فلا عجب أن يقع أصحاب الدعوات الإصلاحية وأتباعها في قليل أو كثير من الأخطاء في التصور أو التصرُّف، ويشفع لهم في ذلك أن أخطاءهم أو إساءاتهم ليست دينا يدينون الله تعالى به، ولا منهجا يسيرون عليه؛ إذن لما قامت لهم قائمة، ولا طاب لهم أثر، بخلاف الحركات الإرهابية التي تتخذ الغلو والتطرف والعنف والاستخفاف بالأرواح والأموال منهجًا وسلوكًا، بل لم تُعرف وتشتهر إلا بالممارسات الإجرامية والسلوكيات المشينة.

الأمر نفسه ينطبق على جماعة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي لم تخلُ من متحمسين ومتشددين، صدرت منهم تجاوزات وإساءات، خاصة في ميادين الحرب والمواجهة، وكان الإمام نفسه، وعلماء الجماعة من بعده يحرصون على نصيحتهم وتوجيههم، وضبط حماستهم، والأخذ على أيديهم إن تجاوزوا الحد في تصرفاتهم، وهذا ما بينه الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عندما دخلوا مكَّة سنة (١٢١٨هـ)، واجتمعوا بعلمائها، وشرحوا لهم مبادئ دعوتهم، وأجابوا على بعض الإشكالات منها تجاوزات أتباعهم، فقال الشيخ عبد الله:

«وما اتفق لبعض البدو في إتلاف بعض كتب أهل الطائف إنما صدر منه لجهله، وقد زُجر هو وغيره عن مثل ذلك»، وقال: «ومما نحن عليه أنا لا نرى سبي العرب، ولم نفعله ولم نقاتل غيرهم ولا نرى قتل النساء والصبيان»، وفي هذه الرسالة نفسها يذكر الشيخ صفة دخولهم مكة، فيقول: «ومن حين دخل الجُنْدُ الحَرَمَ، وهم على كثرتهم مضبوطون متأدبون، لم يعضدوا به شجرًا، ولم ينفروا صيدا، ولم يريقوا دما إلا دم الهدي، أو ما أحل الله من بهيمة الأنعام على الوجه

المشروع»[١].

من الواضح أنه يشير بهذا إلى صعوبة انضباط الجند، واستقامة سلوكهم في مثل تلك الأحوال، ونحن نرى اليوم - رغم التمدن والحضارة المعاصرة - أن الجنود في بعض الجيوش النظامية، الخاضعة للمراقبة والمتابعة بالأساليب والأجهزة الحديثة يرتكبون جرائم بشعة يندى لها جبين الإنسانية هذا وهم يقاتلون - فيما يزعمون - من أجل الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان!.

وكان الإمام محمد بن عبد الوهاب يحرص في مراسلاته على توضيح موقفه فيما يتعلق بتهمة تكفير عموم المسلمين وقتالهم، فنجده يقول: «وأما التكفير؛ فأنا أكفّر من عرف دينَ الرَّسول ﷺ ثم بعد ما عرفه سبّه ونهى الناس عنه، وعادى من فعله، فهذا هو الذي أكفره، وأكثر الأمة - ولله الحمد - ليسوا كذلك، وأما القتال؛ فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا، ولا أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾ [الشورى:٤٠]، وكذلك مَنْ جَاهَرَ بسب دين الرسول بعدما عرفه»[٢].

ومهما يكن؛ فإن أولئك الأتباع من البدو وغيرهم كانوا رغم حماستهم واندفاعهم خيرا وأقوم من مخالفيهم، وقد ظهر ذلك جليًّا عندما غزا إبراهيم باشا الدرعية - عاصمة الدولة السعودية الأولى- وحاصرها مدة، ثم وقعت المصالحة على استسلام الإمام عبد الله بن سعود ودخول إبراهيم باشا الدرعية سلما، إلا أنه استحلَّها وهدمها، حيث: «أمر العساكر أن يهدموا دورها وقصورها، وأن يقطعوا نخيلها وأشجارها، ولا يرحموا صغيرها ولا كبيرها، فابتدر العساكر مسرعين وهدموها وبعض أهلها فيها مقيمون، وقطعوا الحدائق، وهدموا الدور والقصور، ونفذ فيها القدر المقدور، وأشعلوا في بيوتها النيران وأخرجوا جميع مَنْ كان فيها من السكان، فتركوها خالية المساكن كأن لم يكن بها من قديم ساكن، وتفرق أهلها في النواحي والبلدان، وذلك بتقدير الذي كل يوم هو في شأن»[٣]. ومن العلماء الذين غدر بهم إبراهيم باشا الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، وذلك بعد أن أظهر بين يديه آلات اللهو والطرب إرغاما له بها، ثم أمر عددًا كبيرًا من العساكر أن يطلقوا عليه الرصاصات، حتى قطّع جسده، وجمع لحمه بعد ذلك قطعا[٤].

---

(١) ينظر: «الدرر السنية» (٢٨/٢٢٨-٢٢٩).
(٢) ينظر: «الرسائل الشخصية» (صـ ٣٨).
(٣) ينظر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/٤٣٤).
(٤) ينظر: المصدر السابق (١/٤٢٤).

هذا البون الشاسع بين الفريقين حمل أحد المنصفين من أكابر جنود إبراهيم باشا إلى عقد هذه المقارنة، وقد حفظها لنا المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي فقال:

«ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع: أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهبًا، وصحبتنا صناديق المسكرات، ولا يسمع في عرضينا أذان، ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، والقومُ(١) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب، وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين الذقون، المستبيحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، والآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غُلْفًا غير مختونين.

ولما وصلوا بدرًا، واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها أهل العلم والصلحاء؛ نهبوهم، وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم، ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج!، حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له: «حتى تبيت معي هذه الليلة، وأعطيها لك الغد»(٢).

أفلا يستحي -بعد هذا- من عنده مسكة عقل، وذرة إنصاف، بعد أن يتتبع عثرات الدعوات الإصلاحية الجزئية التفصيلية، ويستخرج بالمنقاش سقطاتها، ويضخّم - بالمبالغة والتكلف تارةً، وبالكذب والتلفيق تارات أخرى - أخطاءها؛ ثم يزعم أنها هي والحركات الخارجية الضالة القائمة على أصول فاسدة، ومناهج منحرفة، وأغراض سيئة - وقد ظهر للجميع فسادها، وعم وجه الأرض شرها - متماثلة أو متشابهة في المقاصد والغايات، والمواقف والتصرفات، والنتائج والمآلات، وصدق ربُّنا العظيم في قوله الكريم: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم:٣٥-٣٦]؟!»(٣).

---

(١) يقصد أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.
(٢) ينظر: «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي (٣/٣٤١).
(٣) ينظر: تقديم عبد الحق التركماني لكتاب: «دعوة جماعة قاضي زادة الإصلاحية» (صـ ٧٥-٨٩) باختصار وتصرف.

والمقصود أن هذه الجماعات الحزبية الحركية نابعة من أهلها، وليس لها ارتباط بالدعوة الإصلاحية البتة، فهي لا تعترف بعقيدة السلف الصالح، ومنهجهم في التغيير والإصلاح، وإن ادعى بعضهم الانتساب إلى الدعوة السلفية فهي دعوى باطلة لا دليل عليها؛ إذ إن محور دعوتهم الاشتغال بالسياسة الدنيوية التي تريد العلو في الأرض والرئاسة، فهم يركزون على الحاكمية من خلال تقريرات منظريهم ورؤسائهم كأبي الأعلى المودودي، وسيد قطب، وحسن البنا، فهي تطلب الحكم وتنشده بكل وسيلة مستطاعة عندهم، وتنازع الحكام على الـمُلك والإمارة، وتصور أن ما يحصل للمسلمين من تخلف وتأخر هو بسبب ضياع الملك والخلافة.

وليست غاية الإسلام إقامة الـمُلك كما توهموه في تعاليمهم، والغاية المنشودة عندهم من الدين والعبادة: عمارة الأرض وإقامة الخلافة والتغلب على السلطات القائمة بالقوة، فهي الغاية والباعث عندهم على العمل والحركة، أما العبادات فما هي إلا وسائل لتربية النفس وتهيئتها للوصول إلى تلك الغاية، -أي: إقامة الخلافة والـمُلك-، فالتغلب على السلطة القائمة وإقامة الخلافة هي في الصدراة والأصالة عندهم، وما الشعائر الإسلامية -كالصلاة والصوم والحج والزكاة- ما هي إلا وسائل لتربية النفس وتهذيبها، وهي تأتي تبعا للأصل الذي بنوه وهو إقامة الخلافة والـمُلك، وهنا مكمن الخطأ والخلل، فضياع الخلافة والملك من المسلمين هو أمر محزن، لكن هو عقوبة من الله تعالى للمسلمين لتفريطهم بدينهم، فإذا عادوا إلى حفظ دينهم، أعاد الله لهم العزة والتمكين، كما في حديث ابن عباس: «**احفظ الله يحفظك**» الحديث[1].

فمصيبة المسلم ومشكلته ليست في نزع الملك من يده، وإنما مشكلة المسلم من عدم تصحيحه لشهادة أن لا إله إلا الله، فإذا صححها وعمل بمقتضاها وصبر على ذلك ملّكه الله بها العرب، ودانت له بها العجم، كما حصل للسلف الأوائل.

وبعض الجماعات الحركية يفسِّر التوحيد والعبادة ويُرجِعُها إلى مفهوم الحرية، وأن الإنسان لا يكون كامل التوحيد حتى يتخلص من كل أنواع الاستبداد، وأن عبودية الاستبداد تفوق عبودية الوثن، فصرَّح أحدهم قائلا: نبدأ بشرك القصور قبل شرك القبور.

قلت: هذا قولٌ كاسدٌ فاسدٌ باطلٌ مخالفٌ لأدلة الكتاب والسنة وما عليه السلف الصالح، فقد دلت النصوص الشرعية على أنه إذا تعارض حفظ الدين مع ما

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح».

يناقض حرية الناس فيجب تقديم ما يحفظ الدين للناس وللمجتمع، ولا شك أن من يقول بمثل هذا الكلام فهو متأثر بالفلسفة والأفكار الغربية الوافدة وإنْ انتسب إلى العلم والفقه، فهذا شاذ لا عبرة بقوله.

الخلاصة:

تبين لنا أن هذه الجماعات الحزبية الحركية ليس لها ارتباط بالدعوة الإصلاحية البتة، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تنطلق من بواعث دينية لا دنيوية كما عليها هذه الجماعات، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تتبنى إحياء عقيدة السلف الصالح ومنهجهم في التغيير والإصلاح بخلاف هذه الجماعات، ومقصد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغايتها إقامة العبودية لله تعالى، وتحقيق اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وتصفية الدين مما علق به من البدع والمحدثات.

الفصل الرابع: ترجمة العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله[١]

هو الإمام العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي المحقِّق المدقق، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، من نواصر بني تميم، من بني عمرو؛ أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم الشهيرة[٢].

يكنى بأبي عبد الله، ويشتهر بعلامة القصيم، نزح جدهم من قفار قرب حائل[٣]- وقيل: من المستجدة، وهي قريبة من حائل أيضًا[٤]- إلى عنيزة، في نحو عام ١١٢٠هـ[٥].

أما نسبه من قبل أمه، فأمه من آل عثيمين ابنة سليمان العثيمين، وآل عثيمين من آل مقبل، من آل زاخر، من الوهبة، من بني تميم، وهم من شقراء، نزح جدهم منها إلى عنيزة، وطابت له السكنى فيها[٦].

مولده، ووفاة والديه:

ولد في عنيزة في القصيم، ١٢ من المحرم سنة ١٣٠٧ من الهجرة النبوية.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ وله أربع سنوات، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ وله سبع سنوات، فعاش يتيم الأبوين[٧].

نشأته:

كان والد الشيخ عبد الرحمن من طلبة العلم الحريصين على الطلب، الملازمين على العبادة، المحافظين على الديانة بأنواعها، وكان إمامًا في مسجد

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة بتصرف من رسالة ماجستير بعنوان: «الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة» للدكتور عبد الرزاق البدر.

(٢) ينظر: «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي (٢١٩/٢)، و«علماء نجد» للبسام (٤٢٢/٢)، وغيرهما.

(٣) ينظر: «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي (٣١٩/٢).

(٤) ينظر: «علماء نجد» للبسام (٤٣٣/٢).

(٥) ينظر: المصدران المتقدمان.

(٦) ينظر: المصدران المتقدمان.

٧ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» للسعدي، طبعة المدني، بقلم السناني، (صـ أ)، ومقدمة كتاب «الرياض الناضرة»، بقلم أحد تلاميذ الشيخ، وغيرهما.

المسوكف بعنيزة[١]، فعني بابنه عبد الرحمن وسعى في تربيته تربية صالحة.

فلمّا توفاه الله، عطفت عليه زوجة والده وكفَلَتْه وأحبته أكثر من حبها لأولادها، وصار عندها موضع العناية والرعاية، فلما شبّ صار في بيت أخيه الأكبر حمد بن ناصر، فنشأ نشأة صالحة كريمة[٢].

وكان والده قد أوصى به إلى ابنه الأكبر حمد، فقام برعايته وتربيته خير قيام، وكان حمد رجلًا صالحًا ومن حملة القرآن، ومن المعمَّرين[٣].

هذا.. وإن الشيخ عبد الرحمن كان منذ نشأته صالحًا، مثارًا للإعجاب، محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة، واشتهر منذ حداثته بفطنته وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله[٤].

فتوفرت له البيئة الصالحة، والرغبة الشديدة في طلب العلم، فاجتهد في طلب العلم، وجد فيه، وسهر الليالي، وواصل الأيام، ومضى في طريقه قُدُمًا لا يلوي على شيء غير العلم، ولا يريد شيئًا غير تحصيل العلم؛ فلا يكاد الواصفون يصفون شدة حرصه وإقباله على العلم والتعلم، وهكذا حتى نال حظًّا وافرًا في العلوم الشرعية[٥].

صفاته الخَلقية:

كان ذا قامة متوسطة، شعره كثيف، ووجهه مستدير ممتلئ طلق، ولحيته كثيفة، ولونه أبيض مشرب بالحُمرة، وكان شعره في شبيبته في غاية السواد، وفي شيخوخته في غاية البياض، يتلألأ كأنه فضة، ووجهه حسن، عليه نور في غاية الحسن وصفاوة اللون[٦].

صفاته الخُلقية (أخلاقه):

١- كان رحمه الله «له أخلاق أرق من النسيم، وأعذب من السلسبيل؛ لا

---

١ ينظر: آخر «المختارات الجلية» (صـ أ)، و«روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي ٣١٩/١.
٢ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٣٣/٢، و«مشاهير علماء نجد» لآل الشيخ ص٣٩٢.
٣ ينظر: «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي ٣١٩/١.
٤ ينظر: «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي ٣١٩/١، و«سيرة السعدي» جمع الفقي بقلم أحد تلاميذ الشيخ (صـ ٩).
٥ ينظر: «سيرة السعدي» جمع الفقي بقلم أحد تلاميذه الشيخ (صـ ١٠)، وآخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ أ).
٦ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٥/١، وآخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ هـ).

يعاتِب على الهفوة، ولا يؤاخذ بالجفوة، يتودد ويتحبب إلى البعيد والقريب، يقابل بالبشاشة، ويُحيِّي بالطلاقة، ويعاشر بالحسنى ويجالس بالمنادمة، ويجاذب أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير ويبذل طاقته ووسعه، ويساعد بماله وجاهه، وعلمه ورأيه، ومشورته ونصحه، بلسان صادق، وقلب خالص، وسر مكتوم، ومهما أردت أن أُعدد فضائله ومحاسنه في مجال الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة التي يتحلى بها، فإني مقصر وقلمي عاجز، ولا يدرك هذا إلا من عاشره وجالسه؛ لذا فإن الله سبحانه أعطاه محبة في القلوب، وثقة في النفوس، فأجمعت البلاد على وده، واتفقت على تقديمه، فصار له زعامة شعبية، فإشارته نافذة، وكلمته مسموعة، وأمره مطاع»؛ هكذا وصفه تلميذه عبد الله البسام[١].

ب- وكان رحمه الله ذا دعابة يتحبب إلى الخلق بحسن خلقه، مرحًا للجليس، لا يرى الغضب في وجهه، طلق الوجه، كريم المحيا، وكان يكثر الحج، ويصوم أيام البيض وغيرها، ويتكلم مع كل فرد بما يناسب حاله[٢]، ويعاشر الخلق معاشرة تامة، كلٌّ بحسب حاله، من يعرف ومن لا يعرف، الصغير والكبير، والخاص والعام، والرجال والنساء، محبًّا للخير، مُقْدِمًا عليه[٣].

جـ- ولم يُرَ قط إلا مبتسمًا بادية أسارير وجهه، ولم يقابله أي شخص إلا بادره بالسلام واللطافة، الصغير والكبير، ومن يعرف ومن لا يعرف، وقل من يراه إلا ويعرفه، ويباسط كل أحد بحسب حاله مباسطة تؤلف القلوب وتمكن المودة[٤].

د- وكان على جانب كبير من التواضع ولين الجانب، يندر مثله، تحس إذا جالسته كأنك من أقرب الناس إليه، متواضعًا للصغير والكبير، والغني والفقير[٥]، وكان لا ينقطع عن زيارتهم ومشاركتهم في مجتمعاتهم[٦]؛ يجيب دعوتهم، ويزور مريضهم، ويشيع جنائزهم[٧].

---

١ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٢٩/٢.
٢ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٣٣٤/١.
٣ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ د).
٤ ينظر: المصدر السابق.
٥ ينظر: مقدمة «الرياض الناضرة» (صـ ٦)، و«علماء آل سليم» للعُمري ٢٩٥/٢.
٦ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٢٤/٢.
٧ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٣/١.

هـ- وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة، والحزم في كل أعماله، زاهدًا متعففًا، عزيز النفس، على قلة ذات يده[١]، ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء، مادًّا يد المساعدة لهم بحسب قدرته، ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات[٢]، ويدفع للفقراء من الطلبة الأموال ليتجردوا عن الانشغال بوسائل المعيشة[٣].

و- وكان محبًّا لإصلاح ذات البين؛ فما من مشكلة تعرض عليه إلا ويحلها برضا الطرفين؛ لما ألقى الله في قلوب الخلق من مودته والانقياد لمشورته والإصغاء لقوله مهما كانت الحال، ولا يكاد يوجد من يرى مخالفته في أي حال من الأحوال[٤].

ز- وكان ملبسه متوسط الحسن مجانبًا للشهرة، لا يرغب في ملابس الشهرة، فملابسه حسنة طيبة بعيدة عن الشهرة[٥].

زهده:

وكان الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة في كل أعماله، زاهدا متعففًا، عزيز النفس على قلة ذات يده، وعُيِّن الشيخ السعدي مشرفًا على المعهد العلمي بعنيزة سنة ١٣٧٣هـ، وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال، ولكن الشيخ رحمه الله أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية- جامعة الإمام محمد بن سعود حاليًّا- أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله تعالى، وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي، وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله[٦].

يقول الدكتور عبدالرحمن العدوي- أثناء عشرته للسعدي-: «وكان من سيرته- عليه رحمة الله- أنه في موسم الحصاد تأتي إليه ثمار النخيل والبساتين التي وقفها أصحابها على المسجد الجامع، فكان الشيخ يجمع كل هذه الثمار في

١ ينظر: مقدمة «الرياض الناضرة» (صـ ٦)، و«روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٣/١.
٢ ينظر: مقدمة «الرياض الناضرة» (صـ ٦).
٣ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٤/١.
٤ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ د)، و«سيرة السعدي» جمع الفقي (صـ ١٣).
٥ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ هـ).
٦ ينظر: مقال: «الشيخ عبدالرحمن السعدي» للدكتور عبد الرحمن العدوي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد رقم (٤٤)، (٣٣٢/١٧).

المسجد، ويوزعها على الفقراء والمساكين، ولا يأخذ تمرة واحدة يدخلها فاه أو ينقلها إلى بيته، وسألت أحد الأبناء المقربين إليه: من أين ينفق الشيخ على حاجات معيشته؟ فأخبرني أن له ابنين يعملان بالتجارة في الرياض، ويرسلان إليه ما يحتاج من النفقة ولا مورد له غير هذا، فقلت: سبحان الله! إن خير ما يأكل المرء ما كان من كسب يده، وإن ولد الإنسان من كسبه، وهكذا تكون سيرة العلماء في الاكتفاء بالقليل والزهد فيما يزيد على ذلك»(١).

أعماله:

وأعني بأعماله: ما قام به الشيخ من مشاريع خيرية، أو ما تولاه من أعمال دينية:

فقد كان رحمه الله محبًّا للمشاريع الخيرية العامة والخاصة، آمرًا بها، مساعدًا عليها، وله أفعال كثيرة حسنة جهرية وسرية، لم يظهر بعضها إلا بعد وفاته وهي كثيرة جدًّا(٢).

وفيما يلي أعرض بعض المشاريع التي قام بها، والأعمال التي تولاها:

١- كان مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم، فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة، وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد، وكاتب الوثائق، ومحرر الأوقاف والوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشارهم في كل ما يهمهم(٣)؛ كل ذلك خدمة لوجه الله.

٢- قام في سنة ١٣٦٠هـ بتأسيس المكتبة الشهيرة بالوطنية في عنيزة، على نفقة الوزير ابن حمدان، وجلب لها آلاف الكتب في شتى الفنون، وصارت هذه المكتبة مجمعًا لطلاب العلم يقرؤون عليه فيها، وكانت المراجع متوفرة فيها(٤).

٣- رشح لقضاء عنيزة عام ١٣٦٠هـ، وامتنع منه تورعًا(٥)، ولم يدخل في أي وظيفة لا قضاء ولا غيره، وعرض عليه القضاء أكثر من مرة، ولكن سهل الله له الفكاك منه(٦).

---

١ المصدر السابق، العدد رقم (٤٤)، (٣٣٧/١٧) .
٢ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ د).
٣ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٢٤/٢.
٤ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٣/١.
٥ ينظر المصدر السابق ٢٢١/١.
٦ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ ج).

٤- عين إمامًا وخطيبًا للجامع الكبير بعنيزة في رمضان عام ١٣٦١هـ، بأمر من الشيخ عبد الرحمن بن عودان، وهي حسنة من حسناته، أحبه الناس عليها وحفظوها له(١).

٥- قام في سنة ١٣٦٣هـ، بجمعية خيرية لعمارة مقدم الجامع الكبير بعنيزة، وانتهت على ما يرام بمساعيه المشكورة(٢).

٦- عين مشرفًا على المعهد العلمي بعنيزة سنة ١٣٧٣هـ، يقول الشيخ عبد الرحمن العدوي- أحد المدرسين في المعهد إذ ذاك، بعد أن ذكر خبر تعيينه مدرسًا هناك-: «وفي نفس الوقت بلغنا أن الشيخ عبد الرحمن السعدي قد عُيِّن مشرفًا على المعهد من الناحية العلمية، وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال. ولكن الشيخ رحمه الله أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله تعالى، وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي، وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله»(٣).

ثم قال: «كان رحمه الله يأتي إلى المعهد بانتظام يوم الثلاثاء من كل أسبوع، ثم يدخل إلى آخر صف، ويجلس فيه كأنه أحد طلاب هذا الفصل، ويكرر هذا العمل في أكثر من فصل، ويستمع إلى أكثر من مدرس ولم يكن في المعهد من المدرسين المصريين إلا أنا وزميل آخر، أما بقية المدرسين فكانوا من أبناء الشيخ، علمهم في المسجد الجامع إلى درجة تسمح لهم بالقيام بتدريس المواد التي تعلموها على يديه»(٤).

وهو أول من أدخل مكبر الصوت في عنيزة، وله خطبة في منافعه، قالها حين وضعه في المسجد واستنكره بعض الناس قال فيها: «وكذلك إيصال الأصوات والمقالات النافعة إلى الأمكنة البعيدة من برقيات وتلفونات وغيرهما، داخل في أمر الله رسوله بتبليغ الحق إلى الخلق، فإن إيصال الحق والكلام النافع بالوسائل المتنوعة من نعم الله، وترقية الصنائع والمخترعات لتحصيل المصالح

١ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٣/١، وعبد الرحمن بن عدوان هو قاضي عنيزة إذ ذاك.
٢ ينظر المصدر السابق ٢٢٣/١.
٣ ينظر: مقال: «الشيخ عبدالرحمن السعدي» للدكتور عبد الرحمن العدوي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد رقم (٤٤)، (٣٣٢/١٧).
٤ المصدر السابق، العدد رقم (٤٤)، (٣٣٣/١٧).

الدينية والدنيوية من الجهاد في سبيل الله»[١].

مرضه ووفاته:

أصيب عام ١٣٧١هـ- أي: قبل وفاته بخمس سنوات- بمرض ضغط الدم، وتصلب الشرايين، فكان يعتريه مرة بعد مرة، وهو صابر عليه، وكانت أعراض المرض تبدو عليه بعض الساعات في الكلام فيقف ولو كان يقرأ القرآن، ثم يتكلم[٢].

فاهتمت به الحكومة، حيث أرسل له الملك سعود رحمه رحمه الله طائرة خاصة، وفيها طبيبان، قررا بعد الكشف عليه سفره للعلاج في لبنان وصحباه في السفر[٣].

فسافر إلى بيروت في عام ١٣٧٣هـ، وبقي هناك شهرًا، يعالج حتى شفاه الله، ونصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والإجهاد[٤]، واجتمع في سفره هذا بعدد من العلماء، وتعرف بجملة من الفضلاء، منهم الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني كما حدثني بذلك[٥].

ثم رجع إلى عنيزة فباشر فيها أعماله، ولم يصبر على ترك العلم فقام فيها تعليمًا وإمامةً وخطابةً وتأليفًا وبحثًا؛ لأن هوايته العلم وكان يقول إن راحتي في مزاولة عملي[٦].

فصار المرض يعاوده ثم يشفى، ولا يصده عن الخروج، ويحدث معه رعدة وسكتة لا يقدر معها على الكلام وتبقى دقيقة واحدة، ثم تزول بدون تألم سوى برد يتلوه عرق[٧].

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ، اشتد عليه المرض أكثر مما كان وصار معه مثل البرد والقشعريرة.

---

١ ينظر: «الخطب المنبرية» (صـ ٨١).
٢ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٢٩/٢، و«مشاهير علماء نجد» لآل الشيخ، ص ٣٩٦، وغيرهما.
٣ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٥/١، وآخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ ز).
٤ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٢٩٢/٢، و«روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٥/١، وغيرهما.
٥ ينظر: آخر كتاب «المختارات الجلية» (صـ ز).
٦ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٣٩/٢، و«روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للقاضي ٢٢٥/١، و«مشاهير علماء نجد» لآل الشيخ (صـ ٣٩٦)، وغيرها.
٧ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٥/١.

وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور، وبعد فراغه من الدرس اليومي المعتاد، وبعد فراغه من صلاة العشاء، أحس بثقل وضعف في الحركة، فأشار إلى أحد تلاميذه بأن يمسكه ويذهب معه إلى البيت ففعل، وهرع معه أناس من الحاضرين، فلم يصل إلى البيت إلا وقد أغمي عليه، ثم أفاق بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه، وتكلم مع أهله الحاضرين بكلام حسن طيب، ثم عاوده الإغماء مرة أخرى، فلم يتكلم بعد ذلك.

فلما أصبحوا صباح الأربعاء، دعوا الطبيب فقرر أن معه نزيفًا في المخ، وإن لم يتدارك فورًا فإنه يموت.

فأبرقوا لابنه وللملك فيصل- لما كان وليًّا للعهد- فأصدر أمره الكريم عاجلًا بكل ما يلزم، فقامتْ طائرة خاصة وفيها طبيب مخ ومهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة، وكان فيها ابنه عبد الله، ولكن الجو كان ملبدًا بالغيوم، والرعد والبرق والعواصف الشديدة، وفيه أمطار قد تتابعَتْ أكثر من شهر تهدَّمتْ منها البيوت ونزلتْ أخشاب سطوح المساجد، فلمْ يساعد الجو على هبوط الطائرة، فتلقَّتِ المكالمة وهي في الجو بوفاته، فرجعَتْ من حيث أتَتْ، حيث أنه رحمه الله توفي قبل طلوع فجر يوم الخميس الموافق ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٧٦ه عن تسع وستين سنة[١].

أبناؤه وتلاميذه:

وخلَّف رحمه الله ثلاثة أبناء؛ وهم: عبد الله، ومحمد، وأحمد. وهم يشتغلون بالتجارة بالرياض والدمام، وعبد الله هو أكبرهم سنًّا وله يد في طلب العلم، وقد اعتنى بطبع بعض مؤلفات والده وتوزيعها مجانًا[٢]، وقد توفي عبد الله في ١٤٠٥/٤/٢٤هـ في حادث سيارة، غفر الله له ولوالديه ووالدينا وجميع المسلمين.

وكانت للشيخ رحمه الله اليد الطولى والأثر العظيم في النهضة العلمية في بلده عنيزة خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، ولا زالت آثاره تتجدد إلى يومنا هذا.

وصدق النبي ﷺ إذْ يقول: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٣]، فلا زال الناس

---

١ ينظر: «روضة الناظرين» للقاضي ٢٢٦/١، و«مشاهير علماء نجد» للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ (صـ ٣٩٦).
٢ ينظر: «علماء نجد» للبسام ٤٣٠/٢.
٣ رواه مسلم (٢٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ينتفعون بعلمِه، ويستفيدون من فتاواه واجتهاداته وآرائه، فجزاه الله عن المسلمين خيرًا.

وقد تخرج به أعداد من الطلاب، وترك عددًا كبيرًا من المؤلفات النافعة في التفسير، والحديث، والأصول، والعقيدة، والفقه، والآداب ونحو ذلك.

ومن هذه المؤلفات: تفسيره المعروف بـ«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ومنها «خلاصة التفسير»، و«القواعد الحسان»، و«الفتاوى»، و«بهجة الأبرار»، وغيرها.

ومن أبرز الطلاب الذين درسوا عليه: الشيخ عبد الله بن عقيل، والشيخ عبد العزيز السلمان، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله البسام، وغيرهم كثير من أهل العلم.

متن كتاب القول السديد
شرح كتاب التوحيد
للعلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

هذه مقدمة بقلم العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي وهي تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة(١):

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فقد سبق أن كتبنا تعليقا لطيفا في موضوعات «كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين، ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام، وطبع بمطبعة الإمام ثم نفدت نسخه مع كثرة الطلب عليه، ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول وتوابعها، فأقول مستعينا بالله.

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده مخلصين له الدين.

فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصور الرزاق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور.

وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء.

وأنه العلي الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات وعلو القدر، وعلو القهر.

---

(١) لن أشرح مقدمة الإمام السعدي في تقريره لعقيدة أهل السنة والجماعة وأصول مذهب أهل السنة، فما من مسألة إلا وعليها دليل من كتابٍ وسنةٍ وإجماع، والمقصود شرح كتاب التوحيد، ومن أراد شرح هذه الأصول التي ذكرها العلامة السعدي فليراجع شرحي للواسطية، وقد اعتنى العلماء قديما في بيان أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة كـكتاب «السنة» للإمام أحمد، و«السنة» للمزني، و«بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة» للإمام الطحاوي، و«اعتقاد أئمة أهل الحديث» للإسماعيلي، و«عقيدة السلف وأصحاب الحديث» للصابوني، و«السنة» للبربهاري، و«صريح السنة» لابن جرير الطبري، وشروح الواسطية لجماعةٍ من أهل العلم، و«قطف الثمر في بيان عقائد أهل الأثر» لصديق حسن خان، وغيرها من الكتب المصنفة في أصول السنة، والله أعلم.

وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي، وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب.

وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرؤوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر. فيقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له حتى يطلع الفجر**»(١)، فهو ينزل كما يشاء ويفعل ما يريد، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(٢).

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وقدره، فما خلق شيئا عبثا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم.

وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين.

وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته، كالرحمة، والرضا، والسخط، والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد.

وإن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

وأنه لم يزل ولا يزال موصوفا بأنه يفعل ما يريد، ويتكلم بما شاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية. فهو الحاكم

---

(١) هذا اللفظ رواه أحمد (١٥٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٣٦)، وابن ماجه (١٣٦٧) من حديث رفاعة الجهني رضي الله عنه، ولفظ ابن ماجه: «لا يسألن عبادي غيري»، وهو حديث صحيح.
ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) دون قوله: «**لا أسأل عن عبادي غيري**».

(٢) الشورى: [١١].

المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب وتواترت به السنة: أن المؤمنين يرون ربهم تعالى عيانا جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم واللذة.

وأن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبدا، وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها.

وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئا نقص من إيمانه بقدر ذلك. ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا، مع الاستعانة بالله. فهم حريصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله.

وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله في الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين واتباع طريقهم.

ويشهدون أن محمدا عبده ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الإنس والجن بشيرا ونذيرا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله ويستعينوا برزقه على ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بيانا، فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهديه.

ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقاما وأعظمهم جاها، وأكملهم في كل فضيلة، لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم منه.

وكذلك يؤمنون بكل- كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد- خيرها وشرها- قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق

للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها بل مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة: أنهم يدينون بالنصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوئ الأخلاق وأرذلها.

ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانا ويقينا أحسنهم أعمالا وأخلاقا، وأصدقهم أقوالا، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة.

ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها.

ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح. وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها.

ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ خصوصا الخلفاء الراشدون والعشرة المشهود لهم بالجنة وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﭫ. فيحبون الصحابة ويدينون لله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم.

ويدينون لله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل، ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات.

هذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون، وإليها يدعون.

١-كتاب التوحيد

١- وقول الله- تعالى-: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** (١).

٢- وقوله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** (٢).

٣- وقوله: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾** (٣).

٤- وقوله: **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** (٤).

٥- وقوله: **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** (٥).

٦- قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** إلى قوله: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾** (٦) الآية (٧).

٧- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لي: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا**»، قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**». أخرجاه في الصحيحين

---

(١) الذاريات: ٥٦.
(٢) النحل: ٣٦.
(٣) الإسراء: ٢٣-٢٤.
(٤) النساء: ٣٦.
(٥) الأنعام: ١٥١- ١٥٣.
(٦) الأنعام: ١٥١- ١٥٣.
(٧) رواه الترمذي (٣٠٧٠)، وقال: «حسن غريب».

(١).

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ (٢).

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قوله- تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ (٣).

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل: أولاها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا**﴾ (٤) وختمها بقوله: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا**﴾ (٥) ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿**ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**﴾ (٦).

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله- تعالى - بقوله: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ (٧).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).
(٢) الكافرون: ٣.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) الإسراء: ٢٢.
(٥) الإسراء: ٣٩.
(٦) الإسراء: ٣٩.
(٧) النساء: ٣٦.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

متن كتاب القول السديد في بيان مقاصد التوحيد

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: كتاب التوحيد: هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة، أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه، وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم أو يكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال، والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب- جل جلاله- بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلالة والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل. ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية:

بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وربى خواص خلقه- وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية ويقال له: «توحيد العبادة»، وهو: العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه ألا يستحق العبادة أحد سواه، ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم: الدعوة

إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية(١) أدلة وبراهين على هذا الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

----

(١) يريد قول الله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: ٥٣].

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: علم المقاصد وصلته بالعقيدة:

المقاصد في العقيدة معناها: «هي الغايات العليا من مراد الشارع في تشريع الأحكام العقدية والعبادات»، و«علم المقاصد له ارتباطات عديدة، منها: ارتباطه بالفقه وأصوله، وهذا الذي اهتم به العلماء قديما وحديثا، ومنها: ما له ارتباط بالتفسير، ومنها: ما له ارتباط بالعقيدة أيضا، وارتباطه بالعقيدة أعظم وأكبر، غير أن الباحثين اهتموا بالتأليف في المقاصد الفقهية وأولوها عناية كبيرة، ولم تكن تلك العناية قد نالتها العناية الظاهرة بالمقاصد العقدية، ومن تأمل في مقاصد الدين العظمى وجدها بجميعها ترجع إلى غاية ومقصد عظيم، وهو إفراد الله جل وعلا بالعبادة وترك عبادة ما سواه، فالصلاة والزكاة والصيام والحج من تأملها كلها في أصولها وفروعها وجد أن الله قد شرعها لهذا المقصد العظيم، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، ففي الآية الكريمة نبه الله تعالى إلى أنه ليس الشأن التوجه بالصلاة جهة المشرق والمغرب، وإنما الشأن كله الإيمان بالله وتوحيده وخشيته والخوف منه وتقواه، ولذلك ختمه الله بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وهذا هو الأصل والمقصد الأكبر».

وفي تقرير مقاصد العقيدة في القرآن الكريم يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «وأما مقاصد القرآن الكريم التي يكررها ويورد الأدلة الحسية والعقلية عليها ويشير إليها في جميع سوره وفي غالب قصصه وأمثاله فهي ثلاثة مقاصد، يعرف ذلك من له كمال فهمٍ وحسن تدبر، وجودة تصور، وفضل تفكر: المقصد الأول: إثبات التوحيد، المقصد الثاني: إثبات المعاد، المقصد الثالث: إثبات النبوات».

هذا وقد اعتنى العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي في توضيح مقاصد العقيدة كما هو ظاهرٌ في كتابه هذا وفي بعض كتبه الأخرى، والله أعلم. ينظر: «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» (صـ ٣)، و«رسالة مقاصد العقيدة عند العلامة محمد بن العثيمين» (صـ ٤٩-٥٠).

المقصد الثاني: أسباب اهتمام الإمام المصنف بتقرير توحيد العبادة:

اهتم علماء السلف الأوائل في معالجة الانحرافات العقدية الواقعة في زمنهم، كبدعة التعطيل والإرجاء وإنكار القدر، فألَّفوا الرسائل والكتب في الرد على المعطلة والمرجئة وغيرهم من أهل الأهواء، ككتاب التوحيد في «صحيح البخاري»، وكتاب «التوحيد» لإمام الأئمة ابن خزيمة.

وسبب اهتمامهم بتوحيد الأسماء والصفات دون ذِكر بقية أنواع التوحيد هو ظهور الانحراف فيه على يد المعطلة وغيرهم؛ لذا سموا كتبهم في الرد على أهل الفِرق باسم: الرد على الجهمية، كـ: «الجهمية والزنادقة»، لأحمد بن حنبل، كـ«الرد على الجهمية» للدارمي، وككتاب «خلق أفعال العباد والرد على الجهمية» للبخاري، وهذا في زمن السلف الأوائل.

أما الزمن الذي عاش فيه الإمام المصنِّف فيكثر فيه الانحراف في توحيد العبادة، لذا اعتنى الإمام في كتابه «التوحيد» أشد عناية بتوحيد العبادة وما يناقضه من الشرك ووسائله.

وهذا النوع حصل فيه النزاع بين الشيخ وخصومه من القبورية والصوفية وغيرهم.

فألَّف في الرد عليهم كتابًا آخر وسماه: «كشف الشبهات»، أي: شبهات المخالفين في توحيد العبادة من أهل الكلام والتصوف، لذا رموه بقوس واحدة، وشنعوا عليه بما ليس فيه لأجل تنفير الناس عن دعوته، وقد أحصى صاحب كتاب: «كُتُب حذر منها العلماء»[1] الكتب التي صنفت في الرد والتشويه لهذه الدعوة الإصلاحية، فبلغتْ اثنتين وسبعين كتابًا، ويغلب على حججهم الضعف مما جعل المؤرخ التركي جودت باشا يقر ويعترف بضعف كتب المخالفين لدعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، فهي عنده مشحونة بالسُّخف والهراء، وأنهم يقدِّمون بأيديهم وسيلة للسخرية من ردودهم[2].

هذا وقد تقدم في التمهيد سبب انحرافهم في هذا الشأن ألا وهو إقصاؤهم توحيد العبادة عن حقيقة التوحيد، وحصر التوحيد في الربوبية نتيجة قولهم بالإرجاء، وهو تأخير العمل عن مسمى الإيمان، وترتب عليه حصر الشرك في الاعتقاد، وأقصوا الشرك العملي في العبادة من مسمى الشرك وأهملوه، فلا تجد له ذِكرٌ في كتبهم، لذا انتشر مظاهر الشرك الأكبر والأصغر في كثير من البلدان

---

(١) ينظر: «كتب حذر منها العلماء» للشيخ مشهور حسن (١/٢٥٠-٢٨٧).
(٢) ينظر: «الوهابية حركة الفكر والدولة» (صـ ٣٠-٣١)، و«خواطر حول الوهابية» (صـ ٤٢)

الإسلامية، فغلوا في تعظيم القبور واتخذوها مشاهد وأضرحة، وهو أمرٌ حادثٌ في الإسلام، ومن أحدثه لمْ يرتبط بأهل التقوى والعلم، بل ارتبط بأصحاب الدعوات الهدامة كالقرامطة والإسماعيلية والإمامية والصوفية وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «ولم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه؛ لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب كان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد علي رضي الله عنه وأمثاله...»(١).

«...وفي دولتهم أُظهر المشهد المنسوب إلى علي رضي الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر علي رضي الله عنه هناك، وإنما دفن علي رضي الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة»(٢).

فعندما بدأت المحدثات تدب في حياة المسلمين، كان منها ذلك الأمر الجلل «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد . . . ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان كتابًا في مناسك حج المشاهد، وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد، فصاروا جامعين بين الشرك والكذب»(٣).

الحاصل: أن الغلو في تقديس القبور وزيارة المشاهد وصرف العبادة لها تقليدٌ شيعي في نشأته، فالشيعة هم أول من بنى على القبور مثل: ضريح الصحابي الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنوه سنة ٣١٧هـ، ثم ضريح محمد بن موسى الكاظم في مدينة قم بإيران سنة ٣٦٦هـ، ويغلب في الأضرحة التي في مصر أنه يرجع تاريخ معظمها إلى القرن الخامس الهجري على يد العبيديين القرامطة، وأضحوا يبنون على قبورهم ويجعلونه مشاهد ومزارات، ثم جاء الصوفية فجعلوا أهم مشاعرهم هو الغُلُوَّ في القبور، وبناء الأضرحة والطواف بها والتبرك

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٦٧/٢٧).
(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤٦٦/٢٧).
(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٦١/٢٧-١٦٢).

بأحجارها والاستغاثة بالأموات، فقد جعلوا قبر معروف الكرخي وهو رائد من رواد التصوف مكانًا لزياراتهم، وقالوا: «قبر معروف ترياق مجرب»[١].

(١) ينظر: «الفكر الصوفي في ضوء القرآن والسنة» (صـ ٤٢٧)، وكتاب «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» (٤٦/١).

المقصد الثالث: أهمية توحيد العبادة ومنزلته من خلال تقريرات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي:

قال السعدي مبينا أهمية توحيد العبادة ومنزلته: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله ، وخلق المخلوقات ، وشرع الشرائع لقيامه ، وبوجوده يكون الصلاح ، وبفقده يكون الشر والفساد ، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به، أو بحق من حقوقه ، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويقال له: توحيد الإلهية، فإن الإلهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدال عليها الاسم العظيم وهو الله، وهو مستلزم جميع صفات الكمال، ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله تعالى، وتحقيقها في العبد أن يكون عارف بربه ، مخلصاً له جميع عبادته، محققاً ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره»[(١)].

وقال في موضعٍ آخر: «وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثوابَ الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه، والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له، فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته، وتحقيقه، والتحقق به، ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته، وشواهده وأدلته وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه؛ لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع!»[(٢)].

---

(١) ينظر: «القواعد الحسان لتفسير القرآن» (صـ ١٩٢) ط المعارف.
(٢) ينظر: «الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين» (صـ ٥٧).

المقصد الرابع: موضوع كتاب التوحيد وعدد أبوابه:

موضوع هذا الكتاب هو: «إفراد الله تعالى بالعبادة»، وهو أعظم الأصول وأولاها وأعلاها شأنًا، ولم لا؟ وهو أول واجب على المكلف، وأول ما يدخل به إلى الإسلام، وهو نجاة العبد إذا خرج به من الدنيا، ولأجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، بل ما خلق الله الجن والإنس إلا لعبادة الله وحده.

والإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ألَّف كتاب «التوحيد» وبسط فيه تقرير توحيد الألوهية وما يناقضه من الشرك والبدع، وقد استخدم لفظ «التوحيد» عنوانًا للكتاب لوروده في السنة، فقد أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن فقال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكنْ أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»(١)، وفي رواية أخرى: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه أنْ يوحدوا الله**»(٢).

وقد سمى علماء السلف المتقدمين كتبهم بالتوحيد، مثل كتاب التوحيد للبخاري في «صحيحه»، وابن منده، وابن خزيمة، وكان موضوع تلك الكتب في الغالب في الأسماء والصفات ما عدا كتاب ابن منده، فيشمل الربوبية والأسماء والصفات، وهي كتب أحاديثها مسندة إلى النبي ﷺ، وسبب اقتصارهم على توحيد الأسماء والصفات دون بقية أنواع التوحيد هو ظهور الانحراف فيه على يد المعطلة.

الحاصل: أن موضوع هذا الكتاب هو توحيد رب العالمين ببيان أنواع التوحيد الثلاثة، وهي توحيد الربوبية والأسماء والصفات والألوهية، وفصَّل في هذا النوع من التوحيد وبيَّن ما يناقضه من الشرك الأكبر وينافي كمال الواجب من الشرك الأصغر.

هذا وقد بلغتْ عدد أبواب كتاب التوحيد سبع وستين بابًا وعدد الأحاديث ١٢٦ حديثا، فيذكر أولا الآيات القرآنية ثم الأحاديث النبوية التي تدل على موضوع الباب، ويذكر بعد ذلك مسائل مستنبطة من نصوص الباب.

وبلغ عدد الأبواب التي اقتصر فيها على الأحاديث دون ذِكر آيات القرآن اثنتان وعشرون بابًا.

وقد انتقد بعض خواص أهل العلم على كتاب التوحيد أن فيه بعض الأحاديث والآثار الضعيفة، ويجاب: أنه لا يُسلَّم ضعف تلك الأحاديث، بل قد وقع الخلاف

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٧٣٧٢).

في تصحيحه وتحسينه وهي ثمانية أحاديث.

ومنها ما ذكره المصنف جريًا على طريقة المتقدمين بإخراج الحديث الثابت أصله المتعدد طرقه وشواهده كما يظهر ذلك في كتب العقيدة المسندة، ككتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد، وكتاب «التوحيد» لابن خزيمة[١].

الحاصل: أن كتاب التوحيد ألفه الإمام -رحمه الله- يوضح فيه توحيد الله بالعبادة، وإفراده بها، وبيان ما جاءت به الرسل في ذلك، ويبين فيه أنه المستحق للعبادة كما يبين أنه الخالق الرازق المتفرد بالتدبير والخلق، ويبين فيه أنه ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلا، فهو الواحد في أسمائه وصفاته، وهو الواحد في تدبيره للخلق، وهو الواحد في استحقاقه للعبادة -سبحانه وتعالى-، فبيَّن المصنف أن توحيد العبادة هو التوحيد الواجب، وذكر أحكامه وحدوده وشروطه وفضله وبراهينه وأصوله وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به وما يُقوّيه أو يُضعِفه ويوهِنُه وما به يتم أو يكمل، وحماية الرسول ﷺ له، ويمثل الأبواب التالية:

١-باب قول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ**﴾.

٢-باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

٣-باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

٤- باب من حقق التوحيد دخل الجنة.

٥- باب فضل التوحيد وما يكفِرّ من الذنوب.

٦-باب ما جاء في حماية النبي ﷺ جناب التوحيد.

٧-باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسد طرق الشرك.

قلت: فهذا ردٌّ بليغ على المخالفين في إخراجهم توحيد الألوهية من مسمى التوحيد وأنواعه.

---

(١) ينظر: «الدرر النضيد في تخريج كتاب التوحيد» للشيخ صالح العصيمي (صـ ١١)، و«تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد» للشيخ فريد البهلال.

المقصد الخامس: سبب ترك الإمام المصنف لمقدمة الكتاب:

اسم الكتاب كاملا: «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»، ويلاحظ أن الإمام اقتبس (التوحيد) من حديث معاذ لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن فقال: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أنْ يوحدوا الله تعالى**»[(١)]، ويُلحظ كذلك أن الجزء الأخير من العنوان: (حق الله على العبيد) أيضا مأخوذ من حديث معاذ رضي الله عنه: «**حق الله على العباد أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»[(٢)].

ولعل الإمام المصنف رأى الاكتفاء بترجمة الباب، فهي تغني عن المقدمة -والله أعلم-.

المقصد السادس: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها»[(٣)].

٢- وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له **﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا وهو في «الصحيح».
(٢) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).
(٣) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨١٢).

فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ**﴾ فاتبعوا المرسلين علما وعملا ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**﴾ فاتبع سبيل الغي»(١).

٣- وقول الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

قال السعدي: «لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد فقال: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ**﴾ قضاء دينيا وأمر أمرا شرعيا ﴿**أَنْ لا تَعْبُدُوا**﴾ أحدا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات ﴿**إلا إِيَّاهُ**﴾؛ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة الدافع لجميع النقم الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور فهو المتفرد بذلك كله وغيره ليس له من ذلك شيء»(٢).

٤- وقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلا وإخلاصا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر ولا أكبر، لا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد»(٣).

٥- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥٦].

قال السعدي: «يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**قُلْ**﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله ﴿**تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ تحريما عاما شاملا لكل أحد، محتويا على سائر المحرمات، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال ﴿**أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا.

وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يُعظم كما يُعظم الله، أويُصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٤٠).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٥٦).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٧٧).

صار موحدا، مخلصا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا»(١).

المقصد السابع: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

وجوب التوحيد وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد.

هذا ما قرره الإمام عبد الرحمن السعدي، وتبعه على ذلك تلميذه العلامة محمد بن العثيمين في كتابه «القول المفيد»(٢)، وذهب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في «حاشيته على كتاب التوحيد»(٣) أن المراد بهذا الباب هو بيان معنى التوحيد.

قلت: والأقرب أن موضوع هذا الباب هو بيان حكم التوحيد وتأكيد أهميته ومنزلته، لأن المؤلف سيُفرِد بابا مستقلا بعنوان: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

والنصوص التي ذكرها الإمام المصنف تدل على وجوب توحيد الألوهية وأنه الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل، وأنه أول ما يُوصَى به من الوصايا الكبرى، وأنه حق الله على العباد، وأن نقيضه هو الشرك بالله، وهو أعظم المحرمات وأقبحها وأشدها عذابا.

كذلك لأن من مواضع الخلاف بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمناوئين له هو اعتراضهم على إدخال توحيد الألوهية ضمن أنواع التوحيد لقولهم بالإرجاء في مسمى الإيمان.

وقد تقدم أن من أشد المعارضين لدعوة التوحيد هو عبد الله بن عيسى المويس(٤) إعراضه واعتراضه في إدخال توحيد العبادة في مسمى التوحيد وأنواعه، فهو على طريقة أهل الكلام، فيرون أن عمل القلب والجوارح شرط كمال لا يدخل في ماهية الإيمان.

والحق أن عمل الجوارح الذي هو توحيد الألوهية ركنٌ أساسي في الإيمان،

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٧٩).
(٢) ينظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» للشيخ العثيمين (٦٠/١).
(٣) ينظر: «حاشية كتاب التوحيد» لابن قاسم (صـ ٢٣).
(٤) كان على مذهب المتكلمين، ينظر: «تاريخ ابن غنام» (٩٩/١).

حيث يزول الإيمان بزواله، والمراد بأعمال القلب والجوارح التي يزول الإيمان بزوالها هو وصول أعمال القلب والجوارح وجنسها، حيث يعتبر أهل السنة أن من ترك أعمال القلوب والجوارح كلها ليس بمسلم في الوقت الذي يعتبره أهل الكلام مسلما، لذا كان هذا المعارض عبد الله المويس يتهكم بهذا النوع من التوحيد ويزعم أن تعليم معنى (لا إله إلا الله) بدعة.

وممن اعترض وأنكر أنْ يكون توحيد الألوهية داخلا في مسمى التوحيد وأنواعه: أحمد بن يحيى، وابن إسماعيل، وولد محمد بن سليمان، وألَّف أحمد بن علي البصري الشهير بـ(القباني) كتابًا كله في إنكار توحيد الألوهية، ويُعظِّم المعارضين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تأليف هذا الكتاب ويحتجون به ويدعون الناس إليه، مثل: ابن سحيم وابن عبيد، وعبد الله المويس، وكذلك ألف محمد بن عفالق كتابا في إنكار توحيد الألوهية، ويزعم فيه أن توحيد الألوهية دين ابن تيمية(١).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

أي: هذا الكتاب في بيان معنى التوحيد، وحقيقته، ومكملاته، ونواقضه، ونواقصه.

والتوحيد هو حق الله الواجب، والفرض الأعظم على جميع الخلق، ومعناه: توحيد الله تعالى في ذاته، وأفعاله وأسمائه، وصفاته، وإفراده بالعبادة دون غيره، وهو ثلاثة أنواع:

١- توحيد الربوبية: وهو توحيد الله بأفعاله كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإقرار بأنه المنفرد بكل ذلك.

٢- توحيد الألوهية: وهو توحيد الله بأفعال العباد؛ كالصلاة، والذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، وعدم صرف شيء من العبادة لغيره.

فالألوهية: هي العبودية، والإله: فعال، بمعنى المألوه؛ أي: المعبود، وكل ما اتخذ معبودًا فهو إله عند متخذه(٢).

والإله يطلق على الله تعالى وعلى كل معبود غير الله تعالى، فالإله يطلق على المعبود بحق وعلى المعبود بباطل، وأما «الله» فلا يطلق إلا على الإله الحق،

---

(١) ينظر: «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٥/٢٠).
(٢) ينظر: «القاموس المحيط» (صـ ١٢٤٢)، مادة (أله).

وهو الخالق لهذا الكون، الرازق لعباده الرب للكائنات[(١)].

وكان حق هذا الاسم أن لا يُجمع إذ لا معبود يستحق العبادة سوى الله ﷻ, لكن العرب لاعتقادهم أن هاهنا معبودات جمعوه فقالوا: الآلهة, وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه[(٢)]

٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو توحيد الله بأسمائه وصفاته بأنه يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من الأسماء والصفات وإثبات حقيقتها مع تنزيه الله عن مشابهة الخلق.

عدم التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية منشأ الضلال:

اعلم أن الفرق بين توحيد الربوبية وبين توحيد الألوهية حقيقة واقعية، وهذا الفرق معلوم من دين الرسل بالضرورة، والقول بعدم الفرق بينهما والقول باتحادهما منشأ ضلال كثير من الفرق الضالة كالقبورية والصوفية والمتكلمين، وهذا الفرق من عدة وجوه:

الأول: أن توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية، كما تدل عليه آيات كثيرة من القرآن، والدليل غير المدلول هنا.

الثاني: أن توحيد الربوبية جزء من توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية كُلٌّ.

الثالث: أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وشامل له دون العكس، فمن حقق توحيد الألوهية، فقد حقق توحيد الربوبية ولا عكس.

الرابع: أن توحيد الربوبية أمر اعترف به المشركون دون توحيد الألوهية، فتوحيد الألوهية هو مفترق الطرق بين المسلمين وبين الكافرين.

الخامس: أن من قال: «لا إله إلا الله» فقد أسلم، دون من قال: «لا رب إلا الله»، فإن هذا لا يكفي[(٣)].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحمَهُ اللهُ: «**الأصل الأول:** توحيد الربوبية،

---

(١) ينظر: «تاج العروس»(٣٢١/٣٦)، و«لسان العرب» (٤٦٨/١٣-٤٦٩).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب(ص ٢١)، والصحاح للجوهري(٢٢٢٤/٦).

(٣) ينظر: «شرح الطحاوية» (صـ ١٥-٣٢).

وهو الذي أقر به المشركون في زمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والآيات على هذا أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر.

والأصل الثاني: هو توحيد الألوهية فهو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه»[١].اهـ. وقد سبق بيان شيء من هذا في المقدمة.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ من عقد هذا الباب الإشارة إلى التوحيد الذي ألف فيه؛ وبيَّن أنه إنما قصد به: التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وهو الذي من أجله خلق الله الخلق، وأرسل به الرسل، وأن كل ما جاء في فضل التوحيد إنما هو هذا التوحيد الذي سيبينه ويذكره فيما يأتي من الأبواب.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

مناسبة هذا التبويب لما بعده من الأبواب ظاهرة؛ فهي كالمقدمة للكتاب، حيث فيها الإشارة إلى التوحيد الذي سيبينه بالأبواب الآتية، من حيث فضله، ونواقضه، ونواقصه، ومكملاته.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بالآيات والأحاديث:

الآية الأولى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]: فيها الإخبار على أن الله تعالى ما أوجد الجن والإنس إلا لعبادته، وهذه الحكمة الشرعية من خلقهم، فخلقهم ليوحدوه، ويعلمهم أنه خالقهم، ورازقهم، وابتلاهم بالأوامر والنواهي ليعبدوه، وحتى تكون العبادة على بصيرة أنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ كما دل على ذلك الآية الثانية.

والعبادة هاهنا معناها: التوحيد، وهو إفراد الله جل وعلا بالتوحيد والعبادة، أي: (إلا ليوحدوه)، على قول بعض السلف[٢]، ولهذا قال الإمام المصنف رحمه الله تحت المسائل: (**الثانية: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه).**

ويدل على ذلك آيات: منها: قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) } [التوبة: ٣١]، وقوله تعالى: {مَا أُمِرُوا

(١) ينظر: «الدرر السنية» (٢/ ٦٧-٦٨).

(٢) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ (١/ ١١).

إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]

الآية الثانية: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]: فيها الدلالة على أنه أرسل الرسل في كل طائفة من الناس يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، فيؤمرون بالتوحيد، وينهون عن الشرك.

الآية الثالثة: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣]: فيها الدلالة على أن الله أمر وأوصى بالتوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبد غيره، وأمر بما يكمل التوحيد من الأفعال.

الآية الرابعة: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء: ٣٦]: فيها الدلالة على أن عبادة الله من دون البعد عن الشرك غير مجد، بل المنجي: عبادة الله والبعد عن الشرك.

الآية الخامسة: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [الأنعام: ١٥١]: فيها الدلالة على أن أول المحرمات الشرك، وأنه أعظم المحرمات؛ فبدأ به؛ لأنه مناقض للتوحيد.

حديث معاذ مرفوعا: «**حق الله على العباد**»(١): أراد المصنف من إيراد الحديث بيان حق الله تعالى على العباد بإخبار رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو عبادته وحده لا شريك له، وهو التوحيد.

المقصد الثامن: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله وحده لا شريك له، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه ما أوجد الجن والإنس إلا لعبادته، وعبادته: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

وأصل العبادة: التذلل والخضوع، وهي اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠)، ولفظه: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم، فيتكلوا».

الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

الفقرة الثانية: التوحيد هو أول دعوة الرسل:

التوحيد هو أول دعوة الرسل، وأول ما أمر الله به من الواجبات؛ فجميع الكتب السماوية، وجميع الرسل - وخصوصًا نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دعوا إلى التوحيد بإفراد الله وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين الله وحده، ونهوا عن ضده من الشرك، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل : ٣٦]، فأخبر الله تعالى أنه أرسل في كل طائفة من الناس رسولا يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، فدين الأنبياء واحد وهو إخلاص العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم، قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة :٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا الأصل وهو التوحيد هو الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، ... وقد ذكر الله عز وجل عن كل من أرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾»(١).

الفقرة الثالثة: إخلاص العبادة وعدم الشرك به:

ذلك هو دين الأنبياء والرسل الكرام؛ فيجب إفراد الله بالعبادة، والعبادة لا تصح إلا بالكفر بالطواغيت التي عُبدت من دون الله، وقد قرن الله تعالى الأمر بعبادته في قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء : ٣٦]. بالنهي عن الشرك به فيها؛ فدل على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.

قال الحافظ النووي رحمه الله: «قد نبّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشُّعب إلا بعد صحته»(٢).

والشرك حرام قليله وكثيره كبيره وصغيره، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [المائدة: ١٥١]، فالآية والتي قبلها تدل على وجوب إفراد الله سبحانه بالعبادة دون غيره، فلا يجوز أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فإخلاص الدين لله، وعبادته وحده، هو الركن الركين، ومن لم يأت به، فليس بمسلم، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٥٤).
(٢) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/٤).

«بني الإسلام على خمسة: على أن يوحد الله ...» [١].

وفي رواية: **«على أن يُعْبَد الله، ويُكْفر بما دونه»**[٢].

وفي رواية: **«من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»**[٣].

الفقرة الرابعة: التوحيد أول الطاعات وأفضلها:

التوحيد أول الطاعات وأفضلها، فمن بركة التوحيد الطاعة بعدها، ومن شؤم السيئة - ولا أشأم من سيئة الكفر والشرك - أن تتلوها سيئات وموبقات.

الفقرة الخامسة: بيان حق الله على العباد وحق العباد على الله:

حق الله على العباد هو عبادته وحده لا شريك له، وذلك هو التوحيد، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا؛ فاقتصر على نفي الشرك؛ لأنه يقتضي تحقيق التوحيد.

وهذا الحق هو الذي جعله الله تعالى على نفسه كرمًا منه وفضلا، ومعناه متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده.

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر ﷺ، واللفظ لمسلم.
(٢) ينظر: تخريج مسلم السابق.
(٣) رواه مسلم (٢٣) من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه.

المقصد التاسع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

تقدم بيان أن التوحيد الواجب عند أهل الكلام والتصوف هو التوحيد الاعتقادي (توحيد الربوبية) وهو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل، وحقيقة التوحيد عندهم هي اعتقاد الوحدانية ذاتاً وصفةً وفعلًا.

فتوحيد الأفعال عندهم يقابله توحيد الربوبية عند أهل السنة، وتوحيد الصفات والذات عند أهل الكلام يقابله توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة، أما توحيد الألوهية فلا يعدونه ضمن حقيقة التوحيد، فهم يفسرون الإله بمعنى الرب، فاقتصروا على التوحيد الاعتقادي وأهملوا التوحيد العملي، جاء في رسالة محمد بن عفالق -أحد المعارضين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب- أن مجرد الإقرار بالربوبية هو التوحيد وغايته، فقال: «التوحيد إفراد القديم من المحدَث، وإفراده بالربوبية والوحدانية»، ويقول عن العوام: «فإن فطرتهم جُبِلَتْ على توحيد الصانع وقِدَمِه وحدوث ما سواه من الموجودات»[١].

وهذا خطأ بيِّن، فتوحيد الواجب وهو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل كما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة ألا وهو توحيد الألوهية المذكور بعض تلك الأدلة التي استشهد بها الإمام المصنف.

---

(١) ينظر: «جواب ابن عفالق على رسالة عثمان بن معمر» ق(٥٧، ٦١، ٦٥)، و«مسائل الاعتقاد عند علماء نجد قبل الدعوة الإصلاحية» (صـ ١٧٤)

٢- باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

١- وقول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾(١).

٢- عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» أخرجاه(٢).

٣- ولهما في حديث عتبان: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»(٣).

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قال موسى - عليه السلام -: يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**»(٤) رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

٥- وللترمذي- وحسنه- عن أنس: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا: لأتيتك بقرابها مغفرة**» (٥).

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

---

(١) الأنعام: [٨٢].

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٤) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٠٢)، وأبو يعلى (١٣٩٣)، وابن حبان (٦٢١٨)، والطبراني في «الدعاء» (١٤٨٠)، والحاكم (١٩٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٧/٨)، وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٢/١٠)، ووجه الشاهد منه معناه صحيح.

(٥) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه، وبنحوه رواه مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله».

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيرا ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات.

الحادية عشرة: أن لهن عمارا.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافا للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحا منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد، ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة، والفضائل المتنوعة مثل التوحيد؛ فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله. فقول المؤلف رحمه الله: «وما يكفر من الذنوب» من باب عطف الخاص على العام؛ فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله: أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما.

ومن أجل فوائده: أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

ومنها: أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة

ومنها: أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه.

ومن أعظم فضائله: أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله: أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها: أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

ومنها: أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام. فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان، يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله: أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي. ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله، لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققا كاملا بالإخلاص التام، فإنه يصير القليل من عمله كثيرا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله، كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة(١)، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

وزنت تسعة وتسعين سجلا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر[(١)]، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا، والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها: أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

قال السعدي: «قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾** أي: يخلطوا **﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾** الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه: **«إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء».**

(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٦٣).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان شيء من فضائل التوحيد، وآثاره الحميدة، ونتائجه الجميلة، وأنه أعظم الأعمال في تكفير الذنوب؛ لأنه أساس الأعمال، وأصلها، والأعمال لا تقبل إلا بعد وجوده.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

أراد أن هذا باب فيه ذكر لبعض الآيات والأحاديث الدالة على فضل وثمرة التوحيد، وبيان ما يغفره الله من الذنوب بسببه، وما يتجاوز الرب عن العبد لأجله، وفضل التوحيد هو ثمراته، وأجره، وثوابه.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

ساق المؤلف هذا الباب لبيان فضل التوحيد وآثاره الحميدة، وثمراته الجميلة العظيمة في الدنيا والآخرة.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر الإمام رَحِمَهُ اللهُ في الباب السابق أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول الحقوق الواجبة على العباد ناسب أن يذكر فضل التوحيد، حتى يكون ذلك أدعى للقبول، وأدعى لرغبة الناس فيه.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام:٨٢] : فيها بيان فضل التوحيد الكامل، وأن الأمن التام يحصل بالتوحيد الكامل، ومن نقص توحيده ينقص بقدره أمنه واهتداؤه.

والحديث الأول: حديث عبادة: «**من شهد أن لا إله إلا الله ...**»: فيه بيان أن الموحد يدخل الجنة، وهذه فضيلة كبيرة من فضائل التوحيد، سواء كان دخوله أوليا كما هو حال السابقين، أو دخولا بعديًا كما هو حال الظالمي أنفسهم، ولا ريب أن هذه الشهادة ينتفع بها من أتى بالتوحيد قلبًا وعملا، ولا يحصل التوحيد دون اعتقاد وعمل.

وأما الحديث الثاني: حديث عتبان: «**فإن الله حرم على النار**»: فيه بيان خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أهل التوحيد ممنوعون من دخول النار، وهذا إنما

يكون لمن قالها يريد وجه الله ومرضاته، وأهل هذه المرتبة إيمانهم وإخلاصهم الكامل يردعهم عن السيئات، وعن الإصرار عليها، فيدخل الجنة ابتداء مع أول الداخلين(١).

والثالث: حديث أبي سعيد: «**يا موسى لو أن السموات...**»: أورد المصنف الحديث لأنه يدل على فضل كلمة التوحيد، وأنها ذكر، ودعاء، ومن قالها بصدق ويقين حصل له رجحان الميزان والفوز والسعادة، وهذا من فضائل التوحيد.

والرابع: حديث أنس: «**يا ابن آدم لو لقيتني**»: أورده المصنف لبيان أن الخطايا مرجوحة مع حسنة وحقيقة التوحيد، وكما رجحت هذه الكلمة على المخلوقات، فإنها ترجح قائلها على جميع سيئاته وذنوبه (٢)، فهذا يدل على سعة فضل الله وعظيم ثواب التوحيد عند الله، وأنه مكفّر للذنوب (٣).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: بيان فضائل التوحيد:

وفضائل التوحيد كثيرة، ومن ذلك ما دل عليها الآيات والأحاديث الواردة في الباب، وهي:

١. أن التوحيد يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى قدر، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٢. أن جميع الأقوال والأعمال موقوفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب على التوحيد.

٣. أن الله تكفل لأهل التوحيد بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف، وحصول الهداية، وإصلاح الأحوال.

٤. أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة : ٣٨]. وقال تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾ [طه: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل : ٩٧].

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٩).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ٢١).
(٣) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ٢١).

٥. أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم إلى عبودية الخالق التي فيها سعادته وأمنه ونجاته.

٦. أنه يخفف على العبد المكاره ، ويهون عليه الآلام، فبسبب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة، وتسليم بأقدار الله المؤلمة للعبد.

٧. أنه يكفر الذنوب والخطايا.

الفقرة الثانية: نعمة الأمن والهداية من ثمرات التوحيد:

إن من حقق التوحيد فله الأمن، وطمأنينة النفس، وزوال الخوف والشقاء، مطلقا والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم أي: لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا المقصود به الشرك(١)؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:

---

(١) اختلف العلماء قديما وحديثا في معنى الظلم في الآية، على قولين مشهورين: أحدهما: أنه الشرك بالله تعالى، أي الشرك الأكبر، وصوب هذا القول ابن جرير الطبري، ورجحه إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب، وجماعة من أهل العلم المعاصرين، كابن عثيمين، وصالح الفوزان، وصالح آل الشيخ، رحم الله الأموات منهم، وحفظ الله الأحياء، واستدلوا بأدلة: منها الآية التي في سورة لقمان، وبحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي ورد فيه تفسير الظلم بالشرك، ولفظه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه «لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]» رواه البخاري برقم (٤٧٧٦)، ومسلم برقم (١٢٤). انظر: جامع البيان للطبري (٣٧٨/٩)، و وكتاب التوحيد لابن عبد الوهاب (ص١٢)، والقول المفيد لابن عثيمين (٦١/١-٦٢)، وإعانة المستفيد لصالح الفوزان (٤٨/١)، والتمهيد لصالح آل الشيخ (ص٢٣-٢٥)

الثاني: وهو عموم الظلم وأنه شامل لأنواع الظلم، وذلك إبقاء للآية على عمومها، وممن رجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ سليمان بن عبد الله، وغيرهم. انظر: جامع البيان للطبري (٣٧٩/٩)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٧٩/٧-٨٠)، وتيسير العزيز الحميد لسليمان (ص٥٠)، والتمهيد لصالح آل الشيخ (ص٢٣-٢٥).

والراجح هو القول الأول، ومن نفيس الكلام هاهنا ما قرره الشيخ صالح آل الشيخ حيث قال حفظه الله: (**الظلم هنا: هو الشرك، كما جاء في تفسير ذلك في الصحيحين من حديث ابن مسعود...فالظلم هنا - في مراد الشارع -: هو الشرك، فيكون مقصود الشيخ من إيراد هذه الآية تحت هذا الباب: بيان فضل من آمن ووحّد، ولم يلبس إيمانه وتوحيده بشرك، وأن له الأمن التام، والاهتداء التام؛ فهذا هو وجه مناسبة الآية للباب. ومعنى الآية: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.**

وجاء الظلم في الآية مُنَكَّرًا، في سياق النفي، وهو قوله تعالى {وَلَمْ يَلْبِسُوا} [الأنعام: ٨٢] وهذا يدل على عموم أنواع الظلم، لكن هل المراد بالعموم هنا العموم المخصوص، أو العموم الذي يراد به الخصوص؟ الجواب: أن المراد بالعموم هنا: هو العموم الذي يراد به الخصوص؛ لأن العموم عند الأصوليين تارة يكون باقيا على عمومه، وتارة يكون عموما مخصوصا يعني دخله التخصيص، وتارة يكون عموما مرادا به الخصوص يعني أن لفظه عام، ولكن يراد به الخصوص فهذه أوجه ثلاثة، والوجه الأخير هو الذي أراد الشيخ - رحمه الله - الاستدلال به من الآية. صحيح أن (الظلم) هنا جاء نكرة في سياق النفي (لم) : فيدل على العموم، لكنه عموم مراد به الخصوص؛ وهو خصوص أحد أنواع الظلم كلها؛ لأن من أنواع الظلم: ظلم العبد نفسه
=

١٣]، والذين لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، والمشرك لا يحصل له هداية ولا أمن بل حظه الضلال والشقاء.

الفقرة الثالثة: «لا إله إلا الله» هي الكلمة الطيبة:

«لا إله إلا الله» هي الكلمة الطيبة العالية، الشريفة الغالية، وهي كلمة التوحيد، وأصلها تصديق بالقلب، وفرعها إقرار باللسان، وأكملها عمل بالأركان من استمسك بها فقد سلم، ومن اعتصم بها فقد عصم (١).

الفقرة الرابعة: معنى (شهادة أن لا إله إلا الله) ومتى تنفع قائلها:

معنى هذه الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله: أي: لا معبود بحق إلا الله وحده، وتنفع قائلها: إذا كان عارفًا لمعناها، عاملا بمقتضاها باطنا وظاهرًا، ويدل لفظ «شهد» على أن هذه الكلمة لا تنفع إلا عن علم، ويقين، وإخلاص، وصدق، كما هو الحال في الشاهد، أما النطق بها من غير معرفة لمعناها، ولا يقين بها، ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك، وإخلاص القول، والعمل

الله، فغير نافع.

الفقرة الخامسة: المخالفون لأهل السنة في فهمهم لكلمة التوحيد:

اعلم أخي المسلم: أن كثيرًا من الناس قد أخطئوا في فهم كلمة التوحيد، وإجمال ذلك فيما يلي:

١ - الوجودية الصوفية الاتحادية قالوا معناها: لا موجود إلا الله؛ لأنهم ظنوا أن كل موجود من الكلب والخنزير والقردة والفهد، والسماء والأرض، والبر

بالمعاصي، أو ظلم العبد غيره بأنواع التعديات، ومنه ما هو ظلم من جهة حق الله - جل وعلا - بالشرك به، فهذا هو المراد بهذا العموم، فيكون عاما في أنواع الشرك، وبهذا يحصل وجه الاستدلال من الآية، فيكون معنى الآية: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ} [الأنعام: ٨٢] يعني لم يلبسوا توحيدهم بنوع من أنواع الشرك. {أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] فـ (الأمن) هنا: هو الأمن التام في الدنيا، والمراد به أمن القلب وعدم حزنه على غير الله - جل وعلا - والاهتداء التام في الدنيا وفي الآخرة، وكلما وجد نقص في التوحيد بغشيان العبد بعض أنواع الظلم الذي هو الشرك، إما الشرك الأصغر، أو الشرك الخفي، وسائر أنواع الشرك، ونحو ذلك، ذهب منه من الأمن والاهتداء بقدر ذلك. هذا من جهة تفسير الظلم بأنه الشرك.

فإذا فَسَّرْتَ الظلم بأنه جميع أنوع الظلم - كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - فإنه يكون - على هذا التفسير - مقابلة بين الأمن والاهتداء، وبين حصول الظلم، فكلما انتفى الظلم: وُجِد الأمن والاهتداء، وكلما كمل التوحيد وانتفت المعصية: عظم الأمن والاهتداء، وإذا زاد الظلم: قَلَّ الأمنُ واهتداء بحسب ذلك). التمهيد (ص٢٣-٢٥).

الثاني

(١) ينظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/١١٢-١١٣).

والبحر، هو الله تعالى بعينه (١).

٢ - كثير من المتكلمين من المعتزلة، والماتريدية والأشعرية، فسروا الإله بالرب، والصانع، والخالق فقط(٢).

الفقرة السادسة: حصول السمو والرفعة لأهل «لا إله إلا الله»:

أهل (لا إله إلا الله) يحصل لهم الرفعة والسمو في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿**حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١].

قال الشيخ صالح الفوزان: «فدلت الآية على أن التوحيد علو وارتفاع، وأن الشرك هبوط وسقوط، قال العلامة ابن القيم رحمهُ اللَّهُ: "شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير التي تخطف أعضاءه، وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله تعالى، وتهزه وتزعجه، وتلحقه إلى مكان هلاكه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء"...»(٣).

الفقرة السابعة: مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله:

تقتضي هذه الشهادة الإيمان بمحمد صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأنه -عليه الصلاة والسلام- عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، وأن طاعته ومحبته وتوقيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يلزم منها عبادته؛ فطاعته ليست استقلالية، إنما هي تابعة لطاعة الله تعالى، وكذا محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الفقرة الثامنة: عبودية عيسى ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

عيسى المسيح ابن مريم البتول عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل، أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عن الكفر والشرك، وزهدهم في الدنيا وحثهم على التقوى، هذا منتهى ما وصل إليه عيسى

---

(١) ينظر لمعرفة بطلان قولهم رسالة «حقيقة مذهب الاتحاديين» لشيخ الإسلام، وهي مطبوعة ضمن «مجموعة الرسائل والمسائل» (٤/٢-١٠١).

(٢) ينظر لبيان بطلان هذا التفسير رسالة «العبودية»، و«الرد على البكري» لشيخ الإسلام.

(٣) ينظر: «محاضرات في العقيدة والدعوة» للشيخ صالح الفوزان (١/ ٧٣-٧٢)، وكلام ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣١١/٢).

من مراتب الكمال البشري إلى أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة والعبودية التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات.

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته الله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقا لعبوديته ازداد كماله وعلت درجته، وحصلت هذه المرتبة لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كملت عبوديته لله تعالى؛ لذا ذكره الله باسم العبد في أشرف المقامات، فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١].

ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق، وأضلهم، بل يكفر بذلك [١].

الفقرة التاسعة: معنى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على ما كان من العمل»:

هذه الكلمة تعني على ما كان من العمل دون الشرك والكفر، أما الشرك فلا يغفر الله لصاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء : ٤٨].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ومعنى قوله: «**على ما كان من العمل**» أي: من صلاح أو فساد، لكن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «**على ما كان من العمل**»، أي: يدخل أهل الجنةِ الجنةَ على حَسَب أعمال كل منهم في الدرجات» [٢].

الفقرة العاشرة: معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله»:

أي: من قال: «لا إله إلا الله» عارفًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ الله: «اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار ؛ كهذا الحديث، ... ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم على النار، ... وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها؛ كما جاءت مقيدة، وقالها: «**خالصًا من قلبه**» [٣]، «**مستيقنا بها**

---

(١) الجمع في الحديث السابق بين محمد وعيسى -عليهما الصلاة والسلام- يبين أن عيسى مثل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه عبد ورسول وليس ربًّا ولا ابنا للرب تعالى، وأن انفراد عيسى عن محمد في أصل الخلقة لا يقتضي خروجه عن مرتبة العبودية لله عَزَّ وَجَلَّ إلى مرتبة الألوهية، كما ضلت في ذلك النصارى.

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٦/٤٧٥).

(٣) رواه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلبه»[١]، «**غير شاك فيها**»[٢] بصدق ويقين؛ فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا؛ فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة[٣].

وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول: «لا إله إلا الله» يدخل النار، ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم[٤]؛ فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون الله.

وتواترت بأنه يحرم على النار من قال : لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء؛ كما في الحديث: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»[٥]، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف : ٢٣].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص، ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصرًا على ذنب أصلا؛ فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذن لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ، ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلا يُمحى كما يُمحى الليل بالنهار»[٦].

الفقرة الحادية عشر: الإيمان بالجنة والنار:

---

(١) رواه مسلم (٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: أنه ذكر كلمة التوحيد، ثم قال: «**لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة**».

(٣) رواه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٦٥-٦٧).

أخبر الله تعالى في كتابه أنه أعد للموحدين المتقين جنة عرضها السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]. فالجنة حق ثابت لا شك فيه، وكذلك النار أعدها الله للكافرين، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾ [الكهف: ٢٩]. فهي حق لا شك فيه.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

زعم أهل الكلام والتصوف أن التوحيد الاعتقادي (توحيد الربوبيّة) هو المطلوب كما سبق بيانه، وله آثار عظيمة وجليلة عندهم، منها أنه يمنع صاحبه من الدخول في النار إذا كان في القلب مثقال حبةٍ ولو لمْ يعمل الأعمال الصالحة ويؤدي الشعائر الإسلامية.

٣- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

١- وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(١)

٢- وقال: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾(٢).

٣- عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك. فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه. فقال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**أنت منهم**»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**سبقك بها عكاشة**»(٣).

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه؟

الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

---

(١) النحل: [١٢٠].

(٢) المؤمنون: [٥٩].

(٣) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ المذكور بتمامه لمسلم.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأت وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا». فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «**أنت منهم**» علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له؛ فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد، وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره، فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد

والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة، إلى الله ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه: كمال القنوت لله، وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصودا بها وجه الله، متبعا فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾(١)، وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلى العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة. فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

قال السعدي: «يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي: مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين، ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء»(٢).

٢ـ وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «أي: لا شركا جليا، كاتخاذ غير الله معبودا، يدعوه ويرجوه ولا شركا خفيا، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم

---

(١) الأنعام: ١٣٢.
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٥١).

وأعمالهم وسائر أحوالهم»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن من حقق توحيده ، وسَلِمَ من الشرك والبدع والمعاصي؛ دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا الباب عقده المصنف لبيان فضل من حقق التوحيد، وأنه سبب لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب وتحقيق التوحيد هو الإتيان به على أكمل وجه، وأتم صورة، من غير إخلال بشيء من واجباته، ولا مستحباته، والبعد عن جميع نواقصه، فضلًا عن نواقضه.

ونواقض التوحيد: الكفر، والشرك، والنفاق.

ومن نواقصه: البدع المفسقة، والمعاصي.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من هذا الباب بيان ما لمحقق التوحيد من فضل، وبيان أن الناس يكونون في تحقيق التوحيد على أحوال؛ فمنهم من يحقق التوحيد؛ فله هذا الفضل العظيم، والثواب الجزيل، ومنهم من يأتي بالتوحيد الواجب فهو أقل من هذه المرتبة، وفي هذا إشارة إلى أن الناس من أهل التوحيد ليسوا في مرتبة واحدة، وأنهم على مراتب بحسب تحقيقهم للتوحيد وعدمه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر في الباب السابق فضل التوحيد وثمراته، ناسب أن يذكر بعده ثمرة عظيمة له - وهي ثمرة خاصة لأهلها الخاصين بها، وهي أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ [النحل:١٢٠]: أوردها

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٥٥٣).

المصنف لبيان أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد حقق كمال التوحيد؛ إذ اتصف بصفات هي الغاية في تحقيق التوحيد.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٥٩]: أوردها لبيان صفات أهل التوحيد والإيمان، الذين يستحقون دخول الجنان، وأنهم كانوا موحدين لله، مخلصين له، خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم الله، وهذا كمال التوحيد فمن أجل هذا دخلوا الجنة بسبب إخلاصهم الله بالتوحيد، وسلامتهم من الشرك.

وأما حديث ابن عباس: فقد أورده المصنف كذلك لبيان بعض صفات من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب وهم من حصلوا كمال الإيمان والتوحيد، فأدوا الواجبات وتركوا المحرمات والشركيات واعتمدوا وتوكلوا على الله، وفوضوا أمورهم إليه مع أخذهم بالأسباب المباحة، لكن تركوا ما يحوجهم إلى الناس كالاسترقاء، وأنهم ابتعدوا عن بعض المباحات التي فيها نقص؛ فجازاهم الله بأن أدخلهم الجنة بلا حساب(١).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى تحقيق التوحيد وجزاء من يحققه:

تحقيق التوحيد هو تهذيب التوحيد وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ فلا يعمل الموحد شركًا يحبطه، ولا بدعة تقدح فيه، ولا معصية تنقص من كماله، فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه بالإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي؛ فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها.

الفقرة الثانية: علامات تحقيق التوحيد:

من علامات تحقيق التوحيد أنه إذا كمل في قلب العبد حبب الله لصاحبه الإيمان، وزينه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

قال ابن القيم رحمه الله: «فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ٣٢).

غيره فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه، وما يدعو إلى محبته؛ فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبّه، وحُسْنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان»[١].

وكذلك من علامات تحقيق التوحيد أن يتقبل العبد المؤمن أقدار الله المؤلمة بنفس راضية؛ فهاهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أعظم من حقق التوحيد، يتقبل أقدار الله المؤلمة والمكاره والآلام؛ بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم تام.

عن ابن مسعود ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكا شديدًا؛ فقلت: يا رسول الله: إنك لتوعك وعكا شديدًا؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»، فقال عبد الله: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجل**»[٢].

الفقرة الثالثة: أعظم ما يحقق التوحيد: إخلاص الدين لله:

من الناس من يحقق التوحيد بالإخلاص الكامل التام؛ فيكون من أولئك السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذا يكون بخلوص القلب لله تعالى، وبخلوص الأعمال والأقوال، فلا يلتفتون إلى أحد سوى الله تعالى، وليس في قلوبهم رغبة إلى أحد سوى الله تعالى، ولا يطلبون الرقية من أحد وإن كانوا في حاجة إليها، إنما توجههم لله وحده.

الفقرة الرابعة: صفات إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام الواردة في الآية:

وصف الله إبراهيم عليه السلام بصفات هي الغاية في تحقيق التوحيد، وسبيل مؤد إلى تحقيقه، وهي:

١ ـ أنه كان أمة قدوة وإمامًا ومعلمًا للخير.

٢ ـ أنه كان قانتًا؛ أي: مداومًا على طاعة الله وعبادته.

٢ ـ أنه كان حنيفًا :أي: مقبلًا على الله معرضًا عما سواه.

٤ـ أنه لم يكون من المشركين لا في القول، ولا في العمل، ولا في الاعتقاد، لصحة إخلاصه، وكمال صدقه، وبعده عن الشرك.

---

(١) ينظر: «شفاء العليل» لابن القيم (١٩٣/١) ط عالم الفوائد.
(٢) رواه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

الفقرة الخامسة: ما يدل على تحقيق التوحيد:

يدل على تحقيق التوحيد أمور، هي:

١ ـ امتلاء القلب بالإيمان والتوحيد والإخلاص.

٢ـ تصديق ما في القلب من الإيمان بالأعمال الصالحة بأن تنقاد الجوارح لأوامر الله طائعة منيبة.

٣ـ كمال القنوت لله، وقوة التوكل على الله، بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يتطلع إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله المسألة المحرمة (١) التي تنافي كمال التوحيد الواجب.

٤ ـ ألا ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي.

الفقرة السادسة: الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله:

التوكل على الله: هو الاعتماد على الله في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، والثقة به في تسهيل ذلك.

والتوكل من أعظم الأسباب؛ فإنه سبب لوقاية الله وكفايته؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣].

والأخذ بالأسباب المادية المشروعة لا ينافي التوكل على الله، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وكذا مباشرة الأسباب والتداوي على وجه مشروع غير قادح في التوكل.

فإن الأخذ بالأسباب العادية الكونية والشرعية من الشرع، وذلك من التوكل، وإنما القادح في التوحيد الاتكال على الأسباب وحدها دون تعلق القلب بمسبب الأسباب، الذي إن شاء أن يقع المسبب يقع، وإن شاء ألا يقع لا يقع.

وترك الأسباب قادح في الشرع والعقل، فينبغي الأخذ بالسبب مع تعلق القلب بالله تعالى، الذي يرتب ـ إن شاء ـ المسببات على أسبابها.

الفقرة السابعة: معنى «لا رقية إلا من عين»:

هذا القول يدل على حصر الرقية في العين، أو للملدوغ، والنفي في أوله ليس

---

(١) لما روى مسلم في «صحيحه» (١٠٤١)، عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سأل الناس أموالهم تكثرًا؛ فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر**».
وقوله: «تكثرًا» هو مفعول له، أي: ليكثر ماله لا للاحتياج.

منصبًّا على الوجود، ولا على التحريم، وإنما هو منصب على الأولية، فيكون المعنى: لا رقية أشفى أو أولى من رقية العين والحمة، وإنما حمل الحديث على نفي الأولية؛ لأن النبي ﷺ رَقَى، ورقي[١].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

تحقيق التوحيد عند أهل الكلام هو اعتقاد وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فمن اعتقد أن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر مع إثباته لصفات المعاني ونفيه للصفات الخبرية والاختيارية فقد حقق التوحيد -عندهم-، والمفاضلة عندهم في التوحيد في تركهم للأسباب الشرعية والفناء في ذلك، وهذا الاعتقاد عندهم هو العبادة التي لا تُصرَف إلا لله تعالى.

ومن الانحرافات الخطيرة والأخطاء التي وقع فيها أهل التصوف أنهم يقررون أن تحقيق التوحيد هو بالفناء في توحيد الربوبية، وهو أنْ يشهد المرء أن الله رب كل شيء وخالقه ومالكه ولا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن نفسه، وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفه عن معرفته، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لمْ يزل، والمحقق له يسمى عارفا عندهم، وأعلى مراتبه أنْ يغيب عن الخلق باستحضاره للحق، وبمشهوده -أي ربه- عن شهوده لنفسه، وبمعروفه –أي: ربه- عن معرفته لنفسه، وهذه الغيبة الصوفية[٢].

قلت: هذا حالٌ ناقصٌ، فمن جعله نهاية السالكين فهو أضل من حمار أهله.

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ١٠٤). والأدلة على ذلك كثيرة، ومن ذلك ما رواه مسلم (٢١٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقاه جبريل، قال: **«باسم الله يُبْريك، ومن كل داء يَشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين»**.
وروى البخاري (٥٧٤٤)، ومسلم (٢١٩١) من حديثها أيضًا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقي بهذه الرقية **«أذهب الباس، رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت»**.

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/١٦٩)، و«شرحي للتدمرية» (صـ ٣٧٧).

٤- باب الخوف من الشرك

١- وقول الله : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾(١).

٢- وقال الخليل - عليه السلام -: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾(٢).

٣- وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(٣).

٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار**» رواه البخاري(٤).

٥- ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار**»(٥).

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

---

(١) النساء: [٤٨].
(٢) إبراهيم: [٣٥].
(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٣٠) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وحسنه الحافظ في «بلوغ المرام» (١٤٨٤).
(٤) رواه البخاري (٤٤٩٧).
(٥) رواه مسلم (٩٣).

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾(١).

العاشرة: فيه تفسير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري(٢).

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة، وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي. فأما الشرك الأكبر:

فهو أن يجعل لله ندا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلا، أو يسميها بغير ذلك من الأسماء، فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها(٣) إلى الشرك، كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة، وكالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك. فإذا كان الشرك ينافي التوحيد، ويوجب دخول النار والخلود فيها، وحرمان الجنة إذا كان أكبر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه، كان حقا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق. وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألها، وإنابة وخوفا ورجاء وطمعا وقصدا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد، وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع

(١) إبراهيم: [٣٦].
(٢) يريد حديث ابن مسعود المتقدم آنفًا.
(٣) «اعتُرِض على هذا التعريف لأمرين: **الأول:** جعله كل وسيلة إلى الشرك الأكبر شركًا أصغر تعريفٌ لا يمكِن حده وضبطه، فيَرِد عليه أنْ يُقال: متى يكون الشرك وسيلة إلى الشرك الأكبر؟ ففيه إيهام، والمراد من التعريف التوضيح، **الثاني:** أنه جعل الاعتبار بمآلات الأشياء، أي: أن الشيء يُعَدُّ شركًا أصغر إذا كان يؤول إلى الأكبر، ومفهومٌ هذا أنه لا يعتبر ما سماه شركًا أصغر شركًا لذاته، بل لكونه وسيلة، ولا شك أنه بعد الاستقراء والتتبع لمْ يوجد شيء سماه الشرع شركًا أو ألحقه العلماء بالشرك الأصغر إلا وهو في ذاته يحمل سمات الشرك كما سيتضح، ولا يقدح في هذا الاعتراض كون كل ما كان شركًا أصغر وسيلة إلى الأكبر؛ لأن الكلام هنا في االعكس». ينظر كتاب: «الشرك الأصغر حقيقته وأنواعه» تأليف عبد الله السليم (صـ ٤٤).

الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

قال السعدي: «يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدا من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمتُه مغفرتَه.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئا، وما لهم يوم القيامة **﴿مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾**»[١].

٢- وقال الخليل -عليه السلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥].

قال السعدي: «أي: واذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة؛ إذ قَال: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾** أي: الحرم **﴿آمِنًا﴾** فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا، فحرمه الله في الشرع ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم، حتى إنه لم يُرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالأمن فقال: **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾** أي: اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها»[٢].

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٨١).
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٢٦).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

وجوب الخوف من الشرك ومن خطورته، فالمؤمن يخاف من الشرك، ومن المعاصي، ويبتعد عنها، وخاصة الشرك، ولا يأمن ذلك على نفسه.

هذا وقد بلغتْ آيات القرآن التي فيها لفظ الشرك وما تصرف منها في الحكم على الشرك وأهله ما يُقارب مائة وخمس وستون (١٦٥) آية، وأما الأحاديث الصحيحة التي فيها لفظ الشرك وما تصرف منه فهي كثيرة جدا، فلا غرابة أنْ يكون محور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- الدعوة إلى إخلاص الدين بالله وحده والتحذير من الشرك وذمه وذم أهله والبراءة منه، لأن الشرك أعظم مفسدٌ للعلم والعمل الذي يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى، وليس على الإنسان أضر من إفساد عقيدته ودينه.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

لما كان الشرك ينافي التوحيد، ويحبط العمل، ويوجب دخول النار، والخلود فيها، وحرمان الجنة، إذا كان شركًا أكبر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة من الشرك، ذكر المؤلف أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه، ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله عَزَوَجَلَّ العافية منه، كما فعل ذلك الأنبياء، والأصفياء، وخيار الخلق(١).

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن هذا التوحيد له ضد، وأنه لا يتحقق إلا بالبعد عن ضده، ولا يأتي إلا بترك ضده؛ فالشرك ينافي التوحيد من كل وجه، ولا يجتمع الشرك الأكبر والتوحيد في قلب امرئ، بل الشرك والتوحيد متناقضان؛ فإذا وُجِدَ أحدهما انتفى الآخر، ولهذا ينبغي الخوف منه.

وأيضًا فإن في عقد هذا الباب الرد على من زعم أن التوحيد مفهوم ولا يحتاج إلى مدارسة وتكرار، فذكر المصنف بعض الأدلة التي تدل على خوف الأنبياء

---

(١) «لما كان الشرك أعظم ذنب عُصِيَ الله به اشتد الخوف منه؛ ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتب على ذنب سواه؛ من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه، ويحذره، ويعرف أسبابه ومبادئه، وأنواعه؛ لئلا يقع فيه». «تيسير العزيز الحميد» (صـ٨٢).

منه؛ فكيف بعامة الناس؟!

وأيضًا للدلالة على أن الخوف من الشرك من كمال التوحيد، فيلجأ العبد إلى ربه الذي يعينه فيخلصه من الشرك وحبائله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، ناسب أن يذكر أن من وقع في الشرك دخل النار، وصار من أهلها المخلدين فيها، ولأجل ذلك ينبغي أن يكون الموحد على خوف من الوقوع فيه، والخوف من إحباط العمل من كمال التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨] : أوردها المصنف لِعِظَم ما دلت عليه، حيث إنها تبين عظم الشرك، وخطورته؛ لأن الإنسان إذا مات عليه لم يُغفر له، بل هو خالد مخلد في النار، بخلاف سائر المعاصي فهي تحت المشيئة، إن شاء عذبه بقدرها، ودخل الجنة، وإن شاء غفر له ابتداء؛ فالآية جاءت محذرة مخوفة من الشرك بأنه ذنب لا يغتفر.

الآية الثانية: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥]: استدل بها المصنف لبيان خطورة الشرك؛ لأن إمام الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخاف من الشرك؛ فوجب التأسي به، وأن نكون أولى بالخوف منه.

وأما الحديث الأول: «**أخوف ما أخاف**»: ففيها الدلالة على خوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته من الرياء، وأنه خطر جسيم - لا سيما على الصالحين - ؛ فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف على أصحابه من الشرك الأصغر، مع كمال إيمانهم؛ فكيف بمن دونهم؟.

الحديث الثاني: «**من مات وهو يدعو الله ندا دخل النار**»: استدل به المصنف على أن اتخاذ الأنداد سبب لدخول النار والخلود فيها، واتخاذ الأنداد هو الشرك الذي بوب عليه المصنف، وهو: أن تشرك غير الله معه في العبادة.

الحديث الثالث: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**»: ذكره المصنف لبيان وجوب الخوف من الشرك، والتحذير منه.

والحديث فيه موجبتان :

الموجبة الأولى: أن من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة.

والثانية: أن من لقيه وهو مشرك دخل النار(١).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الشرك: معناه، وأنواعه:

الشرك هو: صرف شيء من العبادة لغير الله ، وهذا هو الشرك الأكبر.

والشرك من حيث هو نوعان:

الأول: الشرك الأكبر:

وهو أن يجعل الله شريكا في عبادته، يدعوه، ويرجوه، ويخافه، أو يحبه كمحبة الله، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، فهذا هو الشرك الذي حرم الله على مرتكبه الجنة ومأواه النار.

الثاني: الشرك الأصغر:

ومعناه: هو كل ما نهى عنه الشرع، مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركاً(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك فهو نوعان: أكبر، وأصغر؛ فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو: أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿**تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة؛ كما هو حال أكثر مشركي العالم»(٣).

ومن أهل العلم من يقسم الشرك إلى ثلاثة أقسام: قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «واعلم أن ضد التوحيد الشرك، وهو ثلاثة أنواع: شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي...»(٤)، ثم بين كفارة الشرك الأصغر فذكر حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رَضِيَ الله عَنْهُ

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٣٨).
(٢) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء» (١/ ٥١٧).
(٣) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٣٩).
(٤) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (صـ ٦٩-٧٠)، و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (١/ ٦٦١-٦٦٢).

إلى النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلم، فقال: «**يا أبا بكر، للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟**» قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»(١).

الفقرة الثانية: التعلق بغير الله تعالى أساس الشرك:

أساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله تعالى، ولا ريب أن من تعلق بغير الله تعالى فإنه مخذول.

قال تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا**﴾ [الإسراء:٢٢]. أي: مذموما لا حامد لك، ومخذولا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورا محمودًا؛ كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا؛ كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا؛ كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور(٢).

الفقرة الثالثة: العلاقة بين الكفر والشرك:

الشرك والكفر قد يطلقان بمعنًى واحد، وهو الكفر بالله واسم لمن لا إيمان له، وقد يُفرَّق بينهما، فيُخَص الشرك بقصد الأوثان وغيرها من المخلوقات مع الاعتراف بالله، فيكون الكفر أعم(٣).

الفقرة الرابعة: خطر الشرك ووجوب الخوف منه:

الشرك أظلم الظلم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾(٤) وقد ضرب الله للمشرك مثالاً: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(٥) وقال تعال: ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾(٦)، ومما يدل على خطره أنه الذنب الذي لا يغفره الله البتة إلا بالتوبة،

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وأبو يعلى (٥٩-٦١)، وابن بطة في «الإبانة» (٩٨١)، وفي إسناده ضعف؛ كما في «المطالب العالية» للحافظ (٣٢١٢)، ومعناه له شواهد؛ ولذلك صححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».
(٢) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٥٨).
(٣) ينظر: «حاشية ثلاثة الأصول» لعبد الرحمن بن قاسم (صـ ٣٥).
(٤) لقمان: ١٣
(٥) الزمر:٢٩
(٦) الحج: ٣١

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾(١)، ومما يدل كذلك على خطورته أن الجنة حرام على المشرك وداره جهنم خالدًا فيها أبدًا، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾(٢).

وأعمال المشرك الصالحة تحبط بسبب شركه كما قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾(٣).

ومما يدل على خطورته خوف النبي ﷺ على أمته من الوقوع في الشرك، فقد جاء في الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»(٤).

وكذلك من قبح الشرك وصف الله للمشرك بالنجاسة في قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾(٥)،(٦).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: «{**نَجَسٌ**} أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئا؟.

وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تَقَذُّرَهُم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة»(٧).

الفقرة الخامسة: حكم الأعمال والأقوال التي خالطت الشرك:

الأعمال والأقوال إذا قامت على التوحيد، وإخلاص الدين، أثمرت وأينعت،

---

(١) النساء: ٤٨
(٢) المائدة: ٧٢
(٣) الفرقان: ٢٣
(٤) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٣٠) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وحسنه الحافظ في «بلوغ المرام» (١٤٨٤).
(٥) التوبة: ٢٨
(٦) ينظر كتاب: «الشرك الأصغر حقيقته وأنواعه» تأليف: عبد الله السليم (صـ ٢٩).
(٧) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن» (صـ ٣٣٣).

وآتت أُكلها، وعادت بالخير على صاحبها في الدنيا والآخرة، أما إذا خالطت شائبة من الشرك كدرت صفوها وسلبت خيرها، وعادت وبالا على صاحبها.

قال ابن القيم رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ [الفرقان:٢٣]: «فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثورا، لا ينتفع بها صاحبها بشيء أصلا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرى سعيه كله ضائعا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سَعِدَ أهل السعي النافع بسعيهم»(١).

الفقرة السادسة: بيان الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

الشرك الأكبر	الشرك الأصغر
١ - يخرج العبد من ملة الإسلام.	لا يخرج العبد من ملة الإسلام
٢ - يحبط الأعمال كلها جملة.	لا يبطل العمل إلا إذا خالطه من أصله أو غلب عليه.
٣- موجب للخلود في النار.	لا يوجب الخلود في النار، فصاحبه تحت مشيئة الله.
٤- يحل النفوس والأموال.	لا يحل النفوس والأموال.
٥ - لا يغفر الله لصاحبه.	قد يغفر الله لصاحبه.

الفقرة السابعة: الشرك سبب في ضلال كثير من الناس وفضيلة من سلم منه:

الشرك سبب في ضلال كثير من الناس عن طريق الحق والصواب إلى طريق الباطل والضلال، والدليل قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**﴾ [إبراهيم:٣٦].

---

(١) ينظر: «الرسالة التبوكية = زاد المهاجر» لابن القيم (صـ ٥٩) ط عالم الفوائد.

وإضلال الناس كان بعبادتهم للأصنام والافتتان بها؛ فضلوا وتاهوا في أودية الشرك، فإذا افتتن خلائق كثيرة من الناس بعبادة الأصنام والشرك، ووقعوا فيه؛ فهذا يدل على فضيلة الأقلية من الناس الذين سلموا من الشرك.

الفقرة الثامنة: خوف إمام الموحدين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشرك:

دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد استجاب الله دعاءه في بعض بنيه دون بعض؛ فإذا كان خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كسر الأصنام بيده، اشتد خوفه على نفسه وعلى بنيه من الشرك بسبب الافتتان بالأصنام، فسأل الله له ولبنيه الوقاية من عبادتها؛ فنحن أولى بالخوف منه لضعف إيماننا؛ فيجب التأسي به، وأن نكون أولى بالخوف منه.

وكان إبراهيم التيمي رحمه الله يقص، ويقول في قصصه: "من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول: رب: **{وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]**"(١).

الفقرة التاسعة: الرياء من الشرك الأصغر:

الرياء: مأخوذ من الرؤية، وهو أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس، وقد يبتلى به الصلحاء، وهو شرك أصغر، وقد خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه مع كمال إيمانهم؛ لأنه أكثر موافقة للنفس، ومحبة عندها، وأسهل للنفوذ إليها، فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة -مع كمال إيمانهم- فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الشرك الأصغر لتحقيق الإيمان.

الفقرة العاشرة: اتخاذ الأنداد من الشرك الأكبر:

معنى اتخاذ الأنداد: إشراك غير الله مع الله في العبادة. والأنداد: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، أي: اتخذ شبيها ونظيرا يدعوه مع الله، ويستغيث به، ويساويه بالله في المحبة والتعظيم، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وهو من أسباب دخول النار؛ لقوله ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل**

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٨٧/١٣).

النار»[١]. هذا هو النوع الأول من اتخاذ الأنداد.

أما النوع الثاني: فما كان من الشرك الأصغر، وله أمثلة وصور، ومنها:

١ ـ قول الرجل : ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت.

٢ ـ الحلف بغير الله، إذا لم يصاحبه اعتقاد آخر في المحلوف به.

٣ـ الرياء في العمل.

٤ ـ السمعة.

وهذا النوع من الشرك لا يوجب الخلود في النار، وإن دخلها.

معنى لقاء الله في الآخرة:

معنى: «لقي الله»: واجه الله وقابله، وهذا اللقاء يكون يوم القيامة؛ فإن لقي الله لا يشرك به دخل الجنة، وإن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار.

(١) رواه البخاري (٤٤٩٧).

سبب ترك **المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:**

مفهوم الشرك وحقيقته عند المخالفين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية هو عدم إستقلالية الخالق بالخلق، فمن أثبت خالقا مع الله فقد وقع في الشرك، وأما العمل فلا يقع فيه الشرك، فاقتصروا على الشرك الاعتقادي وأهملوا الشرك العملي، فمن دعا غير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله أو استعاذ واستغاث بالأموات وطلب منهم قضاء الحاجات وكشف القُربات فهذا ليس بشركٍ عندهم، بل معصية من المعاصي، وبعضهم ذكر أنه كبيرة من كبائر الذنوب، وهذا ما قرره أحد المعارضين للشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو محمد بن عفالق كما جاء في رسالته إلى عثمان بن معمر، فهوَّن من الشرك في العبادة فتارةً يزعم أن الشرك في العبادة هو شركٌ أصغر غير مخرج من الملة، وتارةً يدَّعي أن شرك الشفاعة جائز، فطلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد وفاته في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله كطلبها منه في حياته.[١]

وإليك نماذج وصور من الشرك في بعض المجتمعات المعاصرة، ذكرها العلامة تقي الدين الهلالي في كتابه: (سبيل الهدى والرشاد)، قال -رحمه الله-:

«لما هدى الله أهل الريرمون[٢] من صعيد مصر في مديرية أسيوط بدعوتي سنة ١٣٤١هـ؛ كانت عندهم عجول وثيران منذورة للسيد أحمد البدوي، فسألوني ماذا يصنعون بها؛ أيذبحونها لله ويوزعون لحمها على الفقراء؟ فقلت لهم: لا تذبحوها لئلا يوسوس لكم الشيطان فتقصدوا بها المخلوق؛ بل بيعوها وتصدَّقوا بثمنها على الفقراء.

ومن عبادة البهائم: ما حكى لي ثقة من أهل الغرب، أنه كان هناك شيخ صوفي منقطع هو وأصحابه للعبادة، وكان له حمار يبعثه كل يوم يدور في القرية وعليه خرج[٣]، فيمر على البيوت فيضع أهل كل بيت في الخرج ما تيسر من الطعام، ثم يرجع الحمار بذلك الطعام إلى الشيخ فيأكله هو والمريدون، فلما مات الشيخ وتفرق تلاميذه؛ بقي الحمار بلا عمل، فأخذ أهل القرية يقدمون له العلف ويتبركون به فلما مات؛ دفنوه وبنوا عليه قُبَّة، وصاروا يعبدون قبره!.

ومن ذلك: أن رجلا فرنسيًّا كان في المغرب يملك أراضي واسعة في زمان

---

(١) ينظر: «جواب ابن عفالق على رسالة بن معمر» ق(٤٤، ٥٣، ٥٩، ٦٨)، و«مسائل الاعتقاد عند علماء نجد قبل الدعوة الإصلاحية» (صـ ١٧٤)

(٢) الريرمون: قرية من قرى الصعيد.

(٣) الخَرْجُ: وعاء معروف. «المصباح المنير» للفيومي (١/١٦٦).

الاستعمار، وكان له كلب عزيز عنده فمات ذلك الكلب؛ فدفنه، وجصص قبره، وبنى عليه قبة، فلما ثار المغاربة على الفرنسيين، وأخذوا يقتلونهم حيثما وجدوهم؛ هرب ذلك الفرنسي إلى فرنسة فلما استقل المغرب واستقرت أحواله وعم فيه الأمن؛ رجع ذلك الفرنسي إلى أرضه فوجد الجهال يعبدون ضريح الكلب بالذبح والنذر والاحتفال ويشغلون قطعة من أرضه التي حول القبة، فكلمهم برفق وطلب منهم أن يخرجوا من أرضه؛ فغضبوا وأرادوا أن يبطشوا به، فذهب إلى رئيس الشرطة وأخبره، وقال له: إن هؤلاء القوم استولوا على قطعة من أرضي وزعموا أن هناك قبر ولي من الأولياء، فأرجو أن تبعث معي بعض رجالك لنبش قبره، فإن وجدنا فيه آدميا رجلًا أو امرأة؛ فالأرض كلها لهم، وإن وجدنا كلبًا؛ يتركون أرضي ويعلمون أنهم كانوا يعبدون قبر كلب فبعث معه بعض رجاله ونبشوا القبر فوجدوا المدفون فيه كلبًا.

ومن ذلك: أن معلمة اسمها خديجة النعيمي -المعلمة في مدينة الدار البيضاء من المملكة المغربية - كانت تسير مع نسوة جاهلات فمررن بكوم من حجارة، فأخذت النسوة يقبِّلن الأحجار، ويقُلن: «انتاع الله لله يا للا حمارة» معناه: أعطينا شيئًا لوجه الله يا سيدتنا الحمارة، يعنين: الأتان أنثى الحمار، قالت: فقلتُ لهن : أتتخذن الأولياء حتى من الحمير؟ قالت: فغضبن وقلن لي: احذري نقمتها إنها ولية كبيرة تقضي الحاجات! فكتبت خديجة النعيمي مقالا يتضمن هذه القصة، وقالت فيه: «أيها العلماء اتقوا الله، وعلموا الناس أمور دينهم، فقد أهملتموهم حتى صاروا يعبدون الحمير».

فكتبتُ أنا مقالا طويلًا نشرته صحيفة «العلم» موزعا على ثلاثة أجزاء، بينتُ فيه توحيد الله-تعالى-، ولم يستجب لدعوتها أحد غيري.

ومن ذلك: أن صخرة ناتئة خارجة من الماء بقرب شاطئ طنجة، يسميها الجهال: «سيدي ميمون» ويعبدونها بالذبح والنذر، وسبب معرفتي لهذا: أني ركبت سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان وكان بقربي شاب وبجانبه زوجته، سلَّم علي فلم أعرفه، فقال لي: أنا واحد من الذين يحضرون دروس وعظك في الجامع الأعظم بتطوان، وهذه زوجتي، وإذ كنا لا يعيش لنا ولد؛ نذرت زوجتي إن ولد لنا ولد أن تذبح لسيدي ميمون في كل سنة شاة ما دام حيًّا، فولد لنا ولد وقد كاد السنة الأولى من عمره، وهي تطالبني بالذبيحة، فقلت لها حسب ما سمعت منك - : إن هذا شرك، وإنه لا يتصرف في الخلق بالإحياء والإماتة إلا الله. فلم تقتنع فأرجو أن تكلمها لعل الله يهديها، فكلمتها مدة ساعة إلى أن وصلنا تطوان، ولا أدري! هل نفعها الله بما قلت لها أم لا؟.

ومن ذلك: أن بئرًا في القصر الكبير في شمال المغرب يقصدها كل من يحس بوجع رأسه، ويطلب من ساكنها ميمون بن شمهروش أمير الجن - الشفاء، إلى غير ذلك، فهؤلاء بلغوا في الجهل والشرك بالله أكثر مما بلغه المشركون الأولون».

«كل من أشرك بالله، وعبد معه غيره من المخلوقين، سواء كان مَلَكا مقربا أو نبيا مرسلا، أو صالحًا تقيًا؛ يختل دينه وعقله حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم؛ كأهل الهند الوثنيين الذين يعبدون البقرة الأنثى ولا يعبدون الثور، ويعبدون الفروج، وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان، فقد حدثني شيخنا الورع التقي الزاهد محمد سيدي بن حبيب الله -رحمة الله عليه - أن أحد العلماء في بلاد شنقيط كان له بقر كثير وله رعاة، وكان يتفقد هذا البقر الفينة بعد الفينة، فذهب ذات يوم ليتفقد بقره؛ فرأى الرعاة يمتاحون الماء من البئر ليملؤوا الحوض الذي يرده البقر، ويمنعون البقر من الورود حتى يمتلئ الحوض، إلا بقرة واحدة فإنها تقدمت لتشرب فلم يمنعها أحد، فقال للراعي امنع تلك البقرة حتى ترد مع سائر البقر. فقال: يا سيدي هذه البقرة فيها بركة، فقد جربنا أننا كلما زجرناها أو ضربناها تموت بقرة أخرى! فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ويلكم بلغ بكم الجهل إلى عبادة البقر، أضربها فضربها فماتت بقرة أخرى، فأخبروه بذلك، فقال: اضربوها كل يوم ولو فني البقر كله فضربوها للمرة الثانية فماتت بقرة أخرى، ثم صاروا يضربونها لا يموت شيء من البقر.

ورأيت في مصر ثيرانا وعجولًا مسيَّبة معظَّمة، تفعل كل يوم جرائم في المزارع، وفي داخل البيوت، فلا يتعرض لها أحد بسوء، يُسمّى كل واحد منها: «عجل السيد» الجيم ينطق بها "كافًا معقودة" في الوجه البحري - أي: الشمال-، وجيمًا عربية في الوجه القبلي- أي الجنوب-، وهذا عيب في عامة القراء والخطباء والمذيعين من المصريين قلَّ من يهتم به منهم، يُغيِّرون نُطق هذا الحرف بحرف عجمي لا وجود له في اللغة العربية الفصحى، حاشا قرَّاء القرآن؛ فإنهم ينطقون بها نطقا صحيحًا-، ثم نعود إلى الكلام على (عجل السيد) فقلت لهم وما معنى (عجل السيد)؟ قالوا : ينذر الواحد من الناس إن ولدت له بقرته عجلا أن يهبه للسيد أحمد البدوي المدفون في طنطا. وله موسم سنوي تشارك فيه الحكومة باحتفال عظيم، يحضره عشرات الألوف، حتى يموت بعض الناس من الزحام، وتكتب رقاع الشكايات والرغبات وتلقى في مكان معلوم في التابوت الذي على قبره، ولا يكاد يغير هذا المنكر إلا القليل من علماء مصر، وتجيء البغايا لحضور هذا الموسم فيتصدقن بفروجهن! كما أخبرني بذلك الشيخ عبدالرحمن-رحمة الله عليه-

، أخبرني أن (.....) زنى بامرأة عند ضريح البدوي،ثم اجتمعا بـ(.....) وهو أشيب، فسأله ذلك؟ فأقر به وقد شاع عندهم أنَّ كل من زنى في هذا الموسم عند قبر البدوي من الرجال والنساء فذنبه مغفور؛ لأن السيد أحمد البدوي بحر، والبحر لا تؤثر فيه النجاسة، وهذا الأمر قديم.

فقد ذكر الشعراني في «الطبقات الكبرى» أن فقيهًا كان ينكر على الفساق ما يرتكبونه من الفواحش عند ضريح البدوي، فأنكر عليهم ذات يوم ثم رجع إلى بيته، فقدَّموا له سمكًا فأخذ يأكل، فغُصَّ بعظم صغير من عظام السمك، ووقف في حلقه لا يصعد ولا يهبط، ثم تعفّن الجرح فصار الصديد يخرج من فمه ولا يستطيع أن يأكل شيئًا، وإنما يتغذى بقليل من لبن الحليب، وبقي على ذلك سنتين، فخطر في باله أن سبب هذه المصيبة إنكاره على الفساق فجورهم عند قبر السيد أحمد البدوي، فتاب إليه وندم، ففي الحال سقط صبي من الدرج إلى أسفل، فصاح الرجل صيحة عظيمة، فخرج العظم وبرئ الجرح، وهذا شر من عبادة أهل الهند للبقرة.

أما (عجل السيد) فلا يزال يعيث فسادا في البساتين والبيوت؛ ينطح الصغار، ويأكل كلّ ما وجد إليه سبيلًا ، وهو مقدَّس لا يضرب ولا يمس بسوء، الناس كلهم يقدمون له العلف فيسمن سمنًا فاحشًا، حتى أنهم يضربون به المثل؛ فيقال: «فلان سمين زي عكل السيد» -يعني: مثل عجل السيد-، فإذا تم نموه؛ ساقوه باحتفال عظيم إلى ضريح السيد أحمد البدوي وذبحوه قربانًا له، وهذا من أعظم الجهل والكفر(١).

---

(١) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٣١٤/١-٣١٨)، وينظر منه أيضًا: (٢٨٤/١-٢٨١).

٥- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(١).

٢- عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن، قال له: «**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»(٢)- وفي رواية-: «**إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجاه(٣).

٣- ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**»، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم**»(٤).

يدوكون: أي يخوضون.

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسوله الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرا من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: كونه تنزيه الله تعالى عن المسبة.

---

(١) يوسف: [١٠٨].
(٢) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).
(٣) رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩)، ولفظ: «**إلى أن يوحدوا الله**» للبخاري.
(٤) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: - وهي من أهمها-: إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: «أن يوحدوا الله» معنى شهادة: «أن لا إله إلا الله».

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها(١).

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «**لأعطين الراية**» إلخ. علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضا.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم(٢) تلك الليلة، وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر؛ لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى.

---

(١) أي: شهادة التوحيد.

(٢) أي: خوضهم وانشغالهم بنيل هذه الفضيلة.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «**على رسلك**».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرا وباطنا، والخوف من ضده، وبذلك يكمل العبد نفسه، ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله)، فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى في تكميل غيره- وهذا هو طريق جميع الأنبياء-؛ فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهي طريقة سيدهم وإمامهم صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين، وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد. فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله، فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن، وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء. وإذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضا على كل أحد، كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره. فعلى العالم من بيان ذلك، والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم. وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة. قال

تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(١). ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال السعدي: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للناس ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا فأنا ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو وجوب الدعاء إلى شهادة (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، فموضوع الباب الدعوة إلى التوحيد وإلى اتباع الرسول صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالواجب على العلماء وطلبة العلم والدعاة أن يلتزموا الدعوة إلى التوحيد، والإيمان الخالص بالله، وأن يحذروا من الشرك، وأن يدعوا إلى الاتباع الكامل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، والتحذير من مخالفته.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من التوحيد الدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله)، وأن

---

(١) التغابن: [١٦].
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٤٠٦

أعظم الدعوة الدعوة إلى التوحيد، والدعاء إلى التوحيد يكون بالقول والفعل.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

مقصود الإمام مجدد الدعوة بعقد هذا الباب بيان أن المقصد الأسمى، والهدف الأسنى، والغاية العظمى من خلق الإنس والجن، بل من خلق الكون كله، ومن إنزال الكتب السماوية، وتشريع الشرائع الدينية، وإرسال الرسل، هو تحقيق التوحيد، وعبادة الله تعالى، والدعوة إلى ذلك.

ولأجل تحقيق هذا الهدف كان أول دعوة الرسل لأقوامهم هي دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، ولم تكن دعوة الرسل إلى توحيد الربوبية أو إلى الإيمان بوجود الله فحسب، أو إلى النظر في الأدلة الكلامية كما هو عليه أهل الكلام.

وقد قال الإمام ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ)، وتبعه العلامة الملا علي القاري الحنفي (١٠١٤هـ) واللفظ للأول: «اعلم أن التوحيد - يعني: توحيد العبادة - أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال هود عَلَيْهِ السَّلَام لقومه : ﴿**يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف : ٦٥]، وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه : ﴿**يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف : ٧٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله**»(١).

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، من المعتزلة، والماتريدية، والأشعرية.

وأئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان...، فالتوحيد أول ما يدخل المرء به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل**

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الجنة»[١].

وهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره؛ أعني توحيد الإلهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات، والثاني: توحيد الربوبية، والثالث: توحيد الألوهية ... فاعلم أن المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية»[٢].

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فى الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، وما ينبغي من الخوف من ضده، نبه بهذا الباب على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

أما قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي**﴾: فاستشهد بها المصنف ليبين أن الدعوة الواجبة هي الدعوة إلى التوحيد، واتباع الرسول، وهي الدعوة إلى الكلمة الطيبة بشقيها، وأن ذلك هو المتعين الواجب على العلماء؛ ومن كانت دعوته قائمة على الدعوة إلى توحيد الله تعالى في العبادة، واتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشرع؛ فهو من أتباعه.

والحديث الأول: وفيه: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»: أورده المصنف لبيان أن أول ما يُبدأ به في الدعوة هو الدعوة إلى التوحيد، وأنه هو أول الواجبات، ولا يلتفت إلى شبه الخصوم وعلومهم.

والحديث الثاني: وفيه: «**ادعهم إلى الإسلام**» بين المصنف بالاستدلال بهذا الحديث أن الدعوة إلى الإسلام قبل القتال في حق من لم تبلغهم الدعوة، ولو كانوا قد دعوا من قبل، وهذا من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة، وهذا يدل على أنه ينبغي الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام، والحرص عليه قبل القتال، ويستحب تكرار الدعوة عند الحاجة، خاصة مع من يُرجى له الصلاح والقبول[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٣١١٦) من حديث معاذ رضي الله عنه، وهو في «صحيح أبي داود».
(٢) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (صـ ٢١- ٢٣)، و«شرح الفقه الأكبر» (صـ ١٧).

(٣) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٤٣ - ٤٤).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الدعوة إلى التوحيد طريقة الأنبياء:

الدعوة إلى الدين الإسلامي واجبة ويبدأ الداعي بالدعوة إلى التوحيد؛ لأنه أعظم الفروض، وأوجب الواجبات، وهو الأساس لجميع الأعمال؛ فلا يقبل أي عمل إلا بعد صحة التوحيد، والدليل قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، وطريقة جميع الأنبياء أنهم أول ما يدعون قومهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وعبادة الله وحده لا شريك له، وهي طريقة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، لم يفتر ولم يضعف، حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغربها، وكان يدعو بنفسه، ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإلى توحيد الله قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

الفقرة الثانية: معرفة شهادة التوحيد فرض قبل الصلاة وغيرها:

معرفة معنى الشهادة فرض واجب قبل الصلاة والصوم، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «اعلم ـ رحمك الله ـ أن فرض معرفة شهادة أن لا إله إلا الله قبل فرض الصلاة، والصوم؛ فيجب على العبد أن يبحث عن معنى ذلك، أعظم من وجوب بحثه عن الصلاة، والصوم، وتحريم الشرك، والإيمان بالطاغوت، أعظم من تحريم نكاح الأمهات والجدات»(١).

الفقرة الثالثة: شهادة التوحيد أعظم مراتب الإيمان:

أعظم مراتب الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله، ومعنى ذلك: أن يشهد العبد أن الإلهية كلها لله، وإخلاص العبادة هي حق الله على عباده(٢)، وفي الحديث: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ...**» (٣).

الفقرة الرابعة: طريقة الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ في الدعوة:

(١) ينظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/٣٣).
(٢) ينظر: المصدر السابق.
(٣) رواه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد، وأجلها، وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يُدعى به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي المقصود، وإن الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم هي طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، فعلينا أن نفعل ذلك لنكون من أتباعه، والدليل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «قال الفراء وجماعة: ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ معطوف على الضمير: ﴿**أَدْعُوا**﴾، يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. هذا والقولان متلازمان؛ فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه»[(١)].

ويستفاد من الآية:

١ - أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

٢ - التنبيه على الإخلاص في الدعوة إلى الله.

٣- أن البصيرة - وهي العلم - من الواجبات على الداعي إلى الله.

٣- ابتعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

الفقرة السادسة: مضمون كلمة التوحيد:

كلمة الإخلاص هي كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، ومضمونها نفي الإلهية عما سوى الله[(٢)]، وإخلاص العبادة بجميع أفرادها الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

الفقرة السابعة: تفاوت الناس في كلمة التوحيد:

كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» قد سماها الله تعالى كلمة التقوى، والعروة الوثقى، والناس يتفاوتون في هذه الكلمة بحسب ما لهم علمًا وعملا؛ فمنهم من يقولها وهو يجهل مدلولها، ومقتضاها، فلا يعرف معنى النفي الموجود في الكلمة، ولا يعرف الإلهية المثبتة الله تعالى بأداة الاستثناء؛ فيأتي بما يناقضها وهو لا يدري، فهي لا تنفعه بلا ريب[(٣)].

---

(١) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (٤٣٣/١) ط عالم الفوائد.
(٢) ينظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤ / ٢٩٥).
(٣) ينظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٢٩٦/٤).

الفقرة الثامنة: شروط (لا إله إلا الله):

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: «واعلم أن لها شروطا ثقالا، منها: العلم بمدلولها ومقتضاها وحقوقها ولوازمها ومكملاتها، ومن شروطها: الصدق، واليقين، وإرادة وجه الله، والكفر بما يُعبد من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦]، قال ابن جرير يعلمون حقيقة ما شهدوا به[١]»[٢].

وقال الشيخ حافظ حكمي في منظومته المسماة بـ«سلم الوصول»[٣]:

وَبِشُرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ ... وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا ... بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ ... وَالِانْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّهْ ... وَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهْ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٦٦١/٢٠) ط هجر.
(٢) ينظر: المصدر السابق (٢٩٥/٤-٢٩٦).
(٣) ينظر: «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (٣٢/١).

٦- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾(٢).

٣- وقوله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾(٣) الآية.

٤- وقوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾(٤).

٥- وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله**»(٥).

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة، وبينهما بأمور واضحة:

منها: آية الإسراء بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل - عليه السلام - للكفار: ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ (٦)، فاستثنى من المعبودين ربه. وذكر - سبحانه - أن هذه البراءة، وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (٧).

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ (٨)، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيما ولم

---

(١) الإسراء: [٥٧].
(٢) الزخرف: [٢٦-٢٨].
(٣) التوبة: [٣١].
(٤) البقرة: [١٦٥].
(٥) رواه مسلم (٢٣) من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه.
(٦) الزخرف: [٢٦-٢٧].
(٧) الزخرف: [٢٨].
(٨) البقرة: [١٦٧].

يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟.

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»(١).

وهذا من أعظم ما يبين معنى: (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع!.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين. وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف ـ رحمه الله ـ، وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له. وذلك يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: نفي الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئا من العبودية أحد من الخلق لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له، وتفرده بمعاني الألوهية كلها، وهي نعوت الكمال كلها، ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله، فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه، قاصدا بذلك وجه الله، وطالبا رضوانه وثوابه، ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله، أو يعمل لهم كما يعمل لله ينافي معنى (لا إله إلا الله) أشد المنافاة.

وبين المصنف ـ رحمه الله ـ أن من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله) قوله صلى الله عليه وسلم: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا جدًّا، وهو في «صحيح مسلم».

ماله ودمه وحسابه على الله»[(١)]، فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه. فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادا ونطقا، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقيادا، ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقلا وقولا وفعلا، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، لا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة، ولا الدعاوى الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متى تخلف واحد منها تخلفت البقية والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧].

قال السعدي: «يقول تعالى: **﴿قُلْ﴾** للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادا يعبدونهم كما يعبدون الله ويدعونهم كما يدعونه ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين: **﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾** آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا **﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾** من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك فلا يدفعونه بالكلية، **﴿وَلا﴾** يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر من شدة إلى ما دونها»[(٢)].

فإذا كانوا بهذه الصفة فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة، فاتخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل وسفه في الرأي.

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي: السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه كما قال المشركون: **﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ**

(١) تقدم تخريجه قريبًا جدًّا، وهو في «صحيح مسلم».
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٦٠).

عُجَابٌ﴾(١).

ثم أخبر أيضا أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

٢- وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ**﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ أي: مبغض له، مجتنب معاد لأهله، ﴿**إلا الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، فـ﴿**سَيَهْدِينِ**﴾ لما يصلح ديني وآخرتي»(٢).

٣- وقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

قال السعدي: «﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**﴾ وهم علماؤهم ﴿**وَرُهْبَانَهُمْ**﴾ أي: العُبَّاد المتجردين للعبادة ﴿**أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ يُحِلُّون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها، وكانوا أيضا يغلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة، ﴿**وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ اتخذوه إلها من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله فما ﴿**أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ**﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا، ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ وتعالى ﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي

---

(١) ص: [٥].
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٦٤).

كماله المقدس»(١).

٤ـ وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قال السعدي: «إن الله سبحانه وتعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن **﴿مِنَ النَّاسِ﴾** مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادا لله أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد ـ علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: **﴿اتَّخَذُوا﴾** دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له، تسمية مجردة، ولفظا فارغا من المعنى، كما قال تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾**، **﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ﴾**، فالمخلوق ليس ندا لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علما يقينا، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادا، سواء كان ملكا أو نبيا، أو صالحا، صنما، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** أي: من أهل الأنداد لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره»(٢).

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٣٤).
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٩).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو بيان حقيقة التوحيد، وتفسير معنى الشهادة وبيان ما يوافق مقتضاها، وما يضادها، والعطف من باب عطف الدال، وهو الشهادة على المدلول وهو التوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا الباب يفسر فيه المصنف معنى التوحيد، ومعنى شهادة أن (لا إله إلا الله)، وذلك من خلال ما سيذكر من الأدلة التي توضح التوحيد، وتبين معنى شهادة التوحيد، وأن هذا التوحيد هو شهادة أن (لا إله إلا الله).

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

وغرض المصنف من عقد هذا الباب هو أنه يريد أن يبين أن التوحيد له معنى، وليس التوحيد مجرد كلمة تقال، وأن للشهادة معنى، وليس اللفظ فقط هو المعتبر، وإنما المراد اللفظ والمعنى؛ فلا بد في التوحيد من الإتيان بالشهادة مع التزام معناها الذي هو التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وأنه الفرض الأعظم على جميع الفرائض، وذكر فضله، وآثاره الحميدة، والخوف من ضده، وأن العبد يكمل بذلك نفسه، ثم يسعى في تكميل غيره بالدعوة إلى شهادة أن (لا إله إلا الله) ناسب أن يذكر هنا تفسير التوحيد، ومعنى شهادة أن (لا إله إلا الله).

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ..﴾ (١) فسر المصنف التوحيد بهذه الآية وأنه لا يصح إلا إذا بني على أساس من الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، وأن دعاء غير الله مضاد له، وأن دعاء الله وحده هو التوحيد، واعتقاد أن غير الله ينفع ويضر هو الشرك، واعتقاد أن الله هو النافع الضار وحده تعالى هو التوحيد، قال تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾**(٢).

---

(١) الإسراء: [٥٧].
(٢) الإسراء: [٥٦].

والآية الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾(١) وجه الاستشهاد به هو أن التوحيد معناه تجرد الإنسان من الشرك، وإنكاره له، وإخلاص العبادة الله وحده، فمعنى التوحيد وتفسيره البراءة من عبادة غير الله واعتقاد بطلانها، والرد عليها وصرف العبادة الله تعالى بجميع أنواعها.

الآية الثالثة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ..﴾ (٢) دلت الآية على أن من أطاع غير الله في تحريم الحلال، أو تحليل الحرام؛ فقد اتخذه ربا ومعبودا، وجعله شريكا الله، وذلك ينافي التوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، وإفراده بالحكم، وأنه هو الذي يحلل ويحرم، فمن اتخذ راهبًا أو حبرًا فقد شابه أهل الكتاب الذين أطاعوا علماءهم وعبادهم في التحليل والتحريم، فصاروا بذلك عابدين لهم.

الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾(٣) استدل بها المصنف على تفسير التوحيد، وأن منه إخلاص الحب لله تعالى، وأن الحب التعبدي إذا صُرِفَ لغير الله كان منافيًا له، فمن أحب شيئًا حب تعظيم وعبادة، أو دعاء، أو استغاث بغير الله، فقد وقع في الشرك الصريح الذي هو ضد التوحيد.

وأما حديث: **«من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله»**(٤): أورده المصنف لبيان أن من التوحيد الكفر بما يُعبد من دون الله، وهو الكفر بالطواغيت التي تُعبد، ويُصرف لها العبادة.

فتبين بهذا أن التوحيد معناه: اعتقاد أن العبادة لله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك طاعة الله تعالى والبراءة من الشرك وأهله، وبغض الشرك وأهله، وأنه لا تغني في التوحيد الألفاظ المجردة التي لا تكون مصحوبة بالاعتقاد والعمل الموافق له؛ فإنه لابد من أن يتطابق العلم والاعتقاد، والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة، متى تخلّف واحد منها تخلفت البقية (٥).

---

(١) الزخرف: [٢٦].
(٢) التوبة: [٣١].
(٣) البقرة: [١٦٥].
(٤) تقدم تخريجه في أول الباب، وهو في «صحيح مسلم».
(٥) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٥٠).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى كلمة التوحيد، والشهادة بها:

معنى كلمة التوحيد والشهادة بها هو: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال، وإخلاص العبادة له، وذلك يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: نفي الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئًا من العبودية أحد من الخلق، وهذا يُسمى ركن النفي.

الأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها، وهذا ركن الإثبات؛ إذ شهادة التوحيد فيها ركنان: النفي والإثبات، ولا يكفي أحدهما في التوحيد، بل لا بد من اعتقاد المعنيين، والقول بالنفي والإثبات، وبهذا يعلم أن التوحيد قائم على النفي والإثبات، كما في شهادة التوحيد: (لا إله إلا الله).

ويعلم أن من تمام تفسير كلمة الإخلاص وتحقيقها: البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله، أو يطيعهم كطاعة الله، أو يعمل لهم كما يعمل لله، ينافي معنى (لا إله إلا الله) أشد المنافاة.

الفقرة الثانية: طاعة غير الله في تحليل الحرام وتحريم الحلال تنافي التوحيد:

إن من معنى التوحيد وشهادة أن (لا إله إلا الله): طاعة الله في التحليل والتحريم، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغ عن ربه لا مشرع من نفسه، وطاعته طاعة الله تعالى، وأما من أطاع مخلوقا في تحريم الحلال، وتحليل الحرام؛ فقد اتخذه ربا ومعبودا، وجعله شريكا لله في خصيصة من خصائصه، وهي التحليل والتحريم، وذلك ينافي التوحيد.

ولا شك أن الدين لله تعالى، وهو يشرع ما يشاء، وليس لأحد حق التشريع، ولا بد على المكلف أن يعتقد ذلك، ويجب عليه أن يتحاكم إلى شريعة الله تعالى، وعليه أن يطبق الشرع في نفسه، وأهله، وما ولي، وعلى الراعي أن يحكم بالمنزَّل، ولا يجوز له أن يحكم بالأمور المخترعة والأهواء المتبعة.

الفقرة الثالثة: المحبة الشركية:

إن من معنى التوحيد وشهادة أن (لا إله إلا الله): المحبة المقتضية للذل

والخضوع، فمن اتخذ لله ندًّا مع يحبه كمحبة الله فقد جعله شريكًا لله في العبادة، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾؛ أي: اتخذ من دون الله نظيرًا ومثيلا، يساوونهم بالله في العبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، فهو الشرك الأكبر الذي لا يغفره.

ومحبة المؤمن لربه أشد وأعظم وأكبر من محبة المشرك لربه، وذلك أن المشرك يحب الله ويحب غيره كحبه؛ فقلبه ليس مشغولا بحب الله وحده حب العبادة، بخلاف المؤمن، ولذلك كان المؤمن أشد حبا لله.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا**﴾ [البقرة : ١٦٥]، وأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه، يحبهم كحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم»(١).

الفقرة الرابعة: شهادة أن (لا إله إلا الله) تعصم الدم والمال:

الأصل أن دماء الكفار المحاربين بخلاف المعاهدين والمستأمنين والذميين وأموالهم وذراريهم ليست معصومة، بل هي مهدورة بحكم الشرع، وقد علق النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول: (لا إله إلا الله).

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرها.

فعلم من هذا أن الشهادة وحدها لا تكفي؛ بل لا بد مع التلفظ بها من وجود المعنى، واعتقاد ما دل عليه اللفظ، ومن جملة ذلك اعتقاد بطلان ما عليه الكفار من العقائد الباطلة، وأنها باطلة.

---

(١) ينظر: «الجواب الكافي» (صـ ٢٥٤)، و«إغاثة اللهفان» لابن القيم (١٣٢/٢).

٧-باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوها لرفع البلاء أو دفعه

١- وقول الله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾(١).

٢- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا في يده حلقة من صُفْر، فقال: «**ما هذه؟**» قال: من الواهنة. فقال: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا**» رواه أحمد بسند لا بأس به(٢).

٣- وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»(٣).

٤- وفي رواية: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»(٤).

٥- ولابن أبي حاتم عن حذيفة(٥): أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾(٦).

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهنا».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

---

(١) الزمر: [٣٨].

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٠٠٠٠)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥-٦٠٨٨)، والحاكم (٧٥٠٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه البوصيري في «الزوائد»، وضعفه البعض.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (١٧٤٠٤)، وأبو يعلى (١٧٥٩)، وابن حبان (٦٠٨٦)، والحاكم (٧٥٠١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١٧٤٢٢)، والحاكم (٧٥١٣)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٢).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٢٠٨/٧)، ولفظه: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سَيْرًا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦].

(٦) يوسف: [١٠٦].

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئا وكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له. أي: ترك الله له.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها: أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سببا إلا ما ثبت أنه سبب شرعا أو قدرا.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب. إذا عُلم ذلك فمَن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصدا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك في الربوبية حيث اعتقد شريكا مع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببا يستدفع بها البلاء، فقد جعل ما ليس سببا شرعيا ولا قدريا سببا، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي، وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة.

وأما القَدَر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك؛ فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضاء الله وثوابه، ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقا قلبه بها راجيا لنفعها، فيتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده؛ فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضا نقص في العقل حيث التعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض، والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨].

قال السعدي: «ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلا من أنفسهم، فقلت: ﴿**مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا ﴿**لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ الذي خلقها وحده ﴿**قُلْ**﴾ لهم مقررا عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة الله: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ**﴾ أي: أخبروني ﴿**مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ**﴾ أيَّ ضر كان ﴿**هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ**﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿**أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ**﴾ يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي ﴿**هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ**﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة، قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلبا كفايته، مستدفعا مكرهم وكيدهم: ﴿**قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي

بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به»»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

ذكر حكم الحلقة والخيط لرفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله، وحكم من فعل ذلك، وأن من يلبس ذلك معتقدًا فيها النفع والضر فقد أشرك في الربوبية؛ حيث اعتقد شريكًا مع الله في الخلق والتدبير، والنفع والضر، وأشرك في الألوهية حيث تألّه بذلك لغير الله، وعَلّق به قلبه طمعًا ورجاء لمنفعة.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

معنى ترجمة هذا الباب أن من الشرك إما الأكبر أو الأصغر - لبس حلقة الحديد ونحوه من الصفر، والذهب والفضة، أو حلقة من الخيط، ونحو ذلك؛ لأجل رفع المصائب إذا وقعت أو منعها قبل وقوعها.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف رحمه الله بيان أن لبس الحلقة ونحوها لجلب النفع أو دفعه من الشرك مطلقا، فلا يخلو من أن يكون ناقضًا للتوحيد أو منقصًا له، وأن لبس الحلقة والخيط ينافي التوحيد ويخالفه، إما منافاة ومخالفة تامة، أو ناقصة، بحسب ما يقوم بقلب المُعلّق ونيته.

وأن دفع الضر وجلب النفع من خصائص الله تعالى، فيكون طلب ذلك من غير الله كالخيط والحلقة ونحوهما شركا كطلبها من الأصنام.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف رحمه الله تفسير التوحيد في الباب السابق، وتبين أمر التوحيد وعرف صورته وحقيقته ناسب أن يذكر بعض نواقضه ونواقصه، التي تخالف حقيقة التوحيد وصورته؛ فبدأ بذكر أمر مشترك يكون أحيانًا ناقضًا للتوحيد، ومخالفًا للشهادة بكل حال، ويكون أحيانًا منقصًا للتوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٢٥).

استشهد المصنف بالآية: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [الزمر:٣٨]؛ لأنها صريحة في الدلالة على أن الأمر كله لله تعالى، وأن المدعوين من دون الله لا يقدرون على كشف الضراء، ولا على منع السراء؛ لأن ذلك كله لله تعالى؛ فلا فرق بين اعتقاد المشركين في الأصنام وأنها وسائط لجلب الخير، وبين من يعتقد أن الخيط أو الحلقة ونحوهما مما يفعله بعض الجهال، ويعتقدون أنها تنفع، ومعلوم أن الله تعالى وحده المنفرد بالأمر والنفع والضر(١).

وأما حديث: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا**» فيه دلالة على ضرر الشرك، وأنها تبعد الإنسان عن الرحمن، فإنه نوع شرك لا يغفره الله إلا بالتوبة(٢).

وحديث عقبة مرفوعا: «**من تعلق تميمة**» الحديث دل على أن من علق تميمة أو خيطا معتقدًا أنها تنفع فقد أتى بما يخالف الشرع، ولذا دعا عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن من فعل ذلك فإنه لا يكون في دعة وسكون.

وحديث حذيفة: «**أنه رأى رجلًا في يده خيط**»: استشهد به المصنف ليبين أن الصحابة فهموا أن وضع الخيط ونحوه، والاعتقاد فيه، نوع من أنواع الشرك، ولذلك أزاله حذيفة رضي الله عنه، واستدل بالآية(٣).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: النافع والضار هو الله وحده:

يجب على العبد أن يعلق قلبه بالله وحده، طمعًا ورجاء وخوفًا، وأن يعتمد على الله وحده، وأن يفوض الأمور كلها لله وحده، فهو وحده الدافع للبلاء، وهو الضار والنافع(٤)، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأنعام: ١٧].

فالله تعالى هو المتفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء، فإذا كان وحده

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٤١).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٢).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٣).
(٤) لقد صرح جمع من فقهاء الحنفية بأن «من ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله فاعتقاده ذلك كفر». ينظر: «البحر الرائق» (٣٢١/٢) لابن نجيم، و«حاشية ابن عابدين» (٢/٤٦٧)، و«فتح المنان» للآلوسي (ص٤١٧)، و«الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ (صـ ١٨٩)، وقال العلامة الآلوسي وتبعه ابنه وحفيده: «وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع، ولا يرى ولا يسمع!». «روح المعاني» (٩٨/١١)، و«جلاء العينين» (صـ ٥٠٣)، و«غاية الأماني» (٢/ ٣١٥).

النافع والضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية، وأما غير الله فلا يملك كشف الضر أو جلب النفع.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الزمر : ٣٨].

الفقرة الثانية: مشروعية الأخذ بالأسباب وأنه لا ينافي التوكل:

إثبات الأسباب -وفق الشرع- يقتضيه الشرع والعقل والفطرة، وتوهم البعض أن مباشرة السبب تُضعِف التوكل، قال ابن الجوزي: «لو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد»(١)، فإذا كان الأمر على ما ذُكِر فلا معنى لافتراض التعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب، وذلك - والله أعلم- لانفكاك الجهة، فالتوكل محله القلب، والقيام بالأسباب عمل الجوارح، ولا تعارض مع اختلاف المحل، «فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بالأسباب، وحال بدنه قيامه بها»(٢).

وقال القرطبي: «المتوكل يحمل الزاد وقلبه مع رب الزاد...فليس الشأن بالزاد، إنما الشأن في القلب، فكم حامل للزاد وقلبه مع الله، وكم تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى، فالشأن إذًا في القلب»(٣).

الفقرة الثالثة: أنواع الأسباب، وحكم كل نوع.

أنواع الأسباب خمسة، وهي:

النوع الأول: الأسباب المشروعة، سواءٌ كانت واجبة أو مندوبة، ويدخل تحته كافة الواجبات والمندوبات الشرعية، سواءً كانت عبادات أو معاملات أو عادات، وقد أمر النبي ﷺ بالتسبب المأمور به فقال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»(٤).

النوع الثاني: الأسباب المباحة، وهي كل ما ثبت سببيته بالعقل أو الحس، وتثبت سببية الشيء بأنْ يُثبِته الشرع.

النوع الثالث: الأسباب المكروهة، وهي من جنس الأسباب المباحة، إلا أن

---

(١) ينظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (صـ ٣١٤).
(٢) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/١٢٥).
(٣) ينظر: «قمع الحرص» (صـ ١١١)، و«الشرك الأصغر» (صـ ١٧٥).
(٤) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدليل الشرعي ورد بكراهيتها، كطلب الرقية -الاسترقاء- والاكتواء، وهذا النوع منافي لتمام التوكل.

النوع الرابع: الأسباب المحرمة، ومنها التنجيم، وتعلم الغيب عن طريق استراق السمع وسؤال الناس أموالهم مع الكفاية، وتعذيب الأحياء بالنار.

النوع الخامس: الأسباب الموهمة، وهي ثلاثة أقسام بحسب حكمها الشرعي:

١-الشرك الأكبر، كعبادة الأصنام، فالمشركون قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾(١) فاتخذوها سببًا للقرب من الله، ومنها دعاء الأموات، والاستغاثة بهم.

٢- ما كان شركًا أصغر نصا أو قياسا كالتطير والاستقسام بالأزلام، والعرافة والكهانة والتنجيم، والتمائم بشرط أنْ لا تصل حد الشرك الأكبر.

٣-ما ورد النهي عنه أو تحريمه، لكن لمْ يصفه الشارع بالشرك، كالنذر، فإن الناذر يتوهمه سببا لنيل مرامه أو دفع بلاءه (٢).

الفقرة الرابعة: الاعتقاد الصحيح في الأسباب:

الإيمان التام بقدرة الله التامة، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن كل ما سواه مربوب مدبر مقهور تحت سلطانه، ومن ذلك الأسباب جملة وتفصيلا، إذا تيقن العبد ذلك وأن الأسباب تجري وفق قدر الله ومشيئته، ليعلم ثانيا أنها لا بد لكي تؤثر من انضمام سبب آخر أو أسباب، وانتفاء مانع تمنع تأثيرها(٣).

الفقرة الخامسة: أحكام الأسباب:

إن معرفة أحكام الأسباب وتفصيل القول فيها أمر مهم، وقد فصلها الشيخ السعدي فقال: «يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت؛ فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء أبقى

---

(١) الزمر: ٣

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨١)، و«الرد على البكري» (صـ ٢٣٠)، و«تيسير العزيز الحميد» (صـ ١١٠)، وكتاب «الشرك الأصغر» (صـ ١٧٥).

(٣) ينظر: كتاب «الشرك الأصغر» (صـ ١٧٩).

سببيتها جارية على مقتضى حكمته، ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها، وإن شاء غيَّرها كيف يشاء، لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق، والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره، وعمله بجميع الأسباب»(١).

الفقرة الثالثة: المقصود بالحلقة والخيط وحكم لبسهما لرفع البلاء أو دفعه:

الحلقة: طوق من النحاس كان المشركون يجعلونها في عضودهم، يزعمون أنها تحفظهم من العين والجن ونحو ذلك.

الخيط: في الأصل ما يخاط به، وكان المشركون يعقدون الخيوط على أيديهم ورقابهم يزعمون أنها تدفع عنهم الحمى.

وحكم لبس الحلقة والخيط إذا اعتقد أنها تدفع البلاء بنفسها فهو شرك أكبر، أما إذا اعتقد أنها سبب لرفع البلاء فهو شرك أصغر، والكل حرام.

أما في الصورة الأولى فالأمر واضح؛ لأنه شرك صريح، وأما في الصورة الثانية فإن الله لم يشرع لنا أن نتسبب بهذه الأمور إلى دفع البلاء أو رفعه، وليست هي من الأمور التي ترتب عليها الأسباب عقلا أو تجربة وحسا؛ فاعتقاد سببيتها في النفع والضر نوع من الشرك.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: «فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصدًا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله؛ فقد أشرك؛ لأنه إذا اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكا مع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك، وعلق به قلبه طمعا ورجاء لنفسه، وأما إنْ اعتقد أن الله هو النافع وحده، ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء؛ فقد جعل ما ليس سببًا شرعيا ولا قدريًا سببًا، وهذا محرم وكذب على الشرع والقدر»(٢).

وإن كان تعليق هذه الأمور عادة بدون أن يعتقد فيها أنها تدفع البلاء أو ترفعه، فحينئذ يكون هذا العمل شركا أصغر ؛ لأن هذا من أفعال أهل الجاهلية. ونظير هذا الحلف بغير الله إن كان مصحوبًا باعتقاد أن المحلوف به يضره فهو شرك أكبر، وأما إن كان بدون هذا الاعتقاد فهو شرك أصغر.

---

(١) ينظر: «القول السديد شرح كتاب التوحيد» للسعدي (صـ ١٠٦).
(٢) ينظر: المصدر السابق.

ولما كان ظاهر أحوال من يلبس هذه الخيوط والحلق أنهم يعتقدون فيها النفع والضر، فقد حكم مجدد الدعوة بأنها من الشرك.

الفقرة الرابعة: آثار تعلق القلب بغير الله:

من علق قلبه بغير الله تعالى؛ فإنه سيجد أمورًا وآثارًا مترتبة على هذا التعلق، ومن هذه الآثار:

١ - عدم الفلاح والفوز والظفر والسعد في الدنيا والآخرة.

٢ - القلق والتعب النفسي وعدم الراحة والدعة والسكون، وهذه آثار لدعوة النبي صلى الله عَلَيْهِ وَسَلم: «**فلا ودع الله له**»؛ أي: لا يجعله في دعة وسكون.

٣ - يصبح عبدًا للمُعلَّق، أو عبدا لمُعطي المُعلَّق، وتتشتت عليه الأمور.

٤- يترك الدعاء والرقية، واتخاذ الأسباب الشرعية والكونية، لظنه كفاية المعلق.

٥ - يكون متوكلًا على المعلق.

٨- باب ما جاء في الرقى والتمائم

١- في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه، أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت**»(١).

٢- وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» رواه أحمد وأبو داود(٢).

٣- وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعا: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**» رواه أحمد والترمذي(٣).

التمائم: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه. منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

والرقى: هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك(٤)، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة(٥).

والتولة: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رويفع، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا رويفع، لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدا بريء منه**»(٦).

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع(٧). وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٣٦١٥)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٣١).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٨٧٨١)، وعبد الله بن عُكيم لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، والحديث له شواهد تقويه، فهو حسن لغيره.

(٤) روى مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك**».

(٥) من ذلك ما رواه مسلم (٢١٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه، «**رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ، وَالْحُمَةِ**»، والأحاديث كثيرة في ذلك.

(٦) رواه أبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٦٧)، وأحمد في «مسنده» (١٦٩٩٥)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٧).

(٧) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦/٥ رقم ٢٣٤٧٣) من غير طريق وكيع.

القرآن»[(١)].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من علق وترا.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

أما التمائم فهي: تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها، والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم.

فمنها: ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين. فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله.

ومنها: ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها؛ لأنها تجر إلى الشرك، وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم؛ ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل بها المواضع القذرة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦/٥ رقم ٢٣٤٦٧)، وإبراهيم هو النَّخَعِيُّ.

أما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن، فإنها مندوبة في حق الراقي؛ لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي، إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحدا من الخلق لا رقية ولا غيرها، بل ينبغي إذا سأل أحدا أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه، بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد.

وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره، فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله. فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب: وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...﴾ الآيات [النجم:١٩].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و«العزى» من «العزيز»، و«مناة» من «المنان» إلحادا في أسماء الله وتجريا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النجم: ٢١] أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٢] أي: ظالمة جائرة، وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وقوله: **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾** [النجم: ٢٣] أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما

أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينا، وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: ٢٤-٢٥] فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيهم، ولا موافقا لأهوائهم»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

تحريم التمائم كما وردت في النصوص الشرعية، والتفصيل في الرقى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا الباب المراد به بيان ما يتعلق بالرقى والتمائم، وهل هي من المنهي عنها، وهل يكون شركا أو لا؟ ولما كان أمر التمائم والرقى بحسب التميمة والرقية؛ لم يبين المصنف الحكم في ترجمة الباب لذلك، وإنما أبهمه، فكأنه قال: باب ما جاء في بيان حكم التمائم والرقى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان أحكام التمائم وبيان ما جاء في التمائم من النهي،

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨١٩).

وخاصة التي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين، ولبيان الجائز والممنوع منها.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف في الباب السابق أن لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء أو جلبه من الشرك، بيَّن حكم نوع خاص من المعلقات وهي التمائم، وحكم نوع خاص مما يطلب به دفع الضر، وجلب الخير، وهي الرقى.

ولما كان قد عقد فيما مضى بابًا في بيان التوحيد وتفسيره، فإن هذه الأبواب كلها لبيان نواقض التوحيد ونواقصه، ومن جملة ذلك التمائم والرقى؛ فإنها قد تكون ناقضة للتوحيد من كل وجه، وقد تكون منقصة للتوحيد، وقد تكون جائزة، فكلٌّ بحسبه.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الحديث الأول: «فأرسل رسولًا ألا يبقين في رقبة»: استدل المصنف بإنكار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه القلائد، وأمره بقطعها وإزالتها؛ على أن التمائم والقلائد والأوتار محرمة، وهي نوع شرك، وإذا كان باعتقاد نفعها كان شركًا أكبر(١).

الحديث الثاني: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»: أورده المصنف للاستدلال به على شركية المعلقات التي تكون القلوب معلقة بها، وأن من علق قلبه بها فقد أشرك.

الحديث الثالث: «من تعلق شيئًا وكل إليه»: استشهد به المصنف للدلالة على أن العبد لا ينبغي له أن يعتمد، ولا أن يتوكل، في طلب خير أو دفع شر، إلا على الله، ومن اعتمد على غيره، أو توكل عليه؛ فإنه يوكل إلى ذلك الغير(٢).

الحديث الرابع: «فأخبر الناس أن من عقد لحيته»: أورده المصنف؛ لأن فيه أن من تقلد وترا، وجعله قلادة؛ فقد وقع فيما نهى عنه النبي ﷺ من التعلق بغير الله تعالى(٣).

وأما أثر سعيد بن جبير: «من قطع تميمة» فأورده المصنف للدلالة على فضل قطع التمائم.

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٤٤).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٦).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٧).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى القلادة من الوتر وحكم تعليقها:

المقصود بالقلادة: ما كان يصنعه أهل الجاهلية من التقليد بالأوتار، **والوتر:** أحد أوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا بلي الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب؛ اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين، أما حكم تعليق القلادة لدفع الضر، وجلب النفع فإنه شرك أبطله الإسلام، فدفع الضر وجلب النفع والدعاء والاستغاثة والاستعانة من خصائص الله، وهذه الأوتار وغيرها ليست أسبابًا شرعية ولا أسبابًا كونية.

الفقرة الثانية: أنواع التعاليق بالنسبة إلى محلها:

١ - ما يعلق على الحيوان وهي القلادة من الوتر ونحوه، تعلق على الدابة ونحوها.

٢ - ما يعلق على الإنسان: وهي التمائم التي يتقون بها العين، ويعلق على الأولاد من خرزات وتعاويذ وخيوط وحلق وغيرها.

٣ - ما يعلق على باب الدار والدكان ونحوهما، باعتقاد أنه يجلب الرزق، ويدفع العين والضر، ونحو ذلك، ومثل هذا ما في هذا العصر مما يعلقه بعض الناس على سياراتهم وبيوتهم من تعليق الأحذية، أو الخرزات، ونحو ذلك.

الفقرة الثالثة: أقسام التعاليق بالنسبة إلى نوعها:

١- المعلق من الألفاظ الشركية، والطلاسم التي لا تعرف معناها، أو الحسابات والأشكال الهندسية التي هي رموز لأهل الطلاسم.

٢- المعلق من القرآن والسنة، أو ما كان مفهوم المعنى وليس فيه شيء من المعلق من القرآن والسنة وما هو مفهوم المعنى بشيء مخلوط بالسحر والدجل مما فيه شرك، أو طلاسم، أو حسابات، أو استغاثات بالجن والشياطين، وغيرهم من المخلوقين.

الفقرة الرابعة: بيان أقسام التمائم بالنسبة إلى الحكم عليها:

١ - التمائم الشركية وهي تعليق تعاويذ تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم، فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، وهذا النوع من التمائم لا شك في أنه شرك، وأن من فعل ذلك فقد فعل الشرك، ومن هذا النوع ما كان فيه خلط القرآن بالتعاويذ الشركية.

٢ ـ التمائم المحرمة: وهي تعليق تعاويذ فيها أسماء لا يفهم معناها، وليس فيها استغاثة بغير الله؛ فهي حرام؛ لأنها تجر إلى الشرك، ومن هذا النوع ما اشتمل على القرآن وغير مفهوم المعنى مما ليس بشرك؛ فهذا محرم بكل حال.

٣ـ التمائم من القرآن الكريم، أو مما هو مفهوم المعنى مما فيه دعاء وطلب من الله تعالى وحده لا شريك له.

فالنوعان الأولان من أنواع التمائم لا شك في حرمتهما، وأنهما من نواقض التوحيد أو نواقصه، ولذا حرم الإسلام هذه التمائم وأبطلها، لكن يستثنى من ذلك إذا كان المعلق من القرآن فقد اختلف فيه العلماء: فرخص فيه بعضهم وأجاز تعليقه، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه وهو الصحيح، وعليه دلت الأدلة، وذلك لما يأتي:

١ ـ عموم النهي عن تعليق التمائم ولا مخصص للعموم.

٢ ـ أن تعليق القرآن يكون سببًا في امتهانه، فلابد أن يمتهنه المعلق فيحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء، ونحو ذلك.

٣ـ كونه ذريعة إلى تعليق ما ليس من القرآن.

٤ ـ لم يعهد ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يثبت عنه أنه علق تميمة، أو أجاز تميمة، ولو كان مشروعًا لبينه، وأجازه، كما بين أن الرقى بالكتاب والسنة جائزة، ولذلك رقى نفسه، وكان يرقي غيره بالكتاب والدعاء.

الفقرة الخامسة: أجر من قطع تميمة من إنسان:

من قطع تميمة تشتمل على الشرك من إنسان فله من الأجر مثل أجر من أعتق رقبة كما قال ذلك سيد التابعين سعيد بن جبير، وتوجيه ذلك أنه حرره من الرق لغير الله تعالى، وحرره من الشرك.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «وفي الحديث -يعني حديث سعيد بن جبير ـ فضل قطع التمائم، وأنه كعدل رقبة؛ لأنه سيخلص هذه الرقبة من النار، ومن الشرك؛ فيكون أفضل من عتق رقبة»[(١)].

الفقرة السادسة: معنى الرقى وحكمها:

الرقى جمع رقية، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب المرض، وتسمى

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٤٧).

العزائم، أما حكم الرقية فإنما يتبين بمعرفة ما يُرقى به، ولا يخلو الأمر من أن تكون الرقية:

(أ) **جائزة:** وهي ما تجردت من الشرك، واجتمع فيها شروط ثلاثة:

١ - أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه.

٢ - أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته، أو بكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله.

(ب) **رقية محرمة شركية:** وهي ما يدعى بها غير الله، ويطلب الشفاء من غيره؛ فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله.

(ج) **رقية محرمة:** وهي التي ليس فيها شيء من الشرك، ولكنه يحتوي على ما هو غير مفهوم المعنى؛ فإن ذلك ذريعة إلى الشرك وباب إليه.

الفقرة السابعة: التولة من الشرك:

التولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والزوج إلى امرأته، وهو نوع من السحر، ولذلك كان محرم شرعًا، ويدخل فيه سحر التفريق، وهذا قد ذكر في القرآن الكريم، وأن ذلك من أفعال السحرة، حيث قال تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة:١٠٢]، وإنما كان من الشرك لما يراد به من جلب المنافع ودفع المضار من غير الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولا شك أنه يدخل في التولة كل نوع سحر أو دجل يزعم أنه يحبب المرأة إلى زوجها، أو الرجل إلى زوجه.

الفقرة الثامنة: خطورة الاعتماد على غير الله:

يجب أن يكون اعتماد العبد على الله تعالى، وأن يتعلق القلب به وحده، وفعل الأمور بيد الله تعالى وحده؛ فالكون ملكه، ولا يجري في ملكه إلا ما يكون في تصرفه وتدبيره؛ وأن من اعتمد على غير الله في طلب خير أو دفع شر وكّله الله إلى ذلك الشيء الذي اعتمد عليه، ولهذا كان المشرك على خطر عظيم من نواح كثيرة، منها:

١ - أنه معتمد على غير الله.

٢ - أنه يرى حسنًا ما ليس بالحسن، ويرى النفع فيما لا ينفع لا عقلا ولا حسا.

٣- أنه يعرض نفسه للأرباب المتفرقين؛ فيصبح قلبه في شتات وهمه في غيابات.

٤- أنه يعرض نفسه بالوقوع في الشرك - للنار، والخلود فيها إن مات على الشرك.

٥- أنه يتعلق بكل شيء؛ لأن قلبه خال عن التوكل على الله تعالى، وذهنه مصروف عن الله تعالى إلى غيره، وأعماله موجهة إلى غير الله تعالى.

٦ - أنه يعيش في الضنك والحياة التعيسة الشقية.

٧- أنه محروم عن توحيد الوجهة، فتراه يتخبط في ظلمات الكفر والشرك.

الفقرة التاسعة: براءة النبي ﷺ ممن عقد لحيته، أو تقلد وَتَرًا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم:

حرم الدين الإسلامي الحنيف عقد اللحية، وتقلد الوتر، والاستنجاء برجيع دابة، أو عظم، وتبرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن فعل شيئًا من ذلك، وكانت هذه الأعمال من أفعال أهل الجاهلية؛ فإنهم كانوا في الحرب يعقدون لحاهم تكبرًا، ومثل هذا ما هو حاصل من عقد اللحى في المشركين السيخ في الهند، ويحملون القلادة في عنق الدابة، وهو شرك، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستنجاء والاستجمار بالروث والعظم؛ لأنه طعام الجن(١).

المقصد الرابع : الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي: «إذا رأى المشركون أن الذي ينهاهم عن الشرك لا يقبل عذرهم؛ انتقلوا إلى حجة أخرى وهي تخويفه من شركائهم، كما

---

(١) رواه مسلم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، ولفظه: عن علقمة، قال: أنا سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا ولكنا كنا مع رسول الله ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب. فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «**أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن**»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**».

حكى الله عن قوم إبراهيم وقوم هود، فقال لهم إبراهيم: أنا لا أخاف ما تشركون به من الآثار، ولا الذين تنسبون إليهم؛ لأني أعلم أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله.

ولما كنت في تطوان أدعو إلى توحيد الله؛ أصابني مرض الربو، فقال المشركون: إن السيد السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض؛ لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة وطلب قضاء الحاجات، حتى المطر يطلبونه منه، فقلت لهم على كرسي الوعظ في المسجد الجامع: إن قومًا زعموا أن السيد السعيدي هو الذي أصابني بهذا المرض وهؤلاء ليس لهم عقل ولا دين، أما الدليل على أنهم ليس لهم عقل: فهو أن رجالًا ونساء كثيرًا من أهل تطوان مصابون بهذا المرض وهم يعبدون السيد السعيدي، فمن أصابهم به؟ وأما الدليل على أن ليس لهم دين فإن السعيدي إن كان صالحًا -كما يقولون- فإنه لا يعلم ما أدعو إليه؛ لأنه مشغول بما أعد الله له من نعيم الجنة، ولا يعلم الغيب، ولو علم أني أدعو إلى توحيد الله واتباع رسوله لفرح بذلك، وإن كان السعيدي لا يحب توحيد الله -تعالى- ولا اتباع رسوله فليس بصالح، ولا مؤمن بالله فأنا لا أبالي به مع أنه عاجز عن النفع والضر»(١).

وقال: «ما أشبه الليلة بالبارحة؛ فما زال المشركون يأكلون خير الله ويعبدون غير الله، ما زالوا في كل زمان ومكان يصدون الناس عن سبيل الله؛ أي: توحيد الله واتباع رسله، وفي هذا الزمان كل من وحد الله واتبع سنة رسوله يقفون له بالمرصاد، ويقولون: احذروا فلانا فإنه وهابي! وقد صدقوا وهم كاذبون؛ فإن من وحد الله واتبع رسوله تصح نسبته إلى الوهاب -سبحانه-، كما قال -تعالى- في قصة إبراهيم: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠]، لما اعتزل إبراهيم المشركين في العراق - وهو وطنه-، وذهب في أرض الله متوكلًا على الله ؛ وهب الله له ذرية طيبة: إسماعيل، وإسحاق، وبشره كذلك بيعقوب بن إسحاق ليرى أبناءه وأحفاده صالحين»(٢).

«مشركو هذا الزمان يعتبرون العالم الذي يدعوهم إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله؛ ناقص العقل أحمق ويعتبرون العالم الذي يسالمهم ولا ينكر عليهم ما هم فيه من الشرك عاقلًا حسن الخلق، يقدر الناس حق قدرهم، ويعاشرهم بالإحسان، فهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولكن من شرح صدره للإسلام وكان على نور من ربه؛ لا يبالي بعداوة المشركين؛ بل يجدُّ في الدعوة إلى الله

(١) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (١/٣٤٩-٣٥٠).
(٢) ينظر: المصدر السابق (١/٣٥١) بتصرف.

ويستنصر به على أعداء التوحيد، فقد وعده بالنصر، والله لا يخلف الميعاد قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [غافر: ٥١-٥٢]»(١).

وقال - أيضًا -: «رؤساء المشركين في هذا الزمان جعلوا لله أندادًا ونصبوا قبابًا على القبور التي يعتقدون أن المدفونين فيها صالحون، وأمروا أتباعهم إذا ماتوا أن يبنوا على قبورهم قبابًا، ويعبدونها، فكم منكرات ترتكب عند هذه الأوثان من اختلاط الرجال والنساء، وكتابة كتب الاستجداء وإلقائها في توابيت الأضرحة، يسألون المقبورين حاجاتهم؛ فيجيبهم السدنة إن كانوا أغنياء، وإن كانوا فقراء أهملوا جوابهم، وكم بقرٍ وغنمٍ يُهَلُّ بها لغير الله عند تلك الأوثان؟!»(٢).

---

(١) ينظر: المصدر السابق (١/٥٤٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق (١/٥٧٨)، وينظر منه - أيضًا -: (٢/٢٢٧- ٢٢٩).

٩- باب من تبرك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوهما

١- وقول الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى**﴾[١].

٢- عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٢] لتركبن سنن من كان قبلكم**»[٣] رواه الترمذي وصححه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله: «**الله أكبر، إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير -وهو المقصود- أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا**﴾[٤].

التاسعة: أن نفي هذا من معنى (لا إله إلا الله) مع دقته وخفائه على أولئك.

---

(١) النجم: [١٩-٢٣].
(٢) الأعراف: [١٣٨].
(٣) اللفظ لأبي داود الطيالسي (١٤٤٣)، ورواه الترمذي (٢١٨٠) بلفظ قريب، وقال: «حديث حسن صحيح». وكذلك صححه الألباني.
(٤) الأعراف: [١٣٨].

العاشرة: أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب خلافا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية؛ لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه مقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر.

أما: «من ربك» فواضح، وأما «من نبيك» فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما «ما دينك» فمن قولهم: ﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَـهًا**﴾ إلى آخره.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة؛ لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

أي فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها؛ فإن هذا التبرك غلو فيها، وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله، واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة، فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته، فهو روح التعبد، فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له، فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...﴾ الآيات [النجم:١٩].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و«العزى» من «العزيز»، و«مناة» من «المنان» إلحادا في أسماء الله وتجريا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟ **﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾** أي: ظالمة جائرة، وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ تعالى عن قولهم علوا كبيرا.

وقوله: **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾** أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينا، وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾** أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود،

وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾(١) فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيهم، ولا موافقا لأهوائهم»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن التبرك بالأحجار والأصنام والشجر، ونحوها من فعل المشركين.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم التبرك بالأحجار والأشجار وما شابههما، وهل هذا يجوز أو لا، وإن كان لا يجوز فهل يكون فاعله مشركًا أم لا، وهل يعذر إذا قاله ولم يعمله إن كان جاهلا؟.

التبرك المشروع والتبرك الممنوع:

قلت: لم يحكم الإمام حكمًا صريحًا؛ لأن التبرك نوعان كما سيأتي:

١- نوع مشروع: وهو التبرك بالقرآن وبآثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا ثبت أن هذا الشيء من آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالجبة ونحوها يجوز التبرك به وإلا فلا؛ إذن لا بد من التثبت والثبوت القاطع؛ فإذا كنا نتثبت في صحة الحديث، وهل ثبت أم لا، فالتثبت في الآثار من هذا الباب واجب، وليس كل ما قيل أنه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبل حتى يكون هناك إسناد لهذا المنقول ثابت.

فما شاع في كثير من البلاد أن هناك شعرة من شعر الرسول صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو هناك جبة أو نحو ذلك مما لا دليل على ذلك ولا سند له، فالتبرك بمثل

(١) النجم: [٢٤-٢٥].
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨١٩).

هذه الأمور باطل.

٢ - وتبرك ممنوع غير مشروع: وهو قسمان:

القسم الأول: تبرك شركي وهو ما كان فيه طلب الخير والنماء من غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ كأن يعتقد المتبرِّك - بصيغة اسم الفاعل - أن المتبرَّك به - بصيغة اسم المفعول - من غير الله يعطي الخير والنماء فوق الأسباب العادية، وهذا النوع شرك أكبر، بل هو شرك في الربوبية؛ لأنه يرجع إلى التصرف في الكون.

والقسم الثاني: تبرك بدعي وهو ما لم يكن فيه طلب الخير والنماء من غير الله تعالى؛ ولكن يكون فيه طلب الخير والنماء من الله تعالى بواسطة شيء لم يرد الشرع به، أو ورد الشرع بخلافه.

وهذان النوعان من التبرك الممنوع الغير المشروع الشركي والبدعي موجودان عند القبورية بكثرة كاثرة كما صرحوا بها في كتبهم كالتبرك بقبور الأولياء(١)، والتبرك بوضع تمثال قبر الحسين في البيت(٢).

وكتبرك بعض الصوفية كالديوبندية ونحوهم بحجرة النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبركهم بغلاف قبره الشريف، وتبركهم بتمر المدينة على غير الوجه المشروع -وهو التداوي به لأجل السحر والسم، وتبركهم بنوى تمر المدينة، وتبركهم بتراب الحجرة النبوية، وتبركهم بأقمشة المدينة، وتبركهم بالزيت المحروق في المسجد النبوي، وفي الحجرة النبوية، وإدخالهم الأطفال إلى الحجرة للتبرك، وتبركهم بالقبر الشريف، وتبركهم بموضع جلوس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبركهم بكل ما مسته يده الشريفة، وتبركهم بكل ما مرت عليه قدمه الشريفة، وتبركهم بالمنبر النبوي(٣).

والتبرك بكتاب «الإحياء» للغزالي(٤).

والتبرك بكتاب «المثنوي» للرومي(٥).

---

(١) ينظر: «كشف النور» للنابلسي (صـ ١٦)، و«كشف الارتياب» (صـ ٤٢٩)، و«مرام الكلام» (صـ ٦).
(٢) ينظر: «بدر الأنوار» للبريلوي (صـ ٥٧).
(٣) ينظر: «الشهاب الثاقب» (صـ ٥٢-٥٤) ، و«فضائل الحج» (صـ ١٠٤) (ضمن فضائل الأعمال لتبليغي نصاب).
(٤) ينظر: «إمداد المشتاق» (صـ ٩٢).
(٥) ينظر: «إمداد المشتاق» (ص ٨٨-٨٧)، و«كشف الظنون» (١٥٨٧/٢).

والتبرك بـ«قصيدة البردة» للبوصيري[(١)].

وتبرك الحنفية بكتاب «مختصر القدوري» في الفقه الحنفي[(٢)].

الحاصل: أن التبرك بشيء لم يرد التبرك به شرعًا باطل ممنوع غير مشروع؛ لأنه إما شرك، وإما وسيلة إلى الشرك، وكل ذلك من أعمال أهل الجاهلية كما صرح به أهل هذا الشأن، قال الإمام ولي الله الدهلوي (١١٧٦هـ) بعدما ذكر حديث النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة: «أقول: كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها -وفيه من الفساد ما لا يخفى- فَسَدَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفساد؛ لئلا يلتحق غير الشعائر بالشعائر، ولئلا يصير ذريعة لعبادة غير الله؛ والحق عندي أن القبر ومحل عبادة ولي من أولياء الله، والطور، كل ذلك سواء في النهي»[(٣)].

وقد ذكر الشاه ولي الله أنواع التبرك الشركي، فقال: «ومنها أنهم كانوا يتلون أسماءهم رجاء بركتها، فأوجب الله عليهم أن يقولوا في صلاتهم: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨]» [(٤)].

وقد صرح الإمام ابن القيم أن تبرك القبورية، إنما هي بالصلاة عند القبور، أو بالدعاء عندها، أو التبرك بالمساجد المبنية عليها، وصرح أن هؤلاء المشركين من القبورية، قد قلبوا الدين وعاكسوه في استنزال البركات من الميت[(٥)].

وقال ابن القيم رحمه الله بعد ما ساق قصة دانيال: «ففي هذه القصة أن غيب قبره المهاجرون والأنصار لئلا يفتتن به الناس ولم يزوروه للدعاء عنده والتبرك به»[(٦)].

وذكر أيضًا الإمام ابن القيم رحمه الله أن قبورية دمشق بالشام كانوا يتبركون بالنصب الذي كان تحت الطاحون عند مقابر النصارى، والنصب الذي كان عند الرحبة، وكان هؤلاء القبورية يتبركون به، وأنصاب أخرى أيضًا يعبدها القبورية فكسرها الله على يد شيخ الإسلام، وأيدي حزب الله الموحدين[(٧)].

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «كشف الظنون» (١٣٣١/٢).
(٢) ينظر: المصدر السابق (١٦٣١/٢).
(٣) «حجة الله البالغة» (٥٤٣/١).
(٤) ينظر: المصدر السابق (١/ ١٨٥).
(٥) ينظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٣١٠-٢٨٩).
(٦) المصدر السابق (٣١٩/١).
(٧) ينظر: المصدر السابق (٣٢٩/١).

بيان أن التبرك بالأحجار والأشجار وكل ما ليس بمشروع التبرك به من نحو الأشجار والأحجار - فإنه لا يجوز، بل هو من الشرك، وأن ذلك التبرك لا ينفع، وإنما الذي ينفع هو ما ورد في الشرع.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف شيئًا من حال أهل الجاهلية وما تعلقوا به من أمور الشرك كالتمائم ونحوها ناسب أن يذكر مظهرًا آخر من مظاهر الشرك عند أهل الجاهلية، وهو التبرك بالأشجار والأحجار والبقع والمشاهد، وجاء الإسلام فأبطل ذلك؛ فإن هذا التبرك غلو فيها، وذلك يؤدي إلى دعائها وعبادتها، وهذا الفعل ناقض للتوحيد ومنقص له.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

أما الآية: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**﴾: ذكرها المؤلف لبيان أن التبرك بالشجر والحجر هو عبادة المشركين الذين كانوا يعبدون اللات والعزى، والتبرك بالقبور من جنس أفعال المشركين عند أوثانهم؛ فمن فعل ذلك فقد شابههم في فعلهم، ومن تشبه بقوم فهو منهم(١).

وحديث أبي واقد الليثي وفيه: «**قلتم كما قالت بنوا إسرائيل لموسى**»: استشهد المؤلف بالحديث؛ لأنه يفيد أن التبرك بالأشجار والأحجار من الشرك، والحديث يدل على أن الاعتبار بالحقائق لا بالألفاظ؛ لأنهم طلبوا شيئًا يعظمونه، ويتبركون به؛ فشبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلهم بفعل بني إسرائيل الذين طلبوا أن يكون لهم إله يتقربون إليه كالعجل؛ فالنظر إنما يكون إلى المعنى لا إلى اللفظ فحسب(٢).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى التبرك بالأشجار والأحجار وحكم ذلك:

معنى التبرك بالأشجار والأحجار: أي طلب البركة والنماء والزيادة والخير منها، والتبرك بما لم يشرعه الله تعالى حرام؛ فمن تبرك بهذه الأحجار والأشجار والقبور والتراب واعتقد أنها تنمي وتزيد وتبارك في العمر أو المال، أو تعطي أو

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٤٩).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٥١).

تنفع بنفسها؛ فهذا هو الشرك الأكبر، وهذا فعل المشركين.

الفقرة الثانية: تبرك المشركين باللات والعزى، ومناة:

اللات والعزى ومناة أسماء لأوثان، كان المشركون يعبدونها في الجاهلية، ويتبركون بها[١]؛ فيتبركون باللات ويعبدونها، وهي صخرة بالطائف، ويتبركون بالعزى ويعبدونها، وهي: شجرة في وادي نخلة بين مكة والطائف، ويتبركون بمناة ويعبدونها، وهي: صخرة بين مكة والمدينة، وقد أزيلت هذه الأصنام يوم فتح مكة.

قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**﴾، والمعنى: أخبروني عن هذه الآلهة التي تتبركون بها، وتعبدونها من دون الله، هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله تعالى؟.

الفقرة الثالثة: التبرك المشروع والتبرك الممنوع:

ينقسم التبرك إلى تبرك مشروع، وتبرك ممنوع، والتبرك الممنوع ينقسم إلى تبرك هو شرك أكبر، وتبرك هو شرك أصغر.

والتبرك المشروع: هو ما علم شرعًا أن فيه بركة، وأذن الشارع في قصدها، والانتفاع بها، وذلك كبيت الله؛ فإنها موضع للعبادة مبارك، والأجر فيها مضاعف، وماء زمزم لما شرب له، والمساجد الثلاثة التي يشد الرحال إليها كلها مباركة، فإن الصلاة فيها أعظم من غيرها.

والتبرك الممنوع: هو ما لم يأذن به الشارع، وذلك كفعل جهلة المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان أو ضريح فلان، وإقامة الحفلات حولها، والنزول بساحتها، والعكوف عندها، وتشبيهها ببيت الله تعالى، وإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك، وهذا باطل منهي عنه.

---

(١) أقدم هذه الأصنام: مناة: وكان بقديد بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وتذبح حوله، ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظاماً له من الأوس والخزرج، فلم تزل كذلك حتى عام الفتح، فبعث إليها عليًّا رضي الله عنه فهدمها وأخذ ما كان لها.

وأمَّا اللاَّت: فهي أحدث من مناة، وكانت بالطائف، وكانت صخرة مربَّعة، وكان يهودي يلُت عندها السُّوِيق، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فهدمها وحرَّقها بالنار.

وأمَّا العُزَّى: وهي أحدث من اللاَّت ومناة، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانت تخصها بالإعظام، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم، يقال له ((الغَبغَبُ))، وكانت شيطانة، تأتي ثلاث سَمُرَات ببطن نخلة، فلم تزل كذلك، حتى عام الفتح، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم سيف الله: خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطع السَّمُرات، وقتل تلك الشيطانة. انظر: الأصنام لهشام الكلبي (ص ١٣- ٢٧)، وسيرة ابن هشام (١/١٢٩)، وأخبار مكة للأزرقي (١/١٩٦).

وإن كان المتبرك يعتقد أن هذا المتبرك به يبارك بنفسه فهذا- شرك أكبر، وإن كان يعتقد أن الله هو الذي يبارك فيه فيتبرك به -مع أن الله لم يأذن في ذلك- فهذا شرك أصغر؛ لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وهو حرام بكل حال.

الفقرة الرابعة: ناقل قول الشرك دون العمل والاعتقاد لا يكون واقعًا فيه:

وأصل ذلك أن ناقل الشرك ليس بمشرك إذا كان ينقله على سبيل الحكاية والحاجة للكلام، فإذا كان الشخص يقول الكفر والشرك وهو لا يعتقده ولا يعمل به وإنما ينقل؛ فإنه يقال في حقه: ناقل الكفر ليس بكافر، وإنما يؤاخذ الإنسان إذا قال الكفر والشرك استهزاء أو اعتقادًا، أو عمل بالكفر، ولهذا فإن هؤلاء حدثاء العهد بالإسلام لما طلبوا بلسانهم التبرك بالأحجار وهم لم يعملوا ذلك بعد رجاء انتظار أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن فعل ذلك هو عين فعل المشركين، وأن طلب ذلك لا يجوز، وأن طلب هذا الأمر عظيم؛ فشبه طلبهم بطلب بني إسرائيل، حين قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾، ولم يحكم عليهم بالكفر والشرك لمجرد هذا القول.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

عبادة الأشجار قديمة عند النَّاس؛ كعبادة الإنسان والحيوان، وقد قرأتُ في مجلَّةٍ أنَّ: «شجرة في بعض جزائر إفريقية الشَّرقية تُعبد، وهي من الشَّجر الَّذي يتغذَّى بالحيوان، وأهل تلك الجزيرة يُقدّمون لها فتاة تلتقطها بأطراف أغصانها، وتبتلعها في جوفها.

ورأيتُ في مصر بقرب قرية كفر عامر شجرةً يعبدها الجهَّال، وانتدب لها صديقنا الأستاذ الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة مدير مدرسة دار الحديث بمكة المشرفة، والمدرّس في المسجد الحرام حالا؛ فقصدها ذات ليلة، وأراد أن يقطعها، فبات يعالجها، فعجز عنها لضخامة جذعها، فقطع غصنًا من أغصانها، فلما جاء عُبَّادُها ورأوا ما وقع لها؛ اغتاظوا وغضبوا غضبًا شديدا، واتَّهموا الأستاذ المذكور، وشكوه إلى الحاكم؛ فلم يسعه إلَّا الإنكار»[1].

---

(١) مقالة بعنوان: «صور من حياتنا الاجتماعيَّة» نشرت في جريدة «العَلَم» المغربيّة، السنة الخامسة عشرة، العدد (٤١٣١)، بتأريخ ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ-٨ نوفمبر ١٩٦٠م، (ص ٢، ٣).

١٠- باب ما جاء في الذبح لغير الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾(٢).

٣- عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: «**لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض**» رواه مسلم(٣).

٤- وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب**». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله، فضربوا عنقه، فدخل الجنة**» رواه أحمد(٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي**﴾ (٥).

الثانية: تفسير ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ (٦).

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى محدثا، وهو الرجل يحدث شيئا يجب فيه حق الله، فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك

---

(١) الأنعام: [١٦٢-١٦٣].

(٢) الكوثر: [٢].

(٣) رواه مسلم (١٩٧٨).

(٤) لم يروه أحمد في «مسنده»، وإنما رواه في «الزهد» (٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧٣/٦ برقم ٣٣٠٣٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٧٩٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٠٣/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٦٢)، والخطيب في «الكفاية» (صـ ١٨٥)، جميعًا من طريق طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفًا، وهو ثابت إليه كما في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث رقم (٥٨٢٩)، وهو لا يقال من جهة الرأي.

(٥) الأنعام: [١٦٢].

(٦) الكوثر: [٢].

وحق جارك من الأرض فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصا من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافرا لم يقل: «**دخل النار في ذباب**».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»(١).

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة، فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه. وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام.

فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: (أن يصرف العبد نوعا أو فردا من أفراد العبادة لغير الله) .

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر. فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء(٢). كما أن حد الشرك الأصغر هو: (كل وسيلة

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) تنوعت عبارات أهل العلم في حدّ الشرك الأكبر، وبالتأمل فيها ترجع إلى القول بأن الشرك الأكبر: هو صرف ما هو من خصائص الألوهية والربوبية لغير الله تعالى، أو تسوية غير الله تعالى بالله فيما هو من خصائص الألوهية والربوبية، أو نسبة شيء منهما إلى غيره. انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية =

وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة)[١]، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

قال السعدي: «خصص أشرف العبادات فقال: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**﴾ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

وقوله: ﴿**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي**﴾ أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ، وما يقدر عليَّ في مماتي، الجميع ﴿**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ﴿**لا شَرِيكَ لَهُ**﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعا مني، وبدعا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿**بِذَلِكَ أُمِرْتُ**﴾ أمرا حتما، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ من هذه الأمة»[٢].

(١٠٨/٧)، ومجموع الفتاوى له (١٤٥/١٧)، ومدارج السالكين لابن القيم (٣٦٨/١).

وهذا التعريف هو الذي ذكره ابن سعدي في تفسيره (ص٢٧٩)؛ حيث قال: (**حقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أويصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية**)

وأكثر نصوص الشرع من القرآن والسنة على التحذير والتنفير من الشرك في الألوهية والعبادة، لأنه أغلب شرك الأولين والآخرين، وهو مبني على أن أصل دعوة المرسلين: هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وأما الشرك في الربوبية فقليل، لأنه ربوبية الخالق أمر مفطور في الخلق، إلا من شذ.

(١) وقد يضاف إليه قيد آخر؛ وهو: وروده في الشرع باسم الشرك، جاء في فتاوى اللجنة الدائمة ما نصه -عند تعريف الشرك الأصغر: (كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركا). فتاوى اللجنة الدائمة (٥١٧/١).

وقال ابن قاسم رحمه الله: (والأصغر: ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر). حاشية على كتاب التوحيد (ص٥٠).

وقال ابن باز رحمه الله: (أما الشرك الأصغر فهو: ما ثبت بالنصوص من الكتاب أو السنة تسميته شركا، ولكنه ليس من جنس الشرك الأكبر). مجموع فتاوى ابن باز (٥٦/١).

(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٨٢).

٢- وقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

قال السعدي: «خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات. ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو ما جاء في النصوص الشرعية من الوعيد للذي يتقرب إلى غير الله تعالى بقصد التعبد، وأن ذلك من الشرك الأكبر.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم الذبح - ويدخل فيه النحر، والتقرب بالدم على أي وجه كان لغير الله تعالى، وأنه شرك ناقض للتوحيد، ومخالف ومجانب لمعنى شهادة الإسلام.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن الذبح لغير الله تعالى شرك، وأنه مخالف للتوحيد، ومخالف لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن الذبح لغير الله تعالى عبادة، والعبادة لا تصح إلا لله تعالى، فمن صرفها لغير الله تعالى فقد ناقض التوحيد ووقع في الشرك.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف شيئًا من مظاهر الإشراك، والتعلق بغير الله، انتقل إلى ذكر بعض أنواع العبادات التي لا تنبغي إلا لله، والتي يشرك بعض الناس بصرفها لغير الله، فبدأ بذكر الذبح؛ فإنه عبادة لله، والذبح لغير الله شرك ينافي التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**﴾، والآية الثانية : ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾: بين المصنف أن الآيتين أفادتا أن الذبح من أنواع العبادة يجب إخلاصه لله تعالى، فمن ذبح لغير الله تعالى فقد صرف عبادةً لغيره، وصرف العبادة لغير الله شرك.

حديث: «**لعن الله من ذبح ...**». أورده المصنف للاستدلال به على عظم عقوبة من ذبح لغير الله، حيث استحق اللعن.

حديث طارق بن شهاب: «**قالوا: قرب ولو ذبابا ...**». ذكره المصنف لبيان عظم

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٩٣٥).

ذنب

من يتقرب إلى غير الله تعالى بالذبح، ولو كان شيئًا يسيرًا.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الذبح لله من أجل العبادات:

نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح الله، وإخلاص ذلك لوجهه الكريم، وقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢]، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغيره: إنني أخلصت صلاتي وذبحي وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته مأمورون بالذبح لله تعالى أيا كان ذبحهم وباسم الله تعالى، كما يتقربون إلى الله تعالى بالذبح في الأضاحي، والنذور، والهدي، والذبح لله تعالى إكراما للضيف، وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن الإسلام(١).

الفقرة الثانية: الذبح لغير الله سبب لدخول النار:

الذبح الله عبادة، والذبح لغير الله تقربا إلى غير الله شرك أكبر مخرج عن الإسلام، وإن مات فاعله على ذلك دخل النار، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢]، وكما في حديث طارق بن شهاب: «**دخل النار رجل في ذباب**»؛ أي: من أجل أنه تقرب إلى غير الله بذلك.

ومن الذبح لغير الله تعالى - وهو شرك- ما يفعله بعض الجهلة من الذبح للسحرة والمشعوذين أنواعًا من القرابين، كذبح دجاجة سوداء، ومن ذلك ما يفعله بعضهم من ذبح دجاجة ونحوها عند شراء سيارة جديدة، وإزهاق الدم على عجلاتها، وما يفعله بعضهم من ذبح شاة ونحوها وتوزيع دمها على أبواب البيت وداخل جدرانها تقربًا إلى الجن أو زعما منه أن ذلك يكفيه شرهم! والأعظم انتشارًا ما هو جارٍ عند قبور من يُزعم أنه ولي من الذبح له والتقرب إليه، حتى ليخيل إليك أنك في منى من كثرة الذابحين! وهذا لا شك أنه من الشرك المبين، الذي حرمه رب العالمين.

الفقرة الثالثة: الذبائح على أرواح الأولياء من أعمال الجاهلية:

---

(١) قال نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري المعروف بنظام الأعرج: «قال العلماء: لو أن مسلمًا ذبح ذبيحة، وقصد بذبحها التقرب إلى غير الله صار مرتدًا، وذبيحته ذبيحة مرتد». «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٤٧١/١).

إن ما عرفه جهلة المسلمين وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء، وعلى المشاهد والقباب في المواسم التي تقام باسم أولئك الصالحين، وسوق البقر والغنم لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين، كل هذا ضلال وباطل، وهو من الشرك في عبادة الله تعالى، ومن أعمال الجاهلية الأولى، كما في قصة طارق بن شهاب رضي الله عنه السابقة[1]. ولهذا أمر الله نبيه أن يخالفهم، وألا يذبح إلا الله تعالى، فقال له: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ [الكوثر : ٢]. وأمة الإسلام مأمورة باتباع نبيها وعليها ألا تتقرب بذبح لغير الله تعالى؛ فكما أنهم يتقربون إلى الله تعالى في الأضاحي؛ فكذلك يجب عليهم ألا يتقربوا إلى غير الله تعالى بمثل هذه الأضاحي.

الفقرة الرابعة: الأعمال المتوعد فاعلها بلعنة الله كما في الحديث:

اللعن من الله: هو الطرد والإبعاد عن رحمته، والأعمال التي تُوعد فاعلها عليها بلعن في هذا الحديث هي:

١ - الذبح لغير الله.

٢ - من لعن والديه، وهذا قد يقع بإحدى صورتين:

أ- اللعن المباشر، وهو أن يواجه الوالدين باللعنة.

ب - لعن بالتسبب؛ كأن يلعن الرجل أبا رجل آخر فيلعن ذاك أباه.

٣- من آوى محدثًا: أي مجرما، أو مبتدعا ، وحماه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه، والمحدث هو: من فعل شيئًا يجب فيه حق الله أو حق الآدميين.

٤ - من غير منار الأرض فمن بدل علامات وحدود الأرض ومعالمها، فإنه ملعون على لسان رسول الله ﷺ.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

منها ما ذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله؛ حيث قال: «وفي هذه السنة سنة ١٣٩٤هـ انقطع المطر في المغرب، وطال انقطاعه؛ فأبى المشركون أن يصلوا صلاة الاستسقاء، وتشاءموا منها، وعمد بعضهم إلى ثور فاشتروه بثمان مئة درهم، وساروا به إلى الوثن المنصوب على قبر إدريس بن عبدالله رحمه الله، وذبحوه له متوسلين بذلك لنزول المطر؛ فخيَّب الله سعيهم»[2].

---

(١) تقدم تخريجه في أول هذا الباب.
(٢) «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (١٠٨/٢-١٠٩).

١١- لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾(١).

٢- وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**» قالوا: لا. قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» قالوا: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**» رواه أبو داود وإسناده على شرطهما(٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾ (٣).

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

---

(١) التوبة: ١٠٨.
(٢) رواه أبو داود (٣٣١٣)، وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٥١٨/٩): «صحيح على شرط البخاري ومسلم».
(٣) التوبة: ١٠٨.

ما أحسن إتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربا إليها وشركا بالله قد صار مشعرا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله، فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم. ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم، وجميع ما يختص بهم إبعادا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله(١) خوفا من التشبه المحذور.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨].

قال السعدي: «أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرارا أبدا. فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

النهي عن الذبح لله تعالى في الأماكن التي يتقرب فيها إلى غير الله تعالى، والنهي عن ا التشبه بهم في أفعالهم، والنهي عن مشاركتهم في عباداتهم.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أنه لا يذبح لله تعالى في المكان الذي يُذبح فيه لغير الله

---

(١) ومن ذلك ما رواه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وفيه: «صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة، فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل، فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار».

(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٥١).

تعالى، وأن الذبح لله تعالى تقربا في مكان يذبح فيه لغير الله محرم.

الحكمة من هذا النهي:

قال العلامة محمود شكري الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ (١٣٤٢هـ) : «نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله؛ حسمًا لمادة الشرك، وقطعا لوسائله، وسدًّا لذرائعه، وحماية للتوحيد، وصيانة لجنابه؛ فمن المستحيل شرعًا وفطرة وعقلًا أن تأتي هذه الشريعة المطهرة الكاملة وغيرها بإباحة دعاء الموتى والغائبين في الكربات والاستعانة بهم في الملمات والمهمات؛ كقول النصراني القبوري: يا والدة المسيح اشفعي لي إلى الله، في كذا، أو: يا عيسى أعطني كذا وافعل بي، وكذلك قول القائل القبوري: الرافضي أو الصوفي-: يا علي، يا حسين، يا عباس، أو يا عبد القادر، أو يا عيدروس، أو يا بدوي، أو يا فلان وفلان، أعطني كذا، أو أجرني من كذا، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي تتضمن العدل بالله تعالى والتسوية به -تعالى وتقدس-؛ فهذا لا تأتي شريعة ولا رسالة بإباحته قط؛ بل هو من شُعب الشرك الظاهرة الموجبة للخلود في النار، ومقت العزيز الغفار»(١).

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

لما ذكر المصنف أن الذبح لغير الله شرك، عقد هذا الباب لبيان تحريم الذبح الله في مكان يذبح فيه المشركون لغير الله، والغرض من ذلك منع مشابهة المشركين بمشاركتهم في أماكن تعبدهم؛ إذ قد يُنسب المرء إليهم، أو يظن به السوء، والواجب على المؤمن أن يبتعد عن ذلك كله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف في الباب السابق حكم الذبح لغير الله تعالى، وأنه من نواقض التوحيد، وأنه من الشرك، بيَّن حكم الذبح تقربا لله تعالى في مكان يتقرب فيه إلى غير الله، وأن ذلك لا يجوز، وأن من ذبح لله تعالى في مكان يذبح فيه لغير الله، فإنه قد خالف الأمر ونقص توحيده؛ لأجل تلك المخالفة.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]: استدل به المصنف على النهي عن القيام في الأماكن التي يتقرب فيها إلى الله تعالى كمساجد الضرار؛ فكيف بمن يتقرب إلى الله تعالى عند القبور التي يذبح فيها لغير الله تعالى؟ فإذا كان المسجد

---

(١) ينظر: «فتح المنان» (صـ ٤٢١، ٤٤٥-٤٤٦).

المعد بقصد تفرقة المسلمين وبقصد النفاق صار محل غضب الله لأجل ذلك؛ فلا تجوز الصلاة فيها؛ فكذلك الذبح لا يجوز في الأماكن التي يذبح فيها لغير الله تعالى[١].

وأما حديث ثابت بن الضحاك وفيه: «**هل كان فيها وثن؟**»: استدل به المصنف على أن المؤمن لا ينبغي له أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية؛ كأماكن الشرك والمعاصي، ولا يجوز للمؤمن التشبه بأهل الشرك فضلا عن مشاركتهم في أماكن تعبدهم؛ حتى لا ينسب إليهم، ولأن ذلك محل ريبة[٢].

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغيره:

المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك؛ فإذا ذبح المسلم ذبيحة وقصده لله فقد تشبه بالمشركين، وشاركهم في مشعرهم، ثم قد ينسب إليهم أو يظن به السوء، والمؤمن يبتعد عن ذلك: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلا بين المتشابهين يعود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال، وهذا محسوس»[٤].

وبهذا يتبين أن مشاركة المشركين في أفعالهم التعبدية محرم من باب أولى؛ فإذا كان لا يجوز للمسلم أن يتقرب إلى الله تعالى في مكان خاص بآلهة المشركين فكيف بمشاركة المشركين في أعيادهم وعباداتهم؟ لا شك أن ذلك كله محرم.

الفقرة الثانية: سبب نزول الآية وعلاقتها بالباب:

نزلت هذه الآية في شأن طائفة من المنافقين بنوا مسجدًا لمضارة المؤمنين -أهل مسجد قباء- والتفريق بينهم، وليكون ما بنوه ملجأ للكفرة، وزعموا أنهم بنوه للضعفاء والمساكين ليقيهم من المطر والبرد والحر، وسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه؛ فنزلت هذه الآيات في خبر المسجد؛ فبعث إليه الرسول صَلَّى

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٥٧).
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٧٣).
(٣) هذا جزء من حديث رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٤) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام (١/ ٨٠).

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة فهدموه.

ومناسبة الآية للباب: أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، كما أن هذا المسجد لما أُعِدَّ لمعصية الله صار محل غضب الله فلا تجوز الصلاة فيه، بل وجب هدمه.

الفقرة الثالثة: النهي عن مشابهة الكفار:

المؤمن لا يجوز له مشاركة المشركين في أمورهم الدينية، ولا في أماكن تعبدهم بفعل الطاعة لله، فإذا فعل ذلك فقد تشبه بالمشركين ولو لم يقصد هو التشبه بهم؛ إذ إن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد.

ولا يجوز للمسلم أن يشارك الكفار في مشاعرهم، ولا في أعيادهم، ولا فيما هو من خصائصهم؛ وذلك لأن الموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة، والميل في الظاهر سبب للميل في القلب.

١٢- باب من الشرك النذر لغير الله

١- وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(١).

٢- وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾(٢).

٣- وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»(٣).

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

(لم يعلق الشيخ السعدي على هذا الباب في «القول السديد»)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧].

قال السعدي: «﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى»(٤).

٢- وقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠].

قال السعدي: «وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها

(١) الإنسان: [٧].
(٢) البقرة: [٢٧٠].
(٣) رواه البخاري (٦٦٩٦).
(٤) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٩٠١).

وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره؛ فلهذا قال في آخر الآية: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو النذر، وأنه يكون لله وحده، ومن صرفه لغير الله تعالى فقد أشرك الشرك الأكبر، وهو شرك الجاهلية، وشرك عباد القبور الذين ينذرون للمقبورين، ويتقربون إليهم بمختلف أنواع القرابين.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من أنواع الشرك النذر لغير الله تعالى، والنذر نوع من أنواع القربات والعبادات التي إذا صرفت لغير الله تعالى كانت شركا، وإذا صرفت لله تعالى كانت قربة، وعبادة.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

مقصود المصنف رَحِمَهُ اللهُ من عقد هذا الباب بيان أن من نواقض التوحيد صرف النذر لغير الله تعالى، وأن النذر لغير الله تعالى شرك، وأن النذر لله تعالى عبادة، وبيان أن من نذر الطاعة فعليه بالوفاء؛ لأن ذلك قربة، ومن نذر معصية فلا يجوز له الوفاء؛ لأن ذلك معصية؛ فكيف إذا صرف النذر لغير الله تعالى؟.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن تكلم المصنف عن الذبح، انتقل إلى عبادة أخرى لا تنبغي إلا لله، وهي النذر، فالنذر لله من أنواع العبادة، وصرفه لغير الله شرك ينافي التوحيد؛ ولذلك ذكره من باب ذكر ناقض آخر من نواقض التوحيد.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ١١٥).

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾: استشهد به المصنف لأنها دلت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك؛ فالله مدح المؤمنين بأنهم يوفون نذورهم؛ فدل ذلك على أنه عبادة؛ فمن نذر لغير الله متقربًا إلى المنذور فقد أشرك.

الآية الثانية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾: ذكرها المصنف لأن الله أخبر بها أنه تعالى يعلم النفقات، ويعلم النذور، ويجازينا عليها؛ فدل ذلك على أن النذر عبادة فمن صرفها لغير الله فقد أشرك(١).

وأما حديث عائشة مرفوعًا وفيه: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»: دل الحديث على أن نذر الطاعة يجب الوفاء به؛ فهو مرغوب فيه شرعًا؛ فإذن هو عبادة، وصرف العبادة لغير الله تعالى شرك(٢).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى النذر:

النذر لغة: الالتزام والإيجاب

وشرعا: إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجبًا عليه بالشرع، قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنذر لغة: التزام خير أو شر، وفي الشرع: التزام المكلف شيئًا لم يكن عليه منجزا أو معلقًا»(٣).

والنذر الشرعي هو: إيجاب المكلف على نفسه ما هو من جنس القربات مما ليس واجبًا عليه بنص الشرع(٤).

وهذا التعريف أجمع التعاريف؛ فإنه جامع مانع؛ فبهذا التعريف يخرج النذر إذا كان من قبيل المعصية؛ كمن نذر أن يضرب فلانًا بغير حق، أو أن يغصب مال فلان؛ فهذا نذر معصية لا يجوز الوفاء به، بل يجب تركه وعدم الوفاء به.

ويخرج ما ليس بقربة أصلا؛ كالمباحات؛ كأن ينذر على نفسه الوقوف في الشمس، أو أن يمنع نفسه من شرب الماء البارد، ونحو ذلك مما هو مباح.

ويخرج ما كان محرمًا فعله؛ كمن نذر أن يذبح لغير الله تعالى؛ فإن هذا ليس

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٥٩).
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٧٨).
(٣) ينظر: «سبل السلام» للصنعاني (١١٠/٤).
(٤) ينظر هذه التعاريف في: «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي (صـ ٦٩٤-٦٩٥).

بنذر شرعي، بل هو نذر شركي بدعي يحرم الوفاء به، ويجب التوبة منه.

ويخرج الواجبات الشرعية فلا يقال عنها: إنها نذور؛ كالصلوات الخمس، وصوم رمضان، ونحو ذلك.

ويخرج بهذا التعريف النوافل؛ فإن العبد يقوم بها وليست بواجبة عليه لا شرعًا، ولا بإيجابه هو على نفسه؛ فإنه مخير بين تركها وفعلها، وإن كان الفعل أفضل وأحسن.

الفقرة الثانية: أقسام النذر الشرعي:

ينقسم النذر الشرعي إلى:

نذر مطلق: وهو ما لم يعلق على سبب؛ كأن يقول العبد: لله علي صوم يوم، وهذا يجب بمجرد التلفظ به، وليس هو على الفور.

ونذر مقيد بشرط: كأن يقول العبد: إن شفى الله مريضي فلله علي أن أتصدق بكذا، ونحو ذلك، فهذا النوع يجب الوفاء به إذا وقع الشرط، ولا يجب إذا لم يقع الشرط.

الفقرة الثالثة: حكم ابتداء النذر:

اختلف العلماء في حكم النذر[١]؛ أي حكم الابتداء بالنذر؛ فقد كرهه جماعة من أهل العلم المحققين، بناء على ما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل**»[٢].

وفي لفظ: «ثم إنه نهى عن النذر ، وقال : إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنه قال: «**ثم إنه نهى عن النذر، وقال: إنه لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يُستخرج به من البخيل**»[٣].

وقال بعض العلماء: إن النذر المكروه هو النذر المعلق، أما النذر المطلق فليس بمكروه، وقال آخرون: إن نذر الطاعة مطلقًا ليس بمكروه، وإنما هذه

---

(١) ينظر: «سبل السلام» للصنعاني (١١٠/٤).
(٢) رواه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩).
(٣) رواه البخاري (٦٦٠٩)، ومسلم (١٦٤٠) واللفظ له.

الأحاديث محمولة على من استثقل الوفاء - والله تعالى أعلم-(١).

الفقرة الرابعة: الوفاء بالنذر:

مدح الله الموفين بالنذر ؛ فقال تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ [الإنسان:٧]، وأمر النبي صَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوفاء بالنذر إذا كان في طاعة الله؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»(٢).

وكل أمر مدحه الشارع، وأثنى على من قام به، أو أمر به؛ فهو عبادة؛ فمن نذر لغير الله متقربا له بذلك فقد أشرك؛ لصرفه عبادة النذر لغير الله.

ويجب الوفاء بنذر الطاعة، كمن نذر أن يصلي لله تعالى ركعتين، أو نذر صوما، أو نذر حجة أو عمرة، ونحو ذلك.

أما الوفاء بنذر المباح كمن نذر ألا يستظل تحت ظل، أو نذر أن يقف يوما، فإنه لا يصح الوفاء به جمع من أهل العلم؛ لأن من شرط صحة النذر أن يكون قربة.

ويجب عدم الوفاء بنذر المعصية سواء كانت المعصية شركًا كالنذر لغير الله تعالى، أو كانت المعصية كبيرة، كمن نذر أن يسرق.

الفقرة الخامسة: النذور للأولياء والصالحين من أعمال الجاهلية:

إن ما ينذره جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين وأموات المسلمين - كأن يقول: يا سيدي فلان إن رزقني الله كذا أجعل لك كذا؛ فهو نذر لغير الله، وعبادة صرفت لغيره تعالى؛ فهذا من الشرك الأكبر المحرم في الإسلام بإجماع علماء المسلمين، ولم يعهد النذر لغير الله تعالى في عهد السلف؛ فإنهم كانوا أبعد الناس عن الشرك وعن ذرائعه، ويكفي الناذر لغير الله خذلانا أنه ذل نفسه لعبد، ولم يرتق إلى درجة العبودية لله الواحد القهار سبحانه وتعالى.

ما يعتقده مَن ينذر لغير الله تعالى:

اعلم أخي المسلم أن القبوري لا ينذر لأهل القبور إلا مقرونًا بثلاث عقائد - وكل واحدة منها شرك وكفر في نفسها؛ فكيف إذا اجتمعن؟ فإنها ظلمات بعضها فوق بعض- وهي:

الأولى: أن الناذر يعتقد أن المنذور له يعلم حال هذا الناذر، ولهذا ينذر له؛

---

(١) ينظر: «سبل السلام» للصنعاني (٤/ ١١٠).

(٢) تقدم تخريجه في أول الباب، وهو عند البخاري.

فإنه يرجو منه سماع الحال، والاطلاع لرفع المآل، ولو علم وتيقن أنه لا يعلم حاله، وأنه مشغول إما بنعيم أو بجحيم لما تقرب إليه، وهذا الاعتقاد كفر؛ لأنه اعتقاد أن الأموات الذين هم تحت الثرى يعلمون الغيب، ومعلوم أن هؤلاء الأموات لو كانوا أحياء في الدنيا لما كان لهم أن يتصفوا بعلم الغيب؛ فكيف بعد موتهم؟

الثانية: أن الناذر يعتقد أن الميت المنذور له يتصرف في الأمور لمصالح هذا الناذر، فتجده ينذر له رجاء النفع، أو رجاء دفع الضر، ولو علم أنه لا يملك له حولًا ولا قوة لما نذر له، واعتقاد أن الأموات ينفعون ويضرون: من العقائد الشركية القبورية عند الأمم، ولا شك أن اعتقاد ذلك شرك بواح، وكفر صراح.

الثالثة: أن الناذر يعتقد أن الميت المنذور له يسمع دعاء هذا الناذر ونداءه، وسؤاله وطلبه من هذا الميت المنذور له، مع أن المنذور له قد يكون في المشرق والناذر في المغرب؛ فكيف يقع السماع؟ لو كان حيًّا لما أمكنه السماع فكيف بعد الموت، وهو مشغول إما بنعيم، أو بعذاب؟! ولا شك أن اعتقاد أن المنذور له يسمع من مثل هذه المسافات شرك آخر؛ إذ فيه تشبيه لهذا الميت بالسميع العليم الذي لا يعزب عنه شيء.

وقد اختلف العلماء في سماع الأموات لو كان المنادي لهم قريبًا بجوار القبر أو عنده، هل يسمعه أم لا؟ فقول المحققين منهم أن الميت لا يسمع إلا ما أسمعه الله تعالى -كيف شاء- كما أسمع أهل قليب بدر كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، وكما أسمع الميت قرع نعال المشيعين له إذا ولوا عنه(٢)، وكما أسمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلوات أمته عليه بواسطة ملك موكول بذلك، كما جاء في الخبر(٣)، وأما ما سوى ذلك فغيب لا يتكلم فيه إلا بالنص.

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم على أهل القليب، فقال: «**وجدتم ما وعد ربكم حقا؟**» فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**».

(٢) رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه: «**إن العبد، إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم**».

(٣) روى النسائي (١٢٨٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام**»، وصححه كثير من أهل العلم، وروى البزار (١٤٢٥)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٢٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٦٢/٢)، وابن المقرئ في «معجمه» (٧١٨)، وعزاه ابن القيم في «جلاء الأفهام» (صـ ١٠٧) للطبراني، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن الله وكل بقبري ملكًا أعطاه أسماع الخلائق، فلا يصلي علي أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه، هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك**». وحسنه الألباني بشاهده في «السلسلة الصحيحة» (١٥٣٠).

وفيما يلي بعض نصوص العلماء بتحقيق أن نذر القبورية لأهل القبور من أعظم أنواع الشرك، وطريق واسع إلى الوثنية قال العلامة قاسم بن قطلوبغا الحنفي (٨٧٩هـ) ، وابن نجيم الحنفي (٩٧٠هـ)، وخير الدين الرملي (٩٩٣هـ)، وسراج الدين عمرو بن نجيم الحنفي (١٠٠٥هـ)، وعلاء الدين الحصكفي (١٠٨٨هـ)، وابن عابدين الشامي (١٢٥٢هـ)، والعلامة محمود شكري الآلوسي (١٣٤٢هـ)، والعلامة الخجندي (١٣٧٩هـ)، والشيخ علي محفوظ المصري (١٣٦١هـ): وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون لإنسان غائب أو مريض أو حاجة ضرورية فيأتي بعض قبور الصلحاء فيجعل سترة على رأسه، فيقول: يا سيدي فلان إن رد غائبي، أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي؛ فلك من الذهب كذا، ومن الفضة كذا، ومن الماء كذا، ومن الطعام كذا، ومن الشمع كذا، ومن الزيت كذا؛ فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر للمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون للمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك.

ومنها: أنه إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى فاعتقاده ذلك كفر، وقد ابتلي الناس بذلك، ولا سيما في هذا الأعصار ، ولا سيما في مولد البدوي»[(١)].

وقال العلامة الشاه ولي الله الدهلوي مبينا أنواع الشرك: «ومنها: النذر لغير الله، ينذرون لهم، يتوقعون إنجاح مقاصدهم بتلك النذور...؛ فأوجب الله تعالى عليهم أن يقولوا في صلاتهم: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا** ﴾ [الجن:١٨]» [(٢)].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

ذكر الشيخ تقي الدين رحمه الله أنه: توجد قرية اسمها (أولاد يوسف) عندهم

---

(١) ينظر: «البحر الرائق» (٢٩٨/٢)، و«الفتاوى الخيرية» (٢١٨/١٧)، و«الدر المختار مع رد المحتار» (٤٦٧/٢)، و«فتح المنان» (صـ ٤١٧)، و«حكم الأحد الصمد» (١٠-١٣)، و«الإبداع في مضار الابتداع» (صـ ١٨٩).

(٢) ينظر: «حجة الله البالغة» (١٨٥/١).

خطارة، والخطارة - عندهم-: جدول من الماء ينشأ من مياه آبار متعددة؛ أولها في مكان عال، وثانيها أسفل منه، والثالث أسفل من الثاني، وهكذا إلى آخر الآبار، ثم يوصل بعضها ببعض، ويحفر لها مجرًى يجري منه الماء إلى المزارع والبساتين، ولما حفر أجدادهم هذه الخطارة نذروا لصاحب قبة يسمونه (سيدي أحمد الحبيب) أن يعطوه في كل سنة مقدارًا من المال؛ ليحفظ لهم هذه الخطارة فلا ينضب ماؤها، وبعد وفاته أخذوا يعطون ذريته ذلك المال المنذور، وفي هذا الزمان سافر بعض أهل هذه القرية إلى البلدان التي ألقي فيها دروس التوحيد وعلموا من سماع تلك الدروس أن الماء بيد الله هو الذي يعطيه أو يمنعه، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يعطي قطرة أو يمنعها، فقالوا لقومهم: توبوا إلى الله! فإن هذا شرك في الربوبية والعبادة جميعًا.

فدعوني لألقي عليهم درسا في التوحيد لعل الله يهدي إخوانهم ويجمع كلمتهم على توحيده ويستريحون من ذلك الخراج، فسافرت إلى قريتهم؛ وهي تبعد عن مكناس ٤٥٦ ميلًا، وأعطيتهم درسًا من المغرب إلى العشاء، وأرجو الله أن ينفعهم به.

وقد علمت بعد ذلك أنه تركوا الخراج وتابوا إلى الله -تعالى-، وبقيت خطارتهم على حالها.

وتوجد قرية أخرى في ناحية السيفة لهم خطارة، وقع لهم مثل ما وقع لقرية أولاد يوسف، وكان رجل منهم يأتي إلى مدينة أرفود ويحضر دروسي في التوحيد؛ فوحد الله -تعالى-، ودعا قومه إلى ترك دفع الخراج لذرية صاحب القبة الذي يعبدونه، فأبوا وقالوا له: أنت تريد أن تعرِّض نفسك للهلاك، أما نحن فلا تريد ذلك، فقال لهم: أما أنا فلا أدفع فلسًا واحدًا ولا حبة حنطة، ولي نوبة ماء هذه الخطارة -والنوبة عندهم يوم وليلة في كل خمسة عشر يومًا-، فإذا جاءت نوبتي؛ قولوا لمعبودكم يوقف ماء الخطارة عن الجري، أو يجعل ماءها غورًا[(١)].

---

(١) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٢/٦١).

١٣- باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾(١).

٢- وعن خولة بنت حكيم - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك**» رواه مسلم(٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث; لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

(لا يوجد تعليق للشيخ السعدي على هذا الباب في «القول السديد»)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

قال السعدي: «أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع، فزاد الإنس الجن رهقا أي: طغيانا وتكبرا لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو، أي: زاد الجن الإنس ذعرا وتخويفا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي

---

(١) الجن: [٦].
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨) بلفظ: حتى يرتحل.

من سفهاء قومه» ...»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو الاستعاذة، وأنها من العبادة، وصرفها لغير الله تعالى شرك؛ فالاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من أنواع الشرك: الاستعاذة بغير الله تعالى، وأن الاستعاذة بغير الله تنقض التوحيد، وتهدمه، وأن الاستعاذة لا تكون إلا بالله تعالى، القادر على كل شيء، المحيط بكل شيء.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المصنف بهذا الباب أن يذكر نوعًا آخر من العبادة التي لا تنبغي إلا الله تعالى، فانتقل إلى الكلام عن الاستعاذة بالله وحده من الشرور كلها، فهي من أنواع العبادة، ولا يجوز صرف شيء منها لغير الله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر في الأبواب السابقة بعض ما ينقض التوحيد الذي بين فضائله من قبل، وبين حقيقته من قبل، أردف تلكم الأبواب ببعض ما ينقض هذا التوحيد ويهدمه، ومن جملة ذلك الاستعاذة بغير الله تعالى.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ...**﴾ [الجن:٦]: بين بها المصنف أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده، من الشرور كلها، وفي الآية إخبار الله تعالى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين محمد صَلَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وآمنوا به، ذكروا من أعمالهم الجاهلية بعض الشركيات، **ومنها:** الاستعاذة بغير الله.

وأما حديث خولة مرفوعًا «**من نزل منزلًا**»: أورده المنصف لبيان ما ينبغي أن يستعاذ به، وما أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستعاذ به، وأنها لا تكون إلا بالله تعالى، وبأسمائه وصفاته [٢].

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨٩٠).

(٢) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٦٢).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الاستعاذة، وحكم الاستعاذة بغير الله(١):

الاستعاذة: هي مأخوذة من العوذ، والعوذ: اللجأ من متخوف لكاف يكفيه، وقيل: العوذ: الالتجاء إلى الغير، والتعلق به.

وفي الشرع: الالتجاء والاعتصام بالله تعالى(٢).

وحكم الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله: شرك أكبر ينافي التوحيد، وذلك كأن يطلب من إنسان ميت أن يعيذه من مرض، أو فقر، أو عدو.

أما لو استعاذ بإنسان فيما يدخل تحت قدرته ووسعه، مما هو في طاقته وقوته؛ فهذا ليس استعاذة شركية، بل هي من اتخاذ الأسباب؛ فهي استعاذة عادية؛ كأن يقول لإنسان حي قادر حاضر: أنا أستعيذ بك من فلان؛ فيحفظه ويمنعه(٣).

---

(١) بمناسبة ذكر الاستعاذة، نذكر معاني عدة كلمات يكثر ورودها في كتب التوحيد:
معنى النداء: هو إحضار الغائب، وتنبيه الحاضر، وتوجيه المعرض، وتفريغ المشغول، وتهييج الفارغ.
وفي الاصطلاح: تصويتك بمن تريد إقباله عليك لتخاطبه، وتطلب منه، وقيل: النداء: رفع الصوت وظهوره، وقيل: الصوت المجرد، وقيل: الاستحضار . ينظر: «الكليات» للكفوي (صـ ٩٠٦-٩٠٧)، و«فتح المنان» لمحمود شكري الألوسي (صـ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).
والنداء أعم من الاستنصار والاستمداد والاستعانة والاستغاثة؛ لأن النداء قد يكون لمجرد الإقبال والمحبة، وأما الاستنصار والاستمداد والاستعانة، والاستغاثة، هو طلب النصر والمدد والعون والغوث مع النداء أخص من النداء المطلق. والاستنصار : طلب النصر على الأعداء، والاستمداد طلب المدد للنصرة، والاستعانة: طلب العون مطلقا، والاستغاثة: طلب الغوث، وهو العصمة والنجاة من مخوف؛ فعلم بهذا أن النداء أعم هذه الأنواع، وهذه الأنواع هي نداءات خاصة، لأسباب خاصة، وفي أشياء خاصة. وهذه الأمور إذا كان طلبها من غير الله فوق الأسباب؛ فلا شك أنها شرك وكفر؛ لأنها تدخل تحت العبادة، وعبادة غير الله شرك وكفر.

(٢) ينظر: «القاموس المحيط» (صـ ٤٢٨).

(٣) اختلف العلماء في حكم الاستعاذة من المخلوق فيما يقدر عليه على قولين: **أحدهما:** عدم جواز ذلك مطلقا؛ لأن الاستعاذة عمل قلبي، فلا يكون إلا الله تعالى، أي أن لاستعاذة توجه القلب، واعتصامه، والتجاؤه، ورغبه، وهذه المعاني جميعا لا تصلح إلا لله ـ جل وعلا، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقل عن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بالمخلوق، ونقل الشيخ سليمان بن عبد الله الإجماع على ذلك. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٢٧/١٥)، وتيسير العزيز الحميد (ص٢١٢).
الثاني: جواز الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأنه قد جاءت أدلة بأنه يستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن حقيقة الاستعاذة: طلب انكفاف الشر، وطلب العياذ، وهو: أن يستعيذ من شر أحدق به، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذ فليعذ". أخرجه البخاري برقم (٧٠٨١)، ومسلم برقم (٢٨٨٦)،
والذي يظهر -كما قرره الشيخ صالح آل الشيخ- أن المقام كما سبق فيه تفصيل، وهو: أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر، وفيها عمل باطن، فالعمل الظاهر: أن يطلب العوذ، وأن يطلب العياذ، وهو أن يُعصم من هذا الشر، أو أن ينجو من هذا الشر، وفيها أيضا عمل باطن وهو: توجه القلب وسكينته، واضطراره، وحاجته إلى هذا المستعاذ به، واعتصامه بهذا المستعاذ به، وتفويض أمر نجاته إليه.
=

الفقرة الثانية: معنى الاستعاذة بغير الله وآثارها:

الاستعاذة بغير الله هي الالتجاء والاعتصام بغير الله من كل مخوف لا يقدر على دفعه إلا الله؛ كأن يستعيذ بميت أو حجر أو شجر من أن يحفظه من مرض كذا، ونحو ذلك.

آثار الاستعاذة بغير الله تعالى:

١ - عدم حصول المأمول في دفع الشرور التي لا يقدر العبد على دفعها.

٢- زيادة الخوف والرهق، وعدم الطمأنينة والأمن، نتيجة التجائه إلى غير الله، وهذه من آثار الاستعاذة الشركية كما تدل على ذلك الآية التي أوردها المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

٣- الوقوع في الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله تعالى لمن مات عليه.

الفقرة الثالثة: الاستعاذة المشروعة:

هي الالتجاء والاعتصام بالله والاستعاذة بجنابه تعالى من كل مخوف لا يقدر

فإذا كانت الاستعاذة تجمع هذين النوعين فيصح أن يقال: إن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله، لأن منها ما هو عمل قلبي كما تقدم وهو بالإجماع لا يصلح التوجه به إلا لله. وإذا قصد بالاستعاذة العمل الظاهر فقط وهوطلب العياذ والملجأ، فيجوز أن يتوجه بها إلى المخلوق، وعلى هذا يحمل الدليل الوارد في جوازها.

فحقيقة الاستعاذة إذًا تجمع بين الطلب الظاهر، والمعنى الباطن؛ ولهذا اختلف أهل العلم في جواز طلبها من المخلوق، فالذي ينبغي أن يكون منك دائما على ذكر: أن توجُّه أهل العبادات الشركية لمن يشركون به من الأولياء، أو الجن، أو الصالحين، أو غيرهم، أنهم جمعوا بين القول باللسان، وأعمال القلوب التي لا تصلح إلا لله - جل وعلا -، وبهذا يبطل ما يقوله أولئك الخرافيون من: أن الاستعاذة بهم إنما هي فيما يقدرون عليه، وأن الله أقدرهم على ذلك؛ فيكون إبطال مقالهم راجعا إلى جهتين:

الجهة الأولى: أن يُبطل قولهم بأن يقال: إن هذا المَيْت، أو هذا الجني يقدر على هذا الأمر الذي طلب منه، فإذا لم يقتطع بذلك، أو حصل عنده اشتباه ما، انتقل الجني إلى الجهة الثانية من الإبطال: وهو إثبات أن الاستعاذة فيها توجه بالقلب إلى المستعاذ به واضطرار إليه، واعتصام به، وافتقار إليه؛ وهذا الذي توجه إلى ذلك الميت أو الولي قد قامت هذه المعاني بقلبه، ولا يجوز أن يكون شيء من ذلك إلا لله وحده - عز وجل -.

فنقول إذًا: الاستعاذة بغير الله شرك أكبر؛ لأنها صرف عبادة لغير الله - جل جلاله -. لكن إن كان الاستعاذة في الظاهر فقط مع طمأنينة القلب بالله وتوجهه إلى الله، وحسن ظنه بالله، وأن هذا العبد إنما هو سبب، وأن القلب مطمئن لما عند الله فإن هذه تكون استعاذة بالظاهر، وأما القلب: فإنه لم تقم به حقيقة الاستعاذة. وإذا كان كذلك: كان هذا جائزا. انظر: التمهيد لصالح آل الشيخ (ص١٦٩-١٧٠).

وهذا التفصيل هو مقتضى تقرير الإمام ابن عثيمين رحمه الله؛ حيث حمل نهي الأئمة على أن مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله، وأما ما يقدر عليه المخلوق فهو جائز؛ لأنه مقتضى النصوص الشرعية، ومقتضى النظر، كمن يعترضه قطاع طرق، فيعوذ بمن يستطيع تخليصه منهم، إلا أنه نبه أن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك، فمن علق رجاءه وخوفه من المخلوق، وجعله ملجأ فهذا شرك؛ لأن هذا مما لا يكون إلا الله تعالى. انظر: القول المفيد لابن عثيمين (١/٢٥٥).

وينظر: موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب الفكرية -المشرف العام: صاحب السمو الأمير: د سعود بن سلمان آل سعود- (١/١٧٢-١٧٣).

المرء على دفعه لخفائه، أو لعدم القدرة عليه، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ [الناس:١]، أي: أعتصم وألتجئ وأتحصن برب الناس ومالكهم.

الفقرة الرابعة: الاستعاذة بصفة من صفات الله تعالى، مشروع وجائز، كالاستعاذة بكلامه تعالى، وبرضاه، وبوجهه سبحانه وتعالى، وغيرها كما جاء ذلك في النصوص، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق"(١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ برضاك من سخطك"(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بوجهك"(٣).

وحقيقة هذه الاستعاذة هي الاستعاذة بالله تعالى؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة) (٤).

الفقرة الخامسة: الاستعاذة بكلمات الله تعالى: مما هو متقرر في النصوص الشرعية أن كلمات الله تعالى نوعان: الأول: كلمات شرعية دينية، وهي وحيه تعالى، كالقرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها. والثاني: كلمات كونية قدرية، وهي التي كوّن الله تعالى بها الكائنات، وخلق بها المخلوقات(٥).

وقد رجَّح ابن تيمية أن المراد بالكلمات في حديث الباب: الكلمات الكونية القدرية، لأنها هي التي لا يخرج عنها بَرٌّ ولا فاجر(٦).

ويدل على ذلك: حديث أبي التياح عن عبد الرحمن بن خنبش ﵁، وفيه أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد قل، قال: ما أقول؟. قال: قل: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر، ولا فاجر من شر ما خلق، وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير، يا رحمن» (٧).

فالكلمات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ليست هي أمره ونهيه الشرعيين؛

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه مسلم (٤٨٦) .
(٣) رواه البخاري (٤٦٢٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١/١١١).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى(٢/٤٠٨)(١١/٣٢٢،٢٧١)(١٨/١٣٣) ودرء التعارض(٧/٢٦٦-٢٦٧).
(٦) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/١٣٣).
(٧) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم(١٠٧٢٦)(٩/٣٤٩), وأحمد في مسنده برقم(١٥٤٦١)(٢٤/٢٠٢), وابن السني في عمل اليوم والليلة برقم(٦٣٧)(ص٥٩٢), وصحح إسناده الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم(٨٤٠)(٢/٤٩٥-٤٩٦).

فإن الفجار عصوا أمره ونهيه بل هي التي بها يُكوِّن الكائنات(١).

وهذا القول هو الذي رجحه الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله كما في كتابه: (التمهيد لشرح كتاب التوحيد) (٢).

الفقرة السادسة: أثر الاستعاذة بالله تعالى:

١ - وقاية العبد من الشرور - التي لا يقدر على دفعها- لاستجارته وتحصنه برب الناس وخالقهم.

٢ - الإجارة من شياطين الجن والإنس.

٣- حفظ الله للعبد الذي استعاذ به والتجأ إليه؛ فيصير في حرز وحصن من الشيطان.

٤- حصول الطمأنينة والأمن بعد الخوف لمن التجأ إلى الله واعتصم به.

الفقرة السابعة: مواضع الاستعاذة:

الأصل أن الاستعاذة تُطلب من الله تعالى وقت الحاجة، وهذه استعاذة مطلقة، وهناك استعاذات مقيدة بأوقات وأمكنة خاصة وردت في الشرع، فعلى العبد معرفتها، والتعبد بها لله تعالى، ومن هذه الأوقات والأمكنة:

١ - الاستعاذة عند نزول منزل.

٢ - الاستعاذة عند قراءة القرآن.

٣- الاستعاذة عند دخول الخلاء - دورات المياه من الخبث والخبائث.

٤- الاستعاذة بعد الصلاة الإبراهيمية من: «جهنم، عذاب القبر، فتنة المسيح الدجال، فتنة المحيا والممات».

٥ - استعاذة المريض من شر ما يجد وما يحاذر.

٦ - الاستعاذة عند نهيق الحمار.

٧- الاستعاذة عند السفر من وعثائه وكآبته، ومن سوء المنقلب.

٨- الاستعاذة من شر النفس وشر الشيطان إذا أصبح وإذا أمسى.

الفقرة الثامنة: الأشياء التي استعاذ النبي ﷺ منها:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى(٨/٦١).
(٢) التمهيد (ص١٧٣).

١ - استعاذ ﷺ من غضب الله وسخطه، وعذابه، وعقابه.

٢ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إبليس وشره.

٣ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر الحاسد.

٤- استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوسواس الخناس.

٥ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر النفاثات (الساحرات) في العقد.

٦ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر ما عملتُ، ومن شر ما لم أعمل.

٧ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر النفس.

٨- استعاذُ صَلَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المأثم والمغرم (الدَّين).

٩ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكفر، والفقر.

١٠ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل مخوف.

١١ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجبن والبخل، والكسل، والهرم، والهم، والحَزَن.

١٢ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سيئ الأسقام.

١٣ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دعوة لا يستجاب لها.

١٤ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فتنة الدنيا.

١٥ - استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذلة والفقر(١).

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

ولم يزل الجهّال في كل زمان ومكان يخافون الجن ويتملَّقون لهم دفعًا لشرهم، وفي هذا الزمان يعتقد الجهال من المنتمين إلى الإسلام في الشرق والغرب أن الشخص إذا بنى بيتًا جديدًا يجب عليه أن يذبح ذبيحة للجنّ الذين يسكنون في ذلك المكان؛ ليكفُّوا عن أذاه، ويأخذ شيئا من تلك الذبيحة ويطبخه في ماء بلا ملح، ويرش ذلك الماء في جوانب البيت.

ولما بنيتُ بيتًا في بغداد وانتهى رئيس البنّائين مِن بنائه، قال لي: «ينبغي أن

(١) ينظر كتاب: «الاستعاذة من سنن النسائي الكبرى» (٤ / ٤٣٧)، وما بعدها، وكتاب: «الاستعاذة من سنن النسائي (المجتبى) (٨/ ٢٥٠).

تُسيل عليه الدّم قبل أنْ تسكنه». قلت: ولماذا؟

قال لي: «ليكفَّ سكان هذه الأرض عن أذاك».

فقلتُ: وهل يسكن هذا البيت غيري مع أهل بيتي؟

فقال لي: «نحن نعتقد أنَّ الجنَّ يسكنون تحت الأرض».

فقلت: لا تظن أني أبخل عليك وعلى البنائين والعَمَلَة بذبيحة وطعام، ولكني أريد أن أثبت لك أنه لا سلطان للجنّ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنَّما سلطانهم على الذين يتولونهم بالذبح والخوف والتعوّذ بهم من دون الله، ولذلك سأسكن هذا البيت، وأتحدى الجنَّ أن يجهدوا جهدهم في إلحاق الضرر بي وبأهل بيتي إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وبعد أن أسكن شهرًا كاملا ويظهر له ولأمثاله أنَّ الجنَّ لا يستطيعون أن يؤذوا مَن يوحد الله؛ حينئذٍ أذبح ذبيحة وأدعوه مع أصحابه للغداء.

وكذلك فعلتُ، فلمّا مضى الشهر الأول، وتبين له فساد اعتقاده؛ دعوتُه للغداء.

وكذلك وقع لي في مكناس حين أردت أن أشتري هذا البيت الذي أسكن فيه الآن، قالت لي المرأة التي كانت هناك: «إن سكان هذا البيت طيبون لا يضرون أحدًا».

فقلت لها: وهل يسكن فيه غيركم؟.

فقالت: «أقصد الذين تحت الأرض».

فضربت الأرض بقدمي، فقلت لها: إن سمحتم لهم بالسكني معكم؛ فأنا لا أسمح لهم أن يدخلوا بيتي لا فوق الأرض ولا تحت الأرض، فهل يدفعون معي شيئًا من الثّمن أو يستأجرون جزءا من البيت؟! فضحكت المرأة وتعجبت من كلامي!

وكان في بلد مغربي - لا أُسميه سترًا على مَن سأحكي عنه-، ففيه قاضٍ مِن كبار القضاة، كانت ابنته مريضة، فدعا لها ساحرًا ليُخرج منها الجنَّ ويكتب لها تعوذًا (حجابًا) ليكف عنها أذى الجنِّ، فكان يخلو بها في غرفة واحدة ليلًا ونهارًا، وهذا العمل لا يرضى به إلا ديوث جاهل.

وكان هذا الفقيه السفيه إذا أراد أن يدخل الحمام يستأجره ساعتين ليلا ويستخدم شابًّا أعمى يناوله الماء ويغسل جسمه ولا يرى عورته، ومن شدة خوفه من الجن كان يتملّق لهم عند دخول الحمام، ويقول: يا سادتي! نسألكم الضيافة

لوجه الله ونسألكم أن لا تؤذونا جزاكم الله خيرا، وحاشاكم أن تؤذوا من يستجير بكم.

فكان الأعمى يسمع ذلك ويفهمه، فإذا جلس الشيخ وشَعر بحرارة الحمام واستراح، ينصب له الأسطال سطلًا فوق سطل حتى تصير كالبرج، ثم يأخذ السطل الأسفل فتسقط الأسطال وتحدث دويًّا عظيما فيصرخ الشيخ(١).

وعبادة الإنس للجنّ شائعة في كل زمان، وكثير من الدجاجلة - رجالًا ونساء - يستغلون خَوف الإنس من الجن؛ فَيَنصِبون لهم الحبائل، ويَبتزُّون أموالهم، ويُفسدون عقولهم ودينهم؛ فكلما وَجَدَ الدجال مريضًا - أو مريضة -، أو امرأة عاقرًا، أو لا تلد إلا الإناث أو يموت أولادها؛ يفتح الكتاب؛ فَيجد فيه - بزعمه - أن لذلك الشخص تابعًا من الجن، وهو السبب في كل ما يُصيبه ويقول له: سأعمل لك نَشْرَة، وأخلِّصك من هذا العفريت؛ فهلُمَّ ذبيحة، إن رأى أنه غَنِيٌّ يَفرض عليه كبشًا سمينا، وإن رأى أنه فقير يأمره بإحضار ديك سمين، أحمر أو أسود أو غَير ذلك من الألوان؛ فيذبحه لغير الله شركا، ويأمره أن يطبخ جزءًا حقيرًا منه - كرأسه - بدون ملح، ويَرُش ماء في أركان البيت للجن الساكنين به.

---

(١) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٣٥٤/٢-٣٥٦).

١٤- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله ويدعو غيره

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٢).

٣- وقوله: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾(٣).

٤- وقوله: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ**﴾(٤).

٥- وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**»(٥).

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾(٦).

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

---

(١) يونس: [١٠٦-١٠٧].
(٢) العنكبوت: [١٧].
(٣) الأحقاف: [٥-٦].
(٤) النمل: [٦٢].
(٥) عزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٥٩) للطبراني، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق».اهـ. وهو عند أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٦) بنحوه كما أشار الهيثمي.
(٦) يونس: [١٠٦].

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة(١).

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان بأنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد والتأدب مع الله.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من الشرك: أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن (من صرف شيئا من العبادة لغير الله فهو مشرك) . فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بينها. فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة. فإن العبادة (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة)، والنذر من ذلك. وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها، وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة، أن الدعاء عام في كل الأحوال والاستغاثة

(١) أي: في هذا الباب.

هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضا من العقل، فإن أحدا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلى الله في كل شئونهم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس:١٠٦-١٠٧].

قال السعدي: «هذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى، **﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾** بأن دعوت من دون الله، ما لا ينفعك ولا يضرك **﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!! **﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾** هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها **﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾** لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله؛ ولهذا قال: **﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾** أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه»(١).

٢ـ وقول الله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧].

قال السعدي: «**﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾** فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه، **﴿وَاعْبُدُوهُ﴾** وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير»(٢).

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٧٤-٣٧٥).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٢٨).

٣- وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

قال السعدي: «أي: مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به بمثقال ذرة **﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾** لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، **﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾** يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض **﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾**»(١).

٤- وقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢].

قال السعدي: «أي: هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم، أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو الاستغاثة، وأن من الشرك الاستغاثة بغير الله تعالى، فالاستغاثة عبادة تكون لله وحده لا شريك له، وصرفها لغير الله تعالى شرك أكبر.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من الشرك الاستغاثة بغير الله تعالى، وأن هذا الفعل شرك أكبر، مناقض للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٧٧٨-٧٧٩).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٠٨).

بيان أن من الشرك الأكبر المخالف للتوحيد الاستغاثة بغير الله تعالى، وأن هذه الاستغاثة مخالفة للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف حكم الاستعاذة بغير الله انتقل إلى الكلام عن الاستغاثة بالله، وهي من مظاهر الاستعاذة بالله، والاستغاثة بالله ودعاؤه من أنواع العبادة التي أمر الله بها، وكل ما كان عبادة فصرفه لغيره شرك ينافي التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: استدل بها المصنف لبيان أن النفع والضر بيد الله؛ فإذن لماذا يُطلب من غيره؟ وإذا كان هو النافع والضار فطلبه من غيره شرك(١).

الآية الثانية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍ﴾: استشهد بها المصنف؛ لأنها دالة على أن المتصرف بالعطاء والمنع، والخير والنفع هو الله تعالى؛ فيقتضي ذلك أن يكون الله وحده هو المدعو المعبود.

الآية الثالثة: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: أورده للدلالة على أن الله تعالى أمر بطلب الرزق من عنده وحده دون ما سواه؛ لأنه القادر عليه؛ فمن طلب إنزال المطر ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فقد أشرك[١].

الآية الرابعة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: ذكرها المصنف لأنها تبين ضلال من يدعو غير الله، وأنه في خسران لا يستجاب له أبدا، وأن المدعوين من دون الله غافلون عن دعاء عابديهم؛ فمن استغاث بغير الله، أو دعا غير الله؛ فقد أشرك بالله[٢].

الآية الخامسة: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: فيها الدلالة على أن المشركين يعلمون أن الله تعالى هو مجيب المضطرين، وعلموا أنه هو كاشف السوء وحده، وأورد الله هذه الحجة عليهم ليبين ضلالهم في استغاثتهم بغير الله مع علمهم بأن الله وحده المغيث؛ فدل هذا على أن من علم أن الله وحده هو الذي يكشف الضر ثم صرف نوعًا من العبادة لغير الله فإنه يكون مشركًا.

وأما حديث: «إنه لا يستغاث بي...». أورده المصنف لبيان أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي الحاضر القادر، وفي الحديث دلالة على أن من

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٦٣).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٤).

استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك[(١)].

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: دعاء غير الله وحكم ذلك:

الدعاء من أعظم الأمور الدالة على افتقار العبد إلى ربه، وهو إقرار بالعبودية؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الدعاء هو العبادة**»[(٢)]، وقد توعد الله تعالى من استكبر عن دعائه تعالى، فقال: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠]، قال الحافظ ابن كثير: «هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغضُ عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك غيرك يا رب.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يغضبُ إن تركتَ سؤاله ... وبُنيُّ آدم حين يسأل يغضبُ»[(٣)].

وكل من دعا غير الله من نبي أو ملك أو ولي فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك.

وكل هؤلاء المدعوين ليس عندهم من النفع والضر مثقال ذرة؛ لا لأنفسهم، ولا لغيرهم، بل الكل فقراء إلى الله في كل شئونهم، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [يونس: ١٠٦]، والظلم المراد به هنا: الشرك.

الفقرة الثانية: الرازق النافع الضار هو الله وحده:

الخير كله بيد الله يعطيه من يشاء، ويمنعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو المالك للضر والنفع وحده، وهو الذي عنده الرزق دون سواه؛ لأنه القادر عليه وحده، فمن طلب الرزق، أو طلب كشف الضر، أو طلب جلب النفع من غيره ممن لا يقدر عليه فقد أشرك.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٦).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وصححه، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٣/٧).

فينبغي عليك ـ أيها المسلم ـ أن تعقد قلبك على أن الخالق المالك المدبر وحده الذي يستحق أن تستغيث به فيكشف عنك الضر، وهو وحده القادر على أن يزيل عنك الضرر.

الفقرة الثالثة: الاستغاثة معناها وأنواعها والفرق بينها وبين الدعاء:

الاستغاثة: هي طلب الغوث ـ والغوث مصدر يراد به هنا المفعول- وهو إزالة الشدة من الله تعالى.

أنواع الاستغاثة ثلاثة:

١ ـ واجبة: وهي التي تطلب من الله وحده.

٢ ـ محرمة: وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كالاستغاثة بالأموات والغائبين في جلب نفع أو دفع ضر.

٣- جائزة: وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر على نصرته.

وأما الفرق بين الدعاء والاستغاثة:

فالاستغاثة لا تكون إلا من المكروب في حالة الشدة، والدعاء: عام في كل الأحوال، ويكون من المكروب وغيره، فكل مستغيث داع، وليس كل داعٍ مستغيثا.

الفقرة الرابعة: أقسام الدعاء والتعريف بكل قسم:

ينقسم الدعاء إلى قسمين:

١- دعاء عبادة: وهو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بها، وهذه مقيدة بأوقات وشروط وأمكنة معينة؛ فهي خاصة من هذه الجهة.

٢- دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر، ويكون في دعاء العبادة، كمن يدعو بشفاء مريضه في الصلاة، أو يكون خارجًا عن دعاء العبادة؛ فهي عامة غير مخصصة بوقت أو زمان أو شرط، بل تفعل متى أراد العبد.

الفقرة الخامسة: الاستغاثة بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناها وحكمها:

الاستغاثة بالنبي ﷺ: هو الطلب منه أمرا لا يقدر عليه إلا الله؛ بجلب نفع أو دفع ضر، كأن يقول بعد مماته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا في حماك، وأنا دخيلك، فمن فعل ذلك فقد صرف عبادة الاستغاثة لغير الله، وهو شرك ينافي التوحيد.

الفقرة السادسة: دعاء الأولياء الصالحين من أعمال الجاهلية:

إن دعاء الصالحين الأموات، أو الأحياء الغائبين، والاستغاثة بهم كأن يقول: يا سيدي فلان ومولاي فلان خذ بيدي وكن لي كذا، وادع الله لي بكذا، وأنا بك وبالله وغير ذلك: من كلمات الشرك والباطل؛ ومن أعمال الجاهلية ومن الضلال، والإسلام بريء منه، ولم يأذن فيه، بل حرمه ومنعه، وهو شرك يخرج فاعله من الإسلام، ويوجب له الخلود في النار، ويحبط عمله.

الفقرة السابعة: آثار دعاء غير الله:

١ - عدم إجابة دعوته وتحقيق ما طلبه وعدم كشفه السوء.

٢- إهانة الإنسان؛ وذلك لدعائه مخلوقا مثله لا ينفع ولا يضر يتخذه معبودًا مطاعا، وهو مخلوق مثله ليس له من الأمر شيء.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

عُبَّاد الأوثان في هذا الزمان كلما رأوا قبة عظموها، وتعلقت قلوبهم بصاحبها المنسوبة إليه؛ فيشدون إليه الرّحال، ويتقربون لها، فإذا قيل لهم: لماذا ذهبتم إلى صاحب القبَّة ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر: ٣٦]؟ يقولون: «نحن نعلم أنَّ الذي يُعطي هو الله، وصاحب القبة لا يملك شيئًا؛ ولكننا قصدناه لنقرأ عليه شيئًا من القرآن وندعو له بالرحمة».

فقلنا لهم: أمَّا الدعاء؛ فإنَّ الله يسمعه وأنتم في بيوتكم، ولماذا خصصتموه بالدعاء من دون سائر الأموات؛ ومنهم والدوكم؟ فذهابكم إلى قبره وتخصيصكم له بالدعاء يدل على أنكم قصدتموه وخضعتم له لتتملقوا وتقدموا له رشوة ليتوسط لكم في قضاء حاجاتكم عند الله أو ليقضيها بنفسه؛ وهذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره الله.

وأما قراءة القرآن؛ فلو كانت تنفع غير قارئه لكان والدوكم أولى بها، على أنها لا تنفع إلا قارئها إذا قرأها لوجه الله وعمل بها، وتقبّلها الله منه، وبرهان ذلك أن قراءة النبي متقبلة قطعا وكل حرف منها يساوي قراءة العالم بأسره، ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وكان يعتني كثيرا بزيارة القبور والدعاء

لأصحاب القبور، ويُعلّم أصحابه الدعاء الذي يدعون به إذا زاروا القبور(١) كما يعلمهم السورة من القرآن ولم يقرأ شيئا من القرآن على ميت ولا أمر أصحابه بذلك، أأنتم أعلم أم رسول الله ﷺ ؟(٢).

وبروي أيضًا الشيخ تقي الدين الهلالي قصّتين إحداهما حصلت معه، والأخرى حدَّثه بها شريف من أهل مكة:

قال في الأولى: «ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين؛ لقيت رجلًا من بلادنا فيلاليًّا من الغَرفة، فدعاني للعشاء، وكان بوابا للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك؛ فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتهم واحدة على مذهب أهل السنة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى (الوهابية)! وهم في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كما نقول نحن، بل يقولون بدل (محمد رسول الله) : (لا إله إلا الله مالك يوم الدين) فأظهرت له التعجب ولم يدر أنني من هذه الفرقة!».

وقال في الثانية: «وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبدالعزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججتُ الحَجّة الثانية سنة ١٣٤٥هـ؛ أنزلني الملك عبدالعزيز - رحمة الله عليه - في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرَّجل الفلالي؛ فوجدته ودعوتُه إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي فعرف - حينئذٍ - أنه لما كان ينصحني كان مُخطئًا مُغفّلًا، فسكت وكتم ما في نفسه، فلما تغدينا؛ ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبدالظاهر أبا السمح جالسًا على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلَّمت عليه وجلستُ معه، فلما جلس رفيقي قال : «يا رسول الله!». فقال الشيخ عبدالظاهر: «قُل: يا الله!». فقال: ما أقول إلا يا رسول الله يا رسول الله يا رسول الله! اقطع رأسي إن قَدِرْت، أنا قلتُ: «يا رسول الله!» أمام الأمير محمد أخي الملك عبدالعزيز. ثم التفت إليَّ وقال: هذا الشر - كله - ما أصابني إلا بسببك! لا أرافقك أبدا. فتبعتُه وصرت أتلطف معه لعل الله أن يهديه؛ فهرب ولم أره بعد ذلك.

١() رواه مسلم (٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم إذا زارت القبور، فقال لها: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون».

٢() ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٣٥٤/٢ – ٣٥٦).

وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١هـ، قال لي: كنت مسافرًا من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجديا وهابيا، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: «يا رسول الله !». فلطمني لطمة أفقدتني صوابي؛ وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: «يا حمار! ما تقول يا الله؟!». قال: فسكتُّ على مضض، ولما وصلتُ إلى مكة ودخلتُ بيتي؛ تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلمون علي، فقلت لهم: يا أولادي! إن هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة. فأحضروا عصيًّا، وقالوا له: ادخل. فلما دخل؛ ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي هذا جزاء اللطمة التي لطمتني.

وينبغي أن أنبه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حُسن نيته ارتكب خطأ! فهو يعلم أن الملك حسينًا كان يُعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطَّف مع ذلك الرّجل، ويقول له: يا أخي! صل على النبي، واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يُدعى غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال-تعالى- في آخر سورة النحل ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل:١٢٥]، والله يغفر لنا وله»[١].

وروى قصة ثالثة؛ قال: «تجادلت امرأتان منذ مدة قريبة وهما مغربيتان؛ إحداهما موحدة والأخرى مشركة وكانتا جالستين في المسجد النبوي، فقالت الموحدة للمشركة: لا ينبغي لك أن تستغيثي بنبي ولا بصالح؛ بل يجب عليك أن تستغيثي بالله وحده. فلم تقبل المشركة ورأت أن عدم الاستغاثة بالأنبياء والصالحين يحطّ من قدرهم؛ لأن مقامهم عند الله عال. فقالت الموحدة للمشركة: أترضين أن يتزوج عليك زوجك امرأة أخرى؟ فقالت: لا، ثم لا، فقالت لها: أليس ذلك حلالا في دين الإسلام؟! فقالت: بلى، ولكنني لا أرضى بذلك؛ لأن ذلك يدل على أنني لا أملأ عينه ولا أكفي رغبته، فقالت الموحدة: فكيف ترضين لله رب العالمين ما لا ترضينه لنفسك؟! فإن من دعا غير الله لم يكفه الله. فتأملت المرأة المشركة كلام الموحدة؛ ففقهت واعترفت بخطئها، ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**﴾ [النحل: ٦٠]»[٢].

وروى قصة رابعة وخامسة؛ قال: «كان أحد الإخوان الموحدين واقفا أمام

١() ينظر: المصدر السابق (٣٤/٢ - ٣٦)
٢() ينظر: المصدر السابق (١٦٤/٢ - ١٦٥)

دكان، فقال صاحب الدكان يا مولاي إدريس! فقال له الموحد: قل: يا الله! فإن المخلوق لا ينفع ولا يضر. فاستمع صاحب الدكان لقول الحق واعترف به.

وكان هناك سادن يعيش على النذور التي تقدم للأوثان؛ فغضب على الموحد غضبا شديدا، وقال كيف تسب مولاي إدريس؟ فقال: أنا ما سببته، ولكن أنكرت الاستغاثة به. وأخذ يصيح لتجتمع الناس، ظانًّا أنهم إذا اجتمعوا سينصرونه، فاجتمعوا ولكنهم لم ينصروه؛ بل نصروا الموحد على السادن.

ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة هي مركز الشرك والبدع ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتها وحدي فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد إخوان من وحَّد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يومًا بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا وأكرمنا ولا تهنَّا وآثرنا ولا تُؤثر علينا، فلك الحمد ولك الشكر»[(١)].

وقال محمد تقي الدين الهلالي: «المشركون الذين كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة في وقت الرخاء، أما في وقت الشدة فكانوا لا يدعون إلا الله لكشف ما نزل بهم من الضر؛ لأنهم يعلمون - مما بقي عندهم من دين إبراهيم وإسماعيل - أن الشرك بدعة وكفر لا يرضاه الله تعالى، ويعلمون أن معبوديهم - ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين - لا يستطيعون كشف ذلك الضر؛ فيخلصون الدعاء لله، فإذا ذهب الضر عنهم وأمنوا واطمأنوا؛ رجعوا إلى الشرك.

أما المشركون في هذا الزمان؛ فإنهم يشركون بالله غيره من أوثانهم وأوليائهم الذين اتخذوهم آلهة في الرخاء وفي الشدة؛ بل منهم من يخلص الدعاء كله في الشدائد لغير الله تعالى، ولا يذكر الله أصلا، وأنا بنفسي وقع لي مثل هذا لما كنت مشركًا، وأنا قد ناهزت الاحتلام، كنت مع رفيق في السفر، وأحسست - بل تيقنت - أنه يأتمر مع جماعة بقتلي وسلب مالي، انتبذت مكانًا بعيدا، وجلست أستغيث بالأولياء، وكلما استغثت بواحد منهم خططت في الأرض خطًّا، فلما فرغت من الاستغاثة عددت الخطوط، فوجدتها أربعة وثمانين خطًّا، ولم أستغث بالله، ولكن الله علم أني جاهل فرحمني وأغاثني، وظننت أنا في ذلك الوقت أن أولئك الأولياء هم الذين أغاثوني، وهم في الدار الآخرة لا علم لهم بما وقع لي ولا باستغاثتي بهم، ولو علموا؛ ما قدروا أن يعملوا شيئًا كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿**ذَلِكُمُ**

---

١)) ينظر: المصدر السابق (٢١٦/٢)، وانظر منه أيضًا: (٢٨٧/٢-٢٩٠).

اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

ومرة كنت أطالع كتابًا في مدينة وجدة وقد انتصف الليل وانقضت الشمعة التي كنت أطالع على ضوئها، فخرجت مسرعًا لعلِّي أجد دكانا مفتوحًا لأشتري منه شمعة، وبعد لأي وجدت دكانًا مفتوحًا فاشتريت الشمعة ورجعت بها مسرعًا متلهفًا لإكمال مطالعة الكتاب وكنت في طريقي أسمع الطوافين يسألون الصدقات متوسلين بأسماء الأولياء، هذا يقول: من يعطيني صدقة لوجه الشيخ عبدالقادر الجيلاني، والآخر يقول لوجه فلان، والثالث يقول: لوجه فلان، وبعضهم يقول: لوجه الله. فلم أعبأ بهم ولما وصلت البيت وأردت أن أفتحه؛ سمعت طوَّافًا من بعيد يقول من يعطيني صدقة لوجه سيدي أحمد التيجاني، فرجعت وأعطيته صدقة، ففي ذلك الوقت كانت رغبتي ورهبتي للشيخ التيجاني أكثر من رغبتي ورهبتي لله، والمشركون في هذا الزمان إذا حلفت لهم ألف يمين بالله لا يصدقونك، وإذا حلفت لهم بشيخك يصدقون، وفي هذا دليل على أنهم يخافون ويرجون شيوخهم أكثر من خوفهم ورجائهم لله.

ويحكى أن قوما كانوا في سفينة فاختل سير السفينة وبدأت تغرق؛ فأخذ ركاب السفينة يصرخون ويستغيثون بأوليائهم من دون الله، وكان معهم عالم سلفي ساكت؛ فقالوا له: أيها الشيخ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا تستغيث؟ فقال: أسأل الله أن يغرقكم وأنا معكم. فقالوا له أما تخاف الله؟ أتدعو علينا بهذا الدعاء؟ فقال: إنكم تستحقون الإغراق؛ لأنكم أعرضتم عن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وأخذتم تستغيثون بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا»[١].

---

١)) ينظر: المصدر السابق (٣٢٨/١-٣٢٩).

١٥- باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

١- وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر:١٣-١٤].

٢- وفي «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه قال: شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته. **فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»**، فنزلت: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾(١)،(٢).

٣- وفيه عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: **«اللهم العن فلانا وفلانا»** بعدما يقول: **«سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»**، فأنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ (٣)الآية(٤).

٤- وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾(٥)،(٦).

٥- وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾(٧). فقال: **«يا معشر قريش-** أو كلمة نحوها- **اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب: لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد: سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا»**(٨).

---

(١) آل عمران: [١٢٨].
(٢) علقه البخاري في: كتاب المغازي باب قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ (٥/صـ ٩٩)، ووصله مسلم (١٧٩١).
(٣) آل عمران: [١٢٨].
(٤) رواه البخاري (٤٠٦٩).
(٥) آل عمران: [١٢٨].
(٦) رواه البخاري (٤٠٧٠) مرسلًا، ووصله أحمد (٥٦٧٤)، والترمذي (٣٠٠٤)، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٧/ ٣٦٦):
«والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾».اهـ.
(٧) الشعراء: [٢١٤].
(٨) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها شجهم نبيهم وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾(١).

السابعة: قوله: ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**﴾(٢) فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾(٣).

الثانية عشرة: جده صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئا**» حتى قال: «**يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا**»، فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد وغربة الدين.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن

(١) آل عمران: [١٢٨].
(٢) آل عمران: [١٢٨].
(٣) الشعراء: [٢١٤].

السعدي:

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره.

فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأعظمها، فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه هو الذي لا يستحق العبادة سواه. وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين ومن عبد مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء. فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق، وعلى بطلان الشرك. وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحما فكيف بغيره؟ فتبا لمن أشرك بالله وساوى به أحدا من المخلوقين، لقد سلب عقله بعدما سلب دينه. فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة إلا هو. وكذلك صفات المخلوقات كلها، وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شئونها، وأنه ليس لها من الكمال، إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين على بطلان إلهية شيء منها. فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه، وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفا ورجاء وطمعا، والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ تفسير الآيتين المعنونتين بهما الباب، في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١ـ١٩٢].

قال السعدي: «**﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾** على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة

فيه ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ«عبد الحارث»، و«عبد العزيز»، و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرا، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتا موقوتا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويا صحيحا، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدا، ويخلصوا له الدين؟ ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿**يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾، ﴿**وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ**﴾ أي: لعابديها ﴿**نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**﴾، فإذا كانت لا تخلق شيئا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تُتخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله ﴿**إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**﴾، فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تهدِي ولا تُهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورا مجردا، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاهة من عبدها»[(١)].

٢- وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

قال السعدي: «﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**﴾ من الأوثان والأصنام ﴿**مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**﴾ أي: لا يملكون شيئا، لا قليلا ولا كثيرا، حتى ولا القطمير الذي هو

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣١١).

أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟ ومع هذا ﴿**إِنْ تَدْعُوهُمْ**﴾ لا يسمعوكم لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا**﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة مَن عبده؛ ولهذا قال: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ أي: يتبرأون منكم، ويقولون: ﴿**سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ**﴾.

﴿**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ أي: لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رَأْيُ عين، فلا تشك فيه ولا تمتر. فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئا»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان شيء من أنواع الشركيات التي كان عليها أهل الشرك في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث دعاهم إلى منابذة هذه الشركيات، واجتنابها، وقاتلهم لأجلها؛ وفي الآية الدلالة على أن المستحق للألوهية هو من يخلق، وهو الخالق، وأن المخلوق لا يجوز أن يكون مألوها؛ فمن كان مخلوقا محتاجًا فكيف يُتوجه إليه والحال أنه هو محتاج فقير؟!

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان قبح الشرك، وأن من صرف العبادة لغير الله تعالى، فقد صرف العبادة لمن لا يملك ولا يرزق ولا يخلق ولا يدبر؛ فكيف يُعبد من دون الله؟! وبيان أن أقرب الناس منزلة عند الله تعالى لا يملك مع الله تعالى شيئًا، وأن الأمر كله لله تعالى؛ فلذا لا يعبد أحد سواه، ولو كان نبيًّا، أو ملكًا، أو وليا.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن المعبودات من دون الله تعالى لا تملك شيئًا لنفسها فضلًا عن أن تملك لغيرها، وأنها مخلوقة مرزوقة؛ فكيف تُعبد من دون الله؟ وأنهم لا يملكون مع الله

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٨٦).

تعالى شيئًا؛ فدل ذلك على أنها لا تستحق العبادة، وإنما المستحق للعبادة هو الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض، وبيده الأمر كله؛ فمن خلق ورزق ودبر هو الذي يجب أن يُعبد وأن يُوحد في العبادة؛ فكما خَلَقَ ومَلَكَ وحده، فكذلك يجب أن يعبد وحده لا شريك له.

وأن أي أحد لا يستحق العبادة، ولو كان ذا منزلة وجاه عند الله تعالى؛ فإن الأنبياء والصالحين إنما يُتَّبعون ولا يُعْبَدُون، وهم لا يملكون مع الله تعالى شيئًا، بل هم مملوكون لله تعالى، وهم تحت تصرف الله تعالى؛ فأراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من عقد هذا الباب بيان ما عليه أهل الشرك في عبادتهم غير الله لأنهم:

أ- لا يخلقون شيئًا.

ب- أن معبوداتهم مخلوقة لله تعالى.

ج - أن معبوداتهم لا يستطيعون لهم نصرًا.

د- أنهم لا ينصرون أنفسهم، ومن كان هذه صفته فلا يستحق العبادة؛ فهذا فيه بيان بطلان الشرك، وضلاله.

فدل هذا الباب على أن الله تعالى هو المتصرف في الكون، وأنه لا تصرف لأحد في الكون فوق الأسباب؛ فمن اعتقد في غير الله أنه يتصرف في الكون فوق الأسباب فقد أشركه بالله في التصرف والقدرة والربوبية.

ولهذا عد كثير من الفقهاء هذه العقيدة من عقائد الكفر، فقد صرح جمع من العلماء بهذا حيث قالوا: «من ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله فاعتقاده ذلك كفر»[(١)].

وقالوا: «من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر».

وقال العلامة الرازي محمد بن محمد الكردي الحنفي (٨٢٧هـ) : «سئل الزعفراني عمن يزعم أنه رأى إبراهيم بن أدهم يوم التروية بالكوفة، ورآه أيضًا في ذلك اليوم بمكة؟ قال ابن مقاتل: يكفر، وقال محمد بن يوسف: يكفر، وعلى هذا ما يحكيه جهلة خوارزم أن فلانًا كان يصلي سنة الفجر بخوارزم وفرضه بمكة. أقول: مثل هذه العقائد في التصرف في الكون المنتشرة في عامة القبورية كثيرة، وكلها من الكفريات والشركيات، والله المستعان»[(٢)].

---

(١) ينظر: «البحر الرائق» (٢٩٨/٢)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٦٧).
(٢) ينظر: «الجامع الوجيز- الفتاوى البزازية» (٣٢٦/٦)، و«البحر الرائق » (١٢٤/٥).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

أراد المصنف أن يبين أن هذه المعبودات التي يدعى ويستغاث بها من دون الله لا تملك شيئًا، فهي لا تخلق، ولا ترزق، بل ولا ينفعون أنفسهم، فكيف يُدعون من دون الله؟! فناسب أن يبوب هذا الباب الذي فيه بيان عجز المعبودات الباطلة.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾: استشهد بها المصنف؛ لأن فيها الدلالة على حال المدعوين من دونه، وأنهم عاجزون ضعفاء، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابة الدعاء؛ ففيها بيان قبح دعاء غير الله تعالى.

أما الحديث الثاني والثالث والرابع: بيّن المصنف بهذه الأحاديث أن أفضل الخلق، وأقرب الناس منزلة عند الخالق، وأفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، لم يستطع أن يدفع عن نفسه، ولا عن أصحابه، وإذا كان كذلك لم يستحق أن يُعبد من دون الله ويُشرك به معه[١].

الحديث الخامس: وفيه: «**لا أغني عنكم من الله شيئًا**»: دل على أن المرء لا ينتفع بقرابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير التوحيد، وأن الذي ينفع هو التوحيد والإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأن هذا هو طريق النجاة، وهذا هو الذي ينفع القرابات؛ أما فيما يتعلق بماله فهو يستطيع أن ينفعهم به؛ فعلم أن العبادة حق الله تعالى، وأنه لا تنفع قرابة من دون التوحيد؛ فإذا كان هذا حال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنه لا ينفع من دون الله فغيره من باب أولى[٢].

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الأدلة على صحة التوحيد:

إن الأدلة الدالة على صحة التوحيد كثيرة، ومن أجلِّ ذلك طريقة القرآن حيث يذكر الله تعالى فيها أفعاله الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد، وأسماءه وصفاته، وربوبيته للاستدلال بها على ألوهيته تعالى، فالمتفرد بالخلق والتدبير والإنعام والمتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال هو صاحب الحق في أن يفرد بكمال التعظيم والعبادة، ومن جملة ذلك:

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٨٦).
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٨٧).

١ - تفرد الله بالخلق، فهو الخالق لكل مخلوق.

٢ - تفرد الله بالتدبير للخلق، فهو الرازق لكل مرزوق، الضار النافع المعطي المانع المدبر للأمور كلها.

٣- كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات.

٤ - تفرد الله بملكوت كل شيء فإليه يرجع كل شيء وله يخضع كل شيء.

٥ - نصر الله لرسله وأوليائه.

٦ - إجابة من دعاه وكشف الضر.

فتفرده تعالى بهذه الأمور كلها براهين على صحة التوحيد، ومن كانت هذه صفته فيلزم أن يكون هو المدعو وحده والمعبود وحده، أما الخلق فجميعهم فقراء إليه، وعاجزون ولا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

الفقرة الثانية: سبب نزول آية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾:

ذكر المصنف عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد، وكسرت رباعيته، فقال: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**»، فنزلت: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾**، للدلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ وإرشاد الخلق، وأما هداية التوفيق فالأمر فيها لله تعالى، فهو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، على مقتضى حكمته، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء في هداية التوفيق فغيره من باب أولى، وفي هذا أعظم رد على من تعلق بالأنبياء والصالحين في هذا، فإن هذا شرك في العبادة، ونقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد.

الفقرة الثالثة: النبي صلى الله عليه وسلم لا يدفع عن نفسه الضر فغيره من باب أولى:

الرسول صلى الله عليه وسلم بشر يصيبه ما يصيب البشر من الابتلاء والامتحان؛ فقد شُجّ رأس النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وكسرت رباعيته؛ فالنبي ﷺ لا يملك النفع ولا دفع الضر عن نفسه، قال تعالى عنه: **﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**

وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فالله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه أن يقول لهم: إني فقير مُدَبّر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى، وإني لا أعلم من الغيب إلا ما أطلعني عليه ربي، ولو كنت أعلم الغيب لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه، ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا علم لي بالغيب.

فهذه الآية الكريمة، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر، فإذا كان الرسول صلى اللَّه عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فكيف يطلب منه ذلك؟! وإذا كان الرسول صلى اللَّه عليه وسلم لا يملك ذلك فهل دونه من العباد يملك؟ إذا عرفت هذا ظهر لك ضلال أقوام يدعون الموتى سائلين ضارعين عند قبورهم.

الفقرة الرابعة: النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك نفع أقرب الخلق إليه فكيف بغيره:

الهداية هدايتان: (هداية بيان وإرشاد)، و(هداية توفيق)، فأما هداية البيان فهذه التي أوكلها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأما هداية التوفيق فلا يقدر عليها إلا الله، فلا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم هداية أقرب الناس إليه، فليس بيده شيء من ذلك؛ فلا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله، وإنما ينفع من قِبل ما أرسل به من البشارة والنذارة والدعوة والبيان؛ فهذا نفعه عليه الصلاة والسلام-، ومن هنا يظهر جهل من يقصد النبي صلى اللَّه عليه وسلم ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر، وإذا كان الرسول صلى اللَّه عليه وسلم لا يملك النفع فهل مَن دونه مِن العباد يملك؟!.

١٦- باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]**.**

١- في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **«إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض** - وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه- **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها، الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»**[١].

٢- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، وتكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة** - أو قال: رعدة - **شديدة خوفا من الله، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله»**[٢].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصا من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: **﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾**[٣].

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).
(٢) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢١٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٣٤٨/١)، والآجري في «الشريعة» (٦٦٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٧٨/١٩) ط هجر، وابن أبي حاتم؛ كما عند ابن كثير (٥١٦/٦)، وإسناده ضعيف، ويشهد له ما قبله.
(٣) سورة سبأ آية: ٢٣.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «**قال كذا وكذا**».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضا.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يَصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجدًا.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا أيضا برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة

المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه، أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده، خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء.

فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير الآية المعنون بها هذا الباب:

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

قال السعدي: «أي: ﴿**قُلْ**﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزما لهم بعجزها، ومبينا لهم بطلان عبادتها: ﴿**ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ أي: زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك فـ﴿**لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك؛ ولهذا قال: ﴿**وَمَا لَهُمْ**﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿**فِيهِمَا**﴾ أي: في السماوات والأرض، ﴿**مِنْ شِرْكٍ**﴾ أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعوانا للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿**وَمَا لَهُ**﴾ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿**مِنْهُمْ**﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿**مِنْ ظَهِيرٍ**﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿**وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ فهذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم، وأوثانهم، من البشر،

والشجر، وغيرهم، قطعها الله وبيَّن بطلانها، تبيينا حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه [غير الله]، لا مالكا للنفع والضر، ولا شريكا للمالك، ولا عونا وظهيرا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء، وهذه العبادة، ضلالا في العقل، باطلة في الشرع، بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبيَّن الله بطلانه وعدمه، وبيَّن في آيات أخر، ضرره على عابديه، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا، ومأواهم النار ﴿**وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾.

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل، بزعمه أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر، والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان.

وقوله: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقرون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ**﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿**الْكَبِيرُ**﴾ في ذاته وصفاته.

ومن علوه، أن حكمه تعالى، يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالا لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي

وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدفوا وصُرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام، والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق، فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه؟ فتعالى العلي الكبير، عن شرك المشركين، وإفكهم، وكذبهم»(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

الرد على عباد القبور، والأصنام، وعباد الملائكة، وغيرهم؛ فبين أن الملائكة تخاف الله، وتخاف عذابه إن خالفت أمره؛ فكيف تستحق أن تعبد؟ كيف يطلب الأمن ممن يخاف؟ وإذا كان هذا حال الملائكة فغيرهم من باب أولى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الملائكة يخافون من الله تعالى خوفًا يجعلهم يفزعون إذا تكلم الرب العظيم تبارك وتعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن الملائكة المقربين عند الله يخافون من الله تعالى؛ فإذن لا يجوز أن يُعبدوا مع الله تعالى؛ فالمعبود بحق هو الذي يُخَاف منه ولا يَخَافُ هو، ويَمْلك ولا يُملك، ويرزق ولا يُرزق، ويخلق ولا يُخلق.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في الباب السابق أنه لا يملك النفع والضر إلا الله، حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لأهله ضرا ولا نفعا، أراد بهذا الباب الرد على عبّاد الملائكة والأصنام والقبور وغيرها، فبين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله، وتخاف عذابه إن خالفت أمره؛ فهي كذلك لا تملك لغيرها نفعا ولا ضرا؛ فكيف تستحق أن تعبد من دون الله؟.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الحديث الأول: وفيه: «**إذا قضى الله الأمر في السماء**»: بين المؤلف أن هذا

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٦٧٧-٦٧٨).

الحديث الذي أورده مع الآية التي بوب بها فيهما بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله؛ فإذا كانت هذه هيبتهم وخوفهم من الله تعالى؛ فكيف يُدعى من يخاف ويهاب؟ فإذا كانوا لا يستحقون العبادة فغيرهم من باب أولى؛ ففيها الرد على جميع فرق المشركين، وخاصة عبّاد الملائكة، وعباد القبور، وعبّاد الأصنام(١).

وأما الحديث الثاني: «أخذت السماوات رجفة خوفًا من الله»: استشهد به المصنف لبيان خوف المخلوقات من الله تعالى وتقرير التوحيد؛ فإن الملائكة تعظم الخالق عَزَّ وَجَلَّ الذي هو وحده المستحق للعبادة؛ فإنه الكامل في ذاته، وصفاته، وملكه، وغناه عن خلقه؛ فلا يجوز أن يجعل له شريك مع كمال غناه، ومطلق ملكه، وعظيم قدرته(٢).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: وجود الملائكة ثابت بالكتاب والسنة والإجماع:

أدلة ذلك من الكتاب والسنة كثيرة جدًّا، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾ [الشورى: ٥]، وفي «صحيح مسلم»: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، ...**» (٣)، والآيات والأحاديث في شأنهم كثيرة جدًّا، وعلى ذلك انعقد الإجماع.

الفقرة الثانية: معنى الإيمان بالملائكة:

هو الإقرار الجازم بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله مربوبون مسخرون، وأنهم ﴿**عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وأنهم ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، ونحو ذلك مما جاء في صفاتهم.

الفقرة الثالثة: الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان:

أركان الإيمان ستة: وهي الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركنًا من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم إلا به، وكان من شك فيه أو حاول التشكيك فيه كاذبًا كافرًا لا حظ له في الإسلام؛ لتكذيبه الله ورسوله ﷺ.

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٧٣).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٧٦).
(٣) رواه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الفقرة الرابعة: خوف الملائكة من الله برهان على التوحيد:

الملائكة جند من جنود الله مطيعون الله: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، وهم خلق عظيم، وهم متفاوتون تفاوتا كبيرًا في الخلق، فقد صح أن لجبريل عَلَيْهِ السَّلَام ستمائة جناح[١]، في حين أن من الملائكة من له جناحان، قال الله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ**﴾ [فاطر:١].

وهذه المخلوقات العظيمة تخاف الله أشد الخوف هيبة وتعظيما له وإجلالا، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه، فالملائكة خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده، خاضعة له خائفة منه؛ فالرب تعالى عظيم وحميد ومجيد فتخاف منه، ومن كان هذا شأنه فهو يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم، وأما من كان يَخَاف ولا يُخَاف، ويضعف ويعتريه النقص فلا يستحق العبادة.

الفقرة الخامسة: إثبات كلام الله عَزَّ وَجَل:

ثبت من الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف في هذا الباب أن الله عَزَّ وَجَلَّ يتكلم، وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا تكلم سمعت الملائكة صوته تعالى، وفيه إثبات سماع جبريل لكلام الله تعالى، وبهذا ثبت أن الله تعالى يتكلم، وأن كلامه تعالى بصوت وحرف، وأن كلامه يُسمع، وفي هذا دليل على أن جبريل سمع القرآن من الله تعالى، ولم يأخذه من اللوح المحفوظ، ولا من السماء الدنيا، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة.

الفقرة السادسة: إبطال السحر والكهانة:

المؤمن يعلم أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وأن الغيب لا يظهره الله إلا لمن شاء من الأنبياء بقدر ما شاء تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٢]، وأن أحدًا من المكلفين لا يعلم الغيب، وأما ما يكون من إخبار الكهان والسحرة عن بعض ما هو غيب فإن ذلك بواسطة الجن المسترقة للسمع، الذين يتلقفون من أخبار الملائكة، ويلقون إلى بعضهم البعض حتى يصل إلى الأرض إلى الكاهن والساحر، فالناس يصدقون

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) كما في قول الله تعالى: {**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**} [الجن: ٢٦، ٢٧]، قال الشيخ السعدي في «تفسيره» (صـ ٨٩١): «{**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**} من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب، {**إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**} أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا؛ ولهذا قال: {**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**} أي: يحفظونه بأمر الله». اهـ.

الكاهن مطلقًا بتلك الكلمة التي قالها ووافق فيها خبر المخبر.

وينبغي للمؤمن الحذر من الكهنة والسحرة، واعتقاد أنهم لا يعلمون الغيب مطلقا، وأنهم دجالون كذابون، وموافقتهم لشيء من الوقائع لا يعني صدقهم، ولا يعني ذلك صلاح حالهم، بل إن ذلك قد يكون من قبيل موافقة القدر لقولهم، أو من قبيل المسروق من الخبر عن الملائكة، أو من قبيل الاستدلال ببعض المقدمات على نتائجها المتوقعة.

١٧- باب الشفاعة

١- وقول الله: ﴿**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾(٢).

٣- وقوله: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾(٣).

٤- وقوله: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾(٤).

٥- وقوله: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾(٥).

٦- قال أبو العباس(٦): «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾(٧)، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده -لا يبدأ بالشفاعة أولا- ثم يقال له: «**ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**»(٨).

٧- وقال أبو هريرة له صلى الله عليه وسلم: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه**»(٩).

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص»(١٠). انتهى كلامه.

---

(١) الأنعام: [٥١].
(٢) الزمر: [٤٤].
(٣) البقرة: [٢٥٥].
(٤) النجم: [٢٦].
(٥) سبأ: [٢٢-٢٣].
(٦) هو الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى
(٧) الأنبياء: [٢٨].
(٨) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٩) رواه البخاري (٩٩).
(١٠) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٧٧).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد، فإذا أذن له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون ومملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاها عظيما ومقامات عالية، ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين، ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم. وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم.

فأبطل الله هذا الزعم وبين أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له. فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة. وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة، وهو الذي أذن لمحمد صلى الله عليه وسلم

فيها وأناله المقام المحمود. فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة. وقد ذكر المصنف - رحمه الله - كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف. فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء، لا استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهرة ولا من الشفاعة شيء. وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١].

قال السعدي: «هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به **﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾** فهم متيقنون للانتقال، من هذه الدار، إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدَعُون ما يضرهم، ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: لا من دون الله ﴿وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ أي: من يتولى أمرهم فيحصّل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم، ليس لهم من الأمر شيء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه»(١).

٢- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

قال السعدي: «ينكر تعالى، على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم. **﴿قُلْ﴾** لهم - مبينا جهلهم، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة-: **﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾** أي: من اتخذتم من الشفعاء **﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾** أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل، يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلا؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما؟

﴿قُلْ﴾ لهم: **﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾** لأن الأمر كله لله. وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ**

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٥٧).

﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات. فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة»[1].

٣- وقول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال السعدي: «أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن»[2].

٤- وقول الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦].

قال السعدي: «يقول تعالى منكرا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: **﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾** من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، **﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾** أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، **﴿إلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾** أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له، ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله، موافقا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين»[3].

٥- وقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

قال السعدي: «أي: **﴿قُلْ﴾** يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزما لهم بعجزها، ومبينا لهم بطلان عبادتها: **﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** أي: زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك فـ**﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ﴾** على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك؛ ولهذا قال: **﴿وَمَا لَهُمْ﴾** أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم **﴿فِيهِمَا﴾** أي: في السماوات والأرض، **﴿مِنْ شِرْكٍ﴾** أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٧٢٦).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١١٠).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٨٢٠).

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعوانا للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو الشفاعة، وبيان المنفية منها والمثبتة، فالمخالفون يبررون شركهم بقولهم: «نحن ندعو الأنبياء والملائكة حتى يشفعوا لنا عند الله»؛ فاحتيج إلى الكلام في حقيقة الشفاعة، وأنواعها، حتى يعتقد فيها الاعتقاد الصحيح.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حقيقة الشفاعة، وبيان المثبت منها، وبيان المنفي منها، وأن الشفاعة فضل من الله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب للرد على المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين، ويقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عند الله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا أحد يملك شيئًا مع الله بين أن الشفاعة أيضًا ملك الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يعطيها لمن يشاء من عباده تعالى المصطفين والصالحين، لا أن الشفاعة ملك يستقل به كل أحد، وبهذا يتبين أنه لا يصح اتخاذ الشفعاء مع الله تعالى على الطريقة الشركية التي كانوا يقولونها ويدعونها.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: استشهد بها المصنف؛ لأنها دلت على أن المؤمنين أخلصوا نيتهم وعملهم لله تعالى، وتركوا التعلق بغيره؛ فإن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٦٧٨

الموحد يستيقن بأن الله هو وليهم، وهو يأذن بالشفاعة لمن أراد.

الآية الثانية: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾: فيها دليل على أن من يُدعى من دون الله بحجة الشفاعة أن دعاءه إياه بالباطل، وأن الشفاعة لله؛ فلهذا أنكر على من صرف عبادة لغير الله، وقال: أنا أطلب منهم الشفاعة؛ فقيل له: الشفاعة لله كلها، فهذا خبر الله لنبيه بأن يقول للناس الذين يصرفون العبادة لغير الله بحجة الشفاعة، ويطلبون الشفاعة من الأموات: إن الشفاعة لله وحده.

الآية الثالثة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: استدل بها المصنف لبيان أن الشفاعة لا تكون في الآخرة إلا بعد إذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وليست الشفاعات عنده كشفاعات الناس عند ملوكهم؛ فيشفعون لمن يرضى عنه الملك ويشفع من قد لا يرضى عنه الملك، والله تعالى أعظم وأجل من أن يشفع أحد إلا بعد أن يكون مرضيًّا عنده، ولا يشفع عنده إلا في مَرضِيٍّ عنده.

الآية الرابعة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: فيها الاستدلال بنفي شفاعة المقربين من الملائكة إلا بعد إذن الله تعالى؛ فكيف بمن دونهم؟

الآية الخامسة: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: قد بين المصنف وجه الاستشهاد بهذه الآية بنقله كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وخلاصته: أن فيها قطع جميع علائق الشرك؛ فليس لغيره ملك، وليس أحد شريكا مع الله في ملكه، ولا يكون أحد له عونا؛ فلم يبق إلا الشفاعة؛ فنفاها أيضًا بالدليل القاطع وأنها لا تكون إلا لمن أذن له الرب عَزَّ وَجَلَّ(١).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الشفاعة وأنواعها:

الشفاعة هي: طلب التوسط عند الغير في جلب نفع أو دفع ضر، وهي نوعان:

١ - شفاعة مثبتة، وهي نوعان:

أ) شفاعة تطلب من الله بإذنه لمن يرضى قوله وعمله.

ب) من المخلوق فيما يقدر عليه.

٢ - شفاعة منفية، ومنها:

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٨٠).

أ) الشفاعة التي تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ب) الشفاعة بغير إذنه.

ج) الشفاعة لأهل الإشراك به.

الفقرة الثانية: الشفاعة ملك الله:

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مالك الشفاعة، قال تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾، فالشفاعة لله وحده سبحانه، وإنما يشفع الأنبياء والصالحون بإذنه، وهو يعطيها من يشاء فضلًا؛ فيجب أن تُطلب منه ولا تُطلب من غير الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: «فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده، فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده؛ فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه؛ فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له، وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من أن يرحم عبده»(١).

الفقرة الثالثة: شروط الشفاعة:

للشفاعة شرطان:

الأول: الإذن من الله للشافع أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾.

الثاني: رضاه عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾، ويدخل في الرضا أن يكون الشافع مرضيًّا عند الله تعالى؛ فليس كل أحد يكون من الشفعاء، كما جاء في الحديث عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء، ولا شفعاء يوم القيامة**»(٢).

الفقرة الرابعة: أنواع الشفاعات يوم القيامة:

١ ـ الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل حتى تنتهي إلى النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيقول: أنا لها، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من كرب الموقف، وهذه خاصة له صَلَّى اللَّهُ

---

(١) ينظر: «إغاثة اللفهان» لابن القيم (٣٩٥/١) ط عالم الفوائد.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٨).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنة في دخولها، وهي خاصة له صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وهي خاصة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٤ ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوم من العصاة من أمته ألا يدخلوا النار.

٥ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إخراج العصاة من أهل التوحيد من النار.

٦ ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم.

٧ ـ شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأقوام استوت حسناتهم وسيئاتهم في أن يدخلوا الجنة.

الفقرة الخامسة: أسعد الناس بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وأسعد الناس بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه، وهذا يعني أن مستحق الشفاعة هو من أتى بالتوحيد، لا مجرد اللفظ؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خالصًا من قلبه**»، وهذا يعني أنها لأهل الإخلاص والتوحيد لا لأهل الشرك والنفاق والكفر.

الفقرة السادسة: حكم الاستشفاع بالأولياء والصالحين الأموات:

لم يأذن الشارع في الاستشفاع بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين، ولم يأذن في طلب الشفاعة منهم؛ كأن يقول: يا سيدي فلان، اشفع لي في قضاء كذا وكذا، ويا مولاي فلان توسلت بك إلى ربي فادع الله لي يفعل بي كذا وكذا.

وهذا النوع من الاستشفاع فيه جمع بين عظيمتين من عظائم الشرك:

الأولى: دعاء غير الله تعالى، وهو شرك أكبر.

والثانية: قياس الخالق على المخلوق، وتشبيهه به حيث طلبوا له الواسطة كما تطلب للمخلوق من ذوي السلطان، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به، وينبهه إليه، بخلاف الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإنه عليم بأحوال عباده لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

الفقرة السابعة: الشفاعة التي أبطلها الله:

الشفاعة التي أبطلها الله هي شفاعة الشريك؛ فإنه لا شريك له، والتي أثبتها

شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له(١).

(١) ينظر: «إغاثة اللفهان» لابن القيم (٣٩٦/١) ط عالم الفوائد.

١٨- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

في «الصحيح» عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل. فقال له: «**يا عم: قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فأنزل الله: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾(١)، وأنزل في أبي طالب: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾(٢)،(٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾(٤).

الثانية: تفسير ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾(٥).

الثالثة: - وهي المسألة الكبيرة-: تفسير قوله: «**قل لا إله إلا الله**». بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال للرجل: «قل لا إله إلا الله» فقبح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جده صلى الله عليه وسلم ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

---

(١) التوبة: [١١٣].
(٢) القصص: [٥٦].
(٣) رواه البخاري (٣٨٨٤) ومسلم (٢٤).
(٤) القصص: [٥٦].
(٥) التوبة: [١١٣].

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبى جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا الباب أيضا نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق على الإطلاق، وأعظمهم عند الله جاها وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق، وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات فتبين أنه الإله الحق. وأما قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(١) فالمراد بالهداية هنا: هداية البيان وهو صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله وحيه الذي اهتدى به الخلق.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١-قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنك يا محمد -وغيرك من باب أولى- لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:٥٢]، فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان،

---

(١) الشورى: [٥٢].

ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادرا عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى»(١).

٢ـ قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣].

قال السعدي: «يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به **﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾** أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره **﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾**، فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضا فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو بيان عظمة ملك الله تعالى، وأنه هو المالك، والمتصرف في خلقه بما يشاء، والمدبر لجميع العوالم، والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام- وأفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملكون شيئًا مع الله تعالى، وأنهم لا يستطيعون أن يهدوا من لم يهده الله.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الهداية التي هي بمعنى التوفيق والإلهام بيد الله تعالى، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك شيئًا من هذا النوع.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٦١٩ـ٦٢٠).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٥٣).

عقد المؤلف هذا الباب ليبين أن الرسل وأفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملكون شيئًا من أمر الله، ولا شيئًا من خصائصه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنهم لا يستطيعون هداية البشر إلا من هداه الله، وليس لهم من الشرف إلا ما جعل الله لهم، لذلك لا يصح أن يُعبدوا من دون الله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

مناسبة هذا الباب أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدا إلا أن يشاء الله تعالى هدايته.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

أورد آية الباب: ليجعله عنوانًا للمسألة، وهو أن الهداية بيد الله، وهي التوفيق والإلهام، وهي منفية عن الأنبياء والمرسلين، وعن جميع المخلوقين، فلا يهدي هداية توفيق إلا الله تعالى.

وأما الحديث الذي استشهد به؛ فإنما أتى به ليبين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق على الإطلاق، وأعظمهم عند الله منزلة، لم يستطع أن يجعل في قلب عمه هداية التوفيق، مع حبه لذلك وحرصه على هدايته، فكيف بغيره؟

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾:

عن أبي هريرة رضي لله عنه قال: قال رسول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعمه: «**قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**»، قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك؛ فأنزل الله تعالى: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يهدي من أحب هدايته، ولكنه جَلَّ

---

(١) رواه مسلم (٢٥).

وَعَلَا هو الذي يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين»[(١)].

الفقرة الثانية: أنواع الهداية ومعنى كل نوع:

الهداية نوعان:

الأول: هداية التوفيق والقبول، والإلهام، وهي خلق الهدى في قلب الضال، وهي المنفية في هذا الباب من غير الله تعالى، ولا يملكها إلا الله، بل هذا النوع من الهداية هي من خصائص الله تعالى؛ لذا قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾، أي: لا تخلق التوفيق في قلب من أضله الله.

الثاني: هداية الدلالة والبيان والإرشاد، مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:٥٢]. فهو المبين عن الله، والدال على دينه وشرعه، وهي جائزة في حق المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد:٧]، والقرآن مبين، والعلماء يبينون.

الفقرة الثالثة: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقدر على هداية من أحب:

مات عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو طالب على الشرك والكفر لسبق قضاء الله وقدره، ولو كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك هداية القلوب لهداه مع حرصه على هدايته ولكن الهداية بيد الله تعالى، وهذا هو معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[(٢)]. وإذا كان الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مع حرصه لم يملك الهداية لعمه فغيره أولى وأحرى.

الفقرة الرابعة: النهي عن الاستغفار للمشركين:

رَغِبَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاستغفار لعمه أبي طالب الذي مات على الشرك فنهاه الله عن ذلك؛ بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى**﴾ [التوبة: ١١٣]، وإنما نهينا عن الاستغفار للمشركين؛ لأن المشرك مخلد في النار، والاستغفار ينافي ذلك، أما الدعاء للمشرك بالهداية، والإسلام، وأن يشرح الله صدره؛ فهذا جزء من الدعوة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإنما يكون للمشرك الحي الذي يمكن منه الإسلام.

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٣٠٣/٦).

(٢) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

١٩- باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

١- وقول الله - عز وجل-: ﴿**يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾[١].

٢- وفي «الصحيح» عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾[٢] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت»[٣].

وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»[٤].

٣- وعن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» أخرجاه[٥].

٤- وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»[٦].

٥- ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**هلك المتنطعون**»، قالها ثلاثًا[٧].

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله

---

(١) النساء: [١٧١].
(٢) نوح: [٢٣].
(٣) رواه البخاري (٤٩٢٠).
(٤) ينظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٣٣٢/١) ط عالم الفوائد.
(٥) رواه البخاري (٣٤٤٥)، ولم يروه مسلم.
(٦) رواه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه والحاكم وغيره.
(٧) رواه مسلم (٢٦٧٠).

أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

فالأول: محبة الصالحين.

والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئا أرادوا به خيرا، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تئول إليه البدعة ولو حَسُن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يئول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: - وهي أعجب وأعجب- قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

والغلو: هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق والغنى المطلق والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه. فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيبا من هذه الأشياء، فقد ساوى به رب العالمين، وذلك أعظم الشرك. ومن رفع أحدا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه، وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين. والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم، ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم، ويقومون بحقوقهم الحقيقية، ولكنهم يبرءون من الغلو فيهم، وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضا يتبرءون من أن يدعوا لأنفسهم حقا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى صلى الله عليه وسلم: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾(١).

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك، وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه حبا وخوفا ورجاء. وحق خاص للرسل، وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة. وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله وطاعة الله ورسله ومحبة الله ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلا وللرسل تبعا لحق الله. فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة، فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم. والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

---

(١) المائدة: [١١٦].

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ وقول الله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

قال السعدي: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: **﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾**، وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور»(١).

٢ـ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال السعدي: «**﴿وَقَالُوا﴾** لهم داعين إلى الشرك مزينين له: **﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾** فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم فقالوا: **﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾**، وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان ما جاء من الأدلة الشرعية في أن سبب كفر بني آدم هو الغلو في الصالحين، وهناك أسباب أخرى مثل الحسد والبغض، ولكن الغالب أن سبب كفر بني آدم الغلو؛ حتى أدى ذلك إلى صرف العبادة فيمن غلوا فيهم.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢١٦).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ٨٨٩).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

باب في بيان سبب من أسباب وقوع بني آدم في الكفر، وبيان سبب من أسباب ترك الدين، وأن ذلك هو الغلو الذي هو الإفراط في الصالحين.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب ليبين ما يؤول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله؛ فإن من أهم أسباب كفر المشركين الغلو في الصالحين.

الفقرة الثالثة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف مضار الشرك أراد أن يبين سبب وقوع الناس فيه، وأن الناس إنما يُؤْتون من قِبَل الإفراط والإسراف في الصالحين؛ فيقعون في ترك الدين الحق، ومن ثُمَّ الشرك والكفر.

الفقرة الرابعة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿**يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا**﴾: فيها التصريح بالنهي عن الغلو، وأن الله نهى أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى- عن الغلو.

وأما قول ابن عباس في تفسير الآية: فإنما أورده المصنف ليستشهد به على أن كفر بني آدم كان بسبب الغلو كما بين ابن عباس؛ فهم أولًا جعلوا الصور، ثم تعظيمها، ثم العكوف عليها، ثم عبادتها، والتوسل إليها وبها، وصرف العبادة لها.

حديث ابن عمر: «**لا تطروني..**» فيه تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو فيه، وهذا من تمام نصحه، وعظيم إرشاده، وعمق نظره؛ فأشفق على الأمة من الغلو فحذرها؛ فإن الغلو فيه سبب يجر ابن آدم إلى ما حصل ممن قبلنا؛ وأكد النهي بأنه عبد الله ورسوله؛ فلا وصف أعظم من هذا، فعَلَامَ الأقوال التي لم ينزل الله بها من سلطان؟

حديث: «**إياكم والغلو..**»، وحديث: «**هلك المتنطعون**»: استشهد بهما المصنف لبيان هلاك المتنطعين والمتعمقين والمتكلفين، المجاوزين للحد، الغالين في الأمور، وفيهما النهي الصريح عن الغلو، وما كان مثله.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الغلو وحكمه:

الغلو: مجاوزة الحد والإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد؛ فمن غلا في أحد من المخلوقين بأن أعطاه من حقوق الله شيئًا لا يشاركه فيه مشارك وهو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والشرف المطلق، من جميع الوجوه والعبادة؛ فقد ساوى به رب العالمين، وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحدًا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله إياها فقد غلا فيه، وذلك وسيلة إلى الشرك.

الفقرة الثانية: غلو أهل الكتاب في دينهم:

النصارى غلوا في نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورفعوه فوق مقام النبوة والرسالة في قولهم في عيسى إنه ابن الله ، وجعلوه إلها مع الله تعالى، وهذا من أعظم البهت والكفر، وفي هذا تحذير للأمة أن تفعل كفعل النصارى فتغلو في الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترفعه فوق منزلته التي أنزله الله إياها وهي الرسالة والنبوة، فلا يُدعى من دون الله.

الفقرة الثالثة: أول شرك حدث في الأرض سببه الغلو في الصالحين:

ذكر ابن عباس رضي الله عنه قصة حدوث الشرك في الأرض بعد آدم، حيث كان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن بعده من ذريته كلهم على التوحيد عشرة قرون، ثم ذكر أن أناسًا صالحين من قوم نوح كانوا أهل عبادة وزهد فلما ماتوا جاء الشيطان إلى قومهم وأوحى إليهم أن صوروا صورهم حتى تتذكروا أعمالهم، وتفعلوا كفعلهم، وتزدادوا بذلك عبادة وصلاحًا؛ فلما مات من فعل ذلك لأجل الذكرى والاقتداء بهم أتى الشيطان إلى من بعدهم، وقال: ما فعل ذلك أولئكم إلا لأنهم يعبدونهم، فغرر بهم فعبدوهم.

الفقرة الرابعة: النهي عن إطراء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نهى النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إطرائه فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا : عبد الله ورسوله**»، والإطراء: هو المبالغة في المدح والكذب فيه، والمعنى: لا تتجاوزوا الحد في مدحي بغير الواقع فيجركم ذلك إلى الكفر كما جر النصارى إليه لما تجاوزوا الحد في عيسى فاتخذوه إلها، وإنما أنا عبد الله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، ولا تخالفوا ما علمتكم.

والتنطع من الغلو؛ فإن التنطع: هو التعمق في الشيء، والتكلف فيه، ومجاوزة الحد في القول والفعل، والتشدد في غير موضع التشدد.

فالتنطع هو نوع من الغلو، كما أن الإطراء هو نوع من الغلو، فيجب الحذر من التنطع، والإطراء لما فيه من الغلو والمبالغة والزيادة؛ لأنه قد يوصل إلى

الشرك المنافي للتوحيد، وخير الأمور الوسط، فلا غلو ولا جفاء.

الفقرة الخامسة: ميزان التعامل مع الصالحين:

يجب محبة الصالحين وموالاتهم، والقيام بحقوقهم الحقيقية، والبراءة من الغلو فيهم، والبراءة من ادعاء عصمتهم كما قال الله تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾، والصالحون أيضًا يتبرءون من أن يَدَّعوا لأنفسهم حقا من حقوق ربهم.

والمخالفون في ذلك هم على صنفين:

أ- أهل الجفاء، وهم الذين يهضمون حقوق الأنبياء والصالحين، ولا يقومون بحقهم من الحب، والموالاة والتوقير والتبجيل والاتباع بحق، والدعاء لهم، والثناء عليهم.

ب- أهل الغلو، وهم الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها، ويرونهم وسائط الله بين وخلقه في العبادة، أو يرونهم وكلاء عن الله تعالى، أو نحو ذلك من الأمور التي ليست هي لهم ولا إليهم.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

«إقامة المشاهد والافتتان سنة قديمة جدًّا، سنها الشيطان قبيل عهد نوح عليه السلام، وقبل ذلك كانت البشرية تعيش عل التوحيد، فذاقت أشهى ثماره، فسعدت في حياتها الدنيا قبل الآخرة، فشق هذا الواقع على عدو الله إبليس، فسعى في إفساد عقائدهم، وهلهلة توحيدهم، فوجد أقرب سبيل لذلك حملهم على تقديس الأشخاص الصالحين، وصرف حق الله في العبادة لهم، وقد تذرع لذلك بإقامة المشاهد وتعظيمها، فتم له ما أراد»(١).

«وقد شاعت هذه الفتنة، فإنك لا تكاد تنزل في بلد من بلاد العالم الإسلامي إلا ويقابلك قبر مشرف أو قبة مرفوعة على رفات مقبور، أو مسجد يحتوي على قبر مقدس، وليس الأمر هنا محصورًا على عوام أهل التصوف وجهلتهم، لكنك تجد العالِم والجاهل، والغني والفقير في هذا الأمر على حد سواء، وليس أدل على مزاحمة علمائهم لعوامهم من كتاب: «إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور» للشيخ أحمد بن الصديق الغماري الصوفي، ذلك الكتاب الذي وصفه الشيخ الألباني بحق بأنه: «من أغرب ما ابتلي به المسلمون

---

(١) ينظر: «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٥٤/٢) بتصرف يسير.

في هذا العصر»، وبأنه: «قَبَرَ كل الأحاديث المتواترة في تحريم بناء المساجد على القبور»، ...» [١].

(١) ينظر: المصدر السابق (٢/٧٣).

٢٠- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

١- في «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح** - أو العبد الصالح - **بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١). فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل.

٢- ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال - وهو كذلك -: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحذر ما صنعوا(٢)، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا(٣). أخرجاه.

٣- ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا. ولو كنت متخذا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٤). فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن- وهو في السياق(٥)- من فعله. والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدا. فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»(٦).

٤- ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»(٧). ورواه أبو حاتم في «صحيحه».

---

(١) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٢) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.
(٣) البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) رواه مسلم (٥٣٢).
(٥) أي: في سياق الموت، وذلك قبل موته صلى الله عليه وسلم بخمس، كما في حديث جندب رضي الله عنه.
(٦) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٧) رواه أحمد في «مسنده» (٣٨٤٤)، وابن خزيمة (٧٨٩٠)، وابن حبان (٦٨٤٧)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧/٢)، وكذلك حسنه الألباني.

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك. كيف بين لهم هذا أولا، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا، وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهما الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بلي به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع.

الثالثة عشرة: مما أكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصِّدِّيق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

(تعليق الشيخ السعدي على هذا الباب مع الباب الذي يليه للمناسبة بينهما).

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: المعنى العام لأحاديث الباب:

دلت أحاديث الباب على التحذير الشديد من اتخاذ قبور الصالحين موضعًا لعبادة؛ لأن ذلك ذريعة للشرك وعبادة هؤلاء الصالحين، وإذا كان الشرع قد نهى عن عبادة الله تعالى عند قبور الصالحين فهذا من حرص الشريعة على سدِّ الذرائع المؤدية للشرك، وقد رأينا هذا في الواقع ممن قصد عبادة الله عند قبور الصالحين، فكان مآل أمرهم إلى عبادة الصالحين وصرف العبادات التي لا تكون إلا لله لهم.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان شدة التحذير من عبادة الله عند قبور الصالحين، والتحذير أشد من عبادتهم، فبين الأدلة الشرعية الواردة في ذلك.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا الباب لبيان ما جاء في الشرع من التغليظ في العبادة في المواضع التي لم يشرع العبادة فيها، كقبور الصالحين، فكيف بمن عبدهم؟ وصرف العبادة لهم؟.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن عبادة الله تعالى في الأماكن التي لم تشرع وسيلة إلى الشرك منهي عنها، وهذا فيه بيان أن الشرع جاء بسد الذرائع المفضية إلى الشرك، وهذا يفيد أن المصنف رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يبين أن الشرع جاء بسد الذرائع المفضية إلى الشرك.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما سبق بيان نتيجة الغلو في الصالحين، وما يؤدي إليه من الشرك؛ ناسب أن يبين هنا أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر ينافي التوحيد، وعبادة الله عند قبورهم وسيلة إلى هذا الشرك الأكبر.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح»: استشهد به المصنف ليبين شدة غضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظيم تحذيره من طريقة أولئك

القوم الضلال؛ وأنهم شرار الخلق.

الحديث الثاني: «لعن الله اليهود والنصارى»: بين المؤلف بهذا الحديث تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صنع اليهود والنصارى، فحذر من اتخاذ القبور مساجد كما فعلوا، ونهى عن ذلك أشد النهي، وأن ذلك سبب عظيم من أسباب لعنة الله.

الحديث الثالث: «إني أبرأ إلى الله»: ذكره المصنف لما اشتمل من النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ومنع ذلك بطرق عدة:

أ- ذم ما فعلوه.

ب- قال: «**لا تتخذوا**».

ج- قال: «**فإني أنهاكم عن ذلك**»، وهذه مبالغة عظيمة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النهي عن ذلك؛ لأنه وسيلة إلى الشرك(١).

الحديث الرابع: «إن من شرار الناس...»: أورده المصنف للتحذير من العبادة عند القبور، وأن ذلك فعل شرار الناس؛ كما بين النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم بناء المساجد على القبور:

بناء القبور على المساجد محرم وغير جائز، والدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولئك شرار الخلق عند الله**». ونهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك كما في أحاديث الباب، ولعن فاعله، وهذا النهي يدل صراحة على التحريم.

ولا ينبغي الاستشهاد بفعل السلاطين والحكام على الشرع؛ فإن الوقائع ينبغي الاستدلال لها، ولا يجوز الاستدلال بها، ولما أدخل قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توسعة المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك أنكره علماء عصره، ولكن حصل ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١].

وقد صرح جمع من أهل العلم بأنه لا تجوز الصلاة عند القبور، وإن كان يصلي لله تعالى؛ لأن الصلاة عند القبور من أعظم الأسباب الموصلة إلى الشرك،

---

(١) انظر: «تعليقات الشيخ ابن باز» (ص١١٥).

واستدلوا على ذلك بالأحاديث التي تنهى عن الصلاة عند القبور، فمَن عبد الله تعالى عند قبر؛ كصلاة، أو ذبح، ونحو ذلك فقد ارتكب أمرًا محرمًا؛ لأنه بذلك قد تذرع إلى الوقوع في الشرك، وصار بذلك مضاهيًا للمشركين أهل الأوثان وإن كانت نيته أنه يعبد الله تعالى؛ لأنه قد عبد الله في موضع لم يكن يجوز له أن يعبد الله تعالى فيه خوفًا من الوقوع في الشرك أو حبائله، ووسائله، فكيف بمن عبد غير الله تعالى؛ من سجدة لغير الله، أو نذر لغير الله، أو استغاثة بغير الله تعالى، ونحو ذلك(١).

وكذلك الحكم في الدعاء؛ أي: الاستغاثة بالله تعالى وطلب المدد منه عند القبور على ظن أن الدعاء عند القبور مستجاب وأنه مبارك، فقد صرح جمع من أئمة الإسلام الذين قد عرفوا الواقع وتمكنوا من فقهه، وعرفوا حقيقة الشرك ووسائله، وعرفوا حقيقة التوحيد ومطالبه صرحوا بأنه لا يجوز لشخص أن يدعو الله تعالى، ويطلب منه المدد، ويستغيث به عند القبور؛ لأنه من وسائل الشرك، بل هذا من أعظم وسائل الشرك؛ فكيف إذا استغاث بأهل القبور؟ ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه أتى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو قبر رجل صالح آخر ودعا الله هناك؛ لأنهم كانوا يعرفون فقه الواقع وأنه من وسائل الشرك، والله المستعان(٢).

الفقرة الثانية: بناء المساجد على القبور من سنن اليهود والنصارى:

بناء المساجد على القبور من سنن الأمم السابقة اليهود والنصارى، فمن عادتهم أنهم إذا مات عندهم الرجل الصالح بنوا على قبره موضعًا للعبادة، وصوروا فيه صورته، وزينوا العبادة فيها وحولها، وأخبر -عليه الصلاة والسلام- أن هؤلاء الذين يعملون هذا هم أكثر الخلق شرا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الفقرة الثالثة: شرار الخلق عند الله:

شرار الخلق عند الله هم الذين يبنون المساجد على القبور، ويصورون فيها

(١) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام (صـ ٤٠٢)، و«إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/١٨٥-١٨٨)، و«زيارة القبور» للبركوي (٨، ٩، ١١، ١٥، ٣٨، ٣٩)، و«مجالس الأبرار» للرومي (١٢٣-١٢٧)، و«حجة الله البالغة» للدهلوي (١/ ١٩٣ -١٩٤)، و«فتح المنان» (صـ ٤٧٧، ٥١٢، ٥٢٢)، و«غاية الأماني» كلاهما لمحمود شكري الألوسي (١/ ٢٦٨-٢/ ٣٢٨).

(٢) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام (صـ ٤٠٢)، و«إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/١٨٥-١٨٨)، و«زيارة القبور» للبركوي (٩-١٧، ٢٤-٢٧، ٣٤-٤٠-٤١، ٤٧)، و«مجالس الأبرار» للرومي (صـ ١٢٤-١٢٦)، و«روح المعاني» للألوسي (٦ / ١٢٥)، و«جلاء العينين» لابن الألوسي (صـ ٤٥٦-٤٦٠، ٤٨٣-٤٨٧، ٤٩٥-٤٩٦)، و«فتح المنان» (ص٣٥٧-٣٥٨)، و«غاية الأماني» كلاهما لمحمود شكري الألوسي (٢/ ٢٠٥).

الصور، وإنما كانوا شرار الخلق؛ لأنهم ظلموا أنفسهم وأضلوا غيرهم، وسَنوا لمن بعدهم الغلو في قبور الصالحين حتى أفضى إلى عبادتهم من دون الله.

الفقرة الرابعة: أول من بنى المساجد على القبور في الإسلام:

أول من بنى على القبور المساجد في الإسلام هم الرافضة، الذين غلوا في آل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبدوا تلك القبور مع الله تعالى، وكان ذلك نهاية القرن الرابع الهجري على أيدي العبيديين في مصر، المسمين بالفاطميين، ثم قلدهم أناس من المنتسبين إلى أهل السنة زورًا في كثير من بلاد المسلمين؛ وهم عامة المتصوفة.

فجمع هؤلاء بين تعظيم القبور، وتصوير صور الصالحين؛ فشابهوا أهل الكتاب في أعمالهم وأفعالهم.

الفقرة الخامسة: حكم الصلاة عند القبور:

الصلاة عند القبور محرمة؛ لأنها وسيلة إلى الشرك، وعبادة الأموات، واتخاذهم وسائط في العبادة، وسبب لدعائهم، وسؤالهم قضاء الحاجات، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى(١).

الفقرة السادسة: فتنة القبور والتماثيل:

افتتنت الأمم السابقة بتعظيم القبور من بناء المساجد عليها، واستقبال القبور للصلاة والدعاء والسجود عندها، والنقوش عليها، وإرخاء الستور وإضاءتها بالسرج، وتصوير التصاوير والتماثيل.

وقد جمعوا في فعلهم هذا بين فتنتين عظيمتين محرمتين: فتنة تعظيم القبور، وفتنة التصاوير، ومن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون والذين يعظمون القبور.

ولذلك شدد أئمة الإسلام النكير على القبورية الذين يعبدون القبور وأهلها وافتتنوا بهذه الفتنة فقالوا: «وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة أصحاب القبور، وهي أصل فتنة عبادة الأصنام، كما قال السلف من الصحابة والتابعين؛ فإن الشيطان ينصب لهم قبر رجل معظم يعظمه الناس ثم يجعله وثنا يُعبد من دون الله»(٢).

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (ص ٩١).

(٢) ينظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢١٢/١)، و«زيارة القبور» للبركوي (صـ ٥٢)، و«مجالس الأبرار» للرومي (صـ ١٣٠).

وقالوا: «ومن عظيم كيد الشيطان ما نصبه للناس من الأنصاب...، والنصب: كل ما نصب وعبد من دون الله من شجر، أو حجر، أو وثن، أو قبر، أو عمود، أو غير ذلك، فالواجب هدم ذلك كله ومحو أثره»(١).

وقالوا في بيان خطر هذه الفتنة؛ أي: الافتتان بفتنة القبور والتماثيل-: «وهي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بشجر أو حجر»(٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان خطر الافتتان بعبادة القبور والتماثيل: «ومن أعظم مكائد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس وما نجا إلا من لم يُرِد الله فتنته، ما أوحاه قديما وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم، واتخذت أوثانًا، وبنيت عليها الهياكل، وصورت أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادًا لها ظل، ثم جعلت أصناما وعبدت مع الله». وقال: «فهؤلاء القبورية جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور، وفتنة التماثيل»(٣).

الفقرة السابعة: زيارة القبور:

زيارة القبور للرجال على قسمين: مشروع وممنوع:

١ - أما المشروع: فهو زيارة القبور على الوجه الشرعي، فيزورها المسلم ويدعو لأهلها ويتذكر الآخرة، وهذا القدر يحصل بقبر كل ميت، ويعلم أنه لا يبقى بل عن قريب يفنى وهذه الزيارة الشرعية مقيدة بقيدين:

الأول: ألا يسافر إليها على وجه الخصوص.

الثاني: ألا يقول هجرا ولا قولا سخطا، بل يدعو للأموات بالمغفرة والرضوان.

٢- وأما الممنوع فهو نوعان:

الأول: شرك أكبر؛ كدعاء أهل القبور، والاستغاثة وطلب الحوائج منهم، وجعلهم وسائط فيما يطلب من الله تعالى؛ كأن يقول للميت: يا شيخ يا ولي اطلب من الله أن يفرج كربتي، ونحو ذلك مما فيه التجاء إلى نفس المقبور، وطلب من

---

(١) ينظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٣٢٦/١)، و«زيارة القبور» للبركوي (صـ ٤٩ - ٥٢)، و«مجالس الأبرار» للرومي (صـ ١٢٨-١٣٠).
(٢) ينظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم الموضع السابق، و«زيارة القبور» للبركوي (صـ ٩)، و«مجالس الأبرار» للرومي (صـ ١٢٤).
(٣) ينظر: «إغاثة اللهفان» (٢٨٦/١-٢٨٧).

نفس الميت.

الثاني: وسيلة إلى الشرك؛ كالتمسح بالقبور والصلاة لله تعالى عندها، وإسراجها، والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة، وهذا النوع محرم ومن الكبائر، ومن الوسائل المفضية إلى الشرك، وفيه تشريع وابتداع؛ إذ شرع أماكن يتقرب بها إلى الله تعالى، وهذه الأماكن لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الفقرة الثامنة: شدة غضب الله على متخذي القبور مساجد:

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغضب إذا انتهكت محارمه، وأعظم ما يكون فيه انتهاك المحارم: الوقوع في الشرك؛ ولذا غضب ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى -كما يليق به- على من اتخذ القبور مساجد، فكيف يكون غضبه على من عبدها من دون الله؟!

فغضب الله تعالى إنما كان على هؤلاء؛ لأنهم صيروا القبور وسيلة لصرف الناس عن عبادة الله تعالى؛ وهذه هي طريقة الأولين والآخرين، فهذه الوسائل المنهي عنها في الشرع تجر إلى مثل هذه الغايات الوخيمة[١].

الفقرة التاسعة: ثبوت الخُلَّة لإبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-:

وصف الله نفسه بأنه يحب المؤمنين المحسنين المتقين؛ فقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ٧٦].

وثبت لإبراهيم ولنبينا محمد عليهما الصلاة والسلام- أعلى مراتب المحبة، وهي الخُلّة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»[٢].

الخلة: الصداقة والمحبّة التي تخللت القلب فصارت خلاله[٣]، وحقيقتها: توحيد المحبة، وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص للخليلين -صلوات الله وسلامه عليهما-: إبراهيم ومحمد، فالخليل هو الذي توحد

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١١٨).
(٢) رواه مسلم، وقد تقدم في أول هذا الباب.
(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٦/٣٨٩).

حبه لمحبوبه[١].

ووصف الله تعالى المحبة للمؤمنين والمطهرين والمتقين، والخُلَّة للخليلين إنما يثبت هذا الوصف كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صفاته، فالقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر؛ فالله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ، وليست المحبة كالمحبة؛ لأن القول في الصفات كالقول في الذات.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال الشيخ تقي الهلالي: «شرك المشركين في هذا الزمان أغلظ بكثير من شرك المشركين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، مع أن أولئك لم يكن عندهم كتاب منزل محفوظ، ولا سنة نبي مدونة، وإنما كان عندهم بقية قليلة من دين إبراهيم وإسماعيل، وهؤلاء عندهم كتاب الله مصون في المصاحف ومحفوظ في الصدور، مبين بالتفاسير، وعندهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين مدونة مبينة، ومع ذلك بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من الشرك، ونبذوا كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم، واستعاضوا عنها بأساطير المتأخرين، فنحمد الله على العافية»[٢].

---

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص١٩٠)، وروضة المحبين (ص٤٧).
(٢) «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٢/٢٢٣).

فهرس الموضوعات